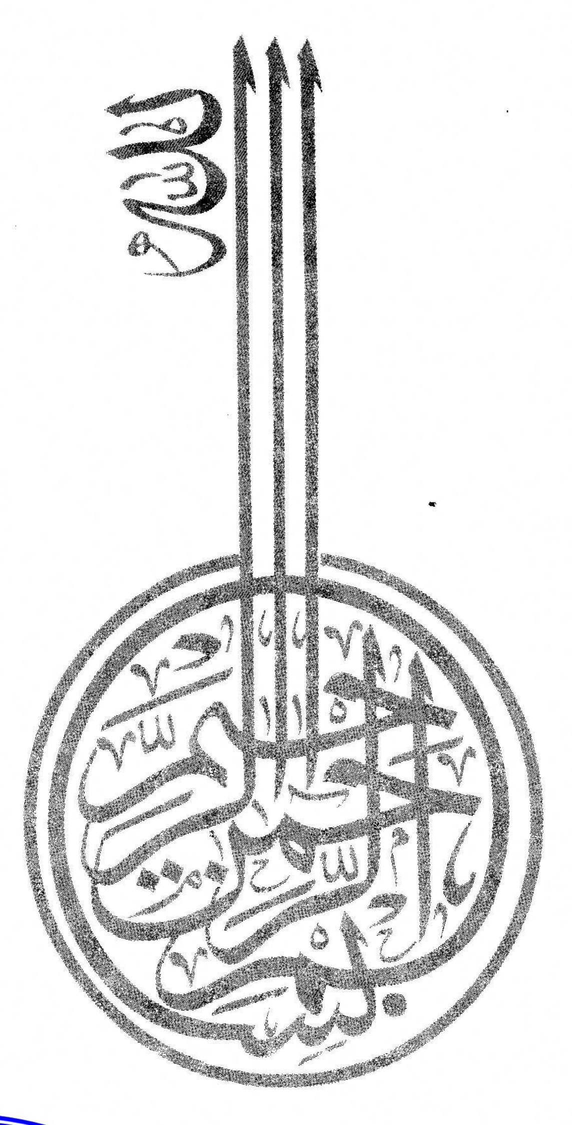

شرح
دعاء
الإفتتاح
محمد علي اللواتي
Taw7eed


بسم الله الرحمن الرحيم

عنوان الكتاب : شرح دعاء الإفتتاح

المؤلف : محمد علي محمود اللواتي (محمد علوان)

الناشر : المؤلف

تصميم الغلاف : الفاضلة / توحيد محمد اللواتي

المطبعة : مطبعة العنان ش.م.م.

الطبعة : الأولى

سنة الطبعة : ٢٠١١م

رقم الإيداع : ٢٣٩ / ٢٠١١

شرح
دعاء
الإفتتاح

الإهداء

الحمد لله الذي أعانني على ختم شرح هذا الدعاء الشريف ، المسمى بدعاء الإفتتاح ، الوارد عن إمام العصر والزمان الحجة ابن الحسن (أرواحنا لتراب مقدمه الفداء) .
وإذ قد شملتني بركات سادتي أهل البيت (ع) وخصوصا إمامي وسيدي المهدي الموجود الموعود ، وأحاطت بي في إنجاز هذا العمل ، فإنني أفتخر بأن أقدم هذه البضاعة المزجاة إلى مولاي بقية الله الأعظم (عج) هدية متواضعة .
راجيا منه صلوات الله وسلامه عليه القبول والدعاء لي ولوالدي ولزوجتي وبناتي وإخوتي ولسائر المؤمنين .
وأضعه تحت رأس أمي الحنون ، و زوجتي الوفية المخلصة ، عرفانا لما لهما علي من الفضل .

أنوار آل البيت شعت في الدجى

فغدى نهارا مشرقا وضاء

ليل الجهالة مسفر عن باهر

كالشمس نورا ساطعا إذ جاء

أنوار قدس الله جل جلاله

رب العلا زان بهم أرجاء

فالعرش والأفلاك تعرف قدرهم

فهمو همو إذ علم الأسماء

وهم الصراط وباب حطة من أتى

نعم الجواب وبالكرامة باء

يتضرعون لربهم بتلاوة

ويرددون (الإفتتاح) دعاء

كل الثناء لربنا فبحمده

نسموا لنرقى ذروة علياء

في دولة المهدي نعبد ربنا

بالعدل نحيا عزة و إباء

رباه عجل في ظهور إمامنا

واقسم لنا يا رب منه لقاء

يا رب " علوان " ببابك خاشع

بكتابه " شرح الدعا " إذ جاء

هذي بضاعة قاصر يا سيدي

شرح استقاء للحياة الماء

مقدمة سماحة حجة الإسلام و المسلمين
الشيخ/ محمد حسين إلهي زاده (دامت بركاته)
أستاذ الحوزة العلمية في مشهد المقدسة
مؤسس المركز الثقافي للتدبر في القرآن و العترة

بسم اللّه الرحمن الرحيم

إن دعاء الإفتتاح مثل سائر الأدعية الأخرى المأثورة عن أهل البيت (ع)، هو منهل معرفة، و موجب طمأنينة، و مدعاة تكامل للإنسان، و سبب لدفع البلاء، و تنفيس الهموم وتفريج الغموم، ونزول الرحمة الإلهية.
و هذا الدعاء يذكرنا بالتوحيد الذي هو أمر عظيم و بالنبوة وبالمعاد، و هو بتكرار الحمد إثنا عشر مرة، و بالثناء على اللّه عز و جل، ينمي في قلب الداعي روحية الشكر، التي هي نتيجة الإخلاص النظري، و خطى في الإخلاص العملي.
إن الحمد ناظر إلى مقام الذات الإلهية، والمدح ناظر إلى مقام الصفات الإلهية، و الشكر ناظر إلى مقام الفعل الإلهي.
و قد وردت في هذا الدعاء الصلاة على النبي الأكرم (صلى اللّه عليه وآله وسلم) وعلى الأئمة الطاهرين (عليهم الصلاة والسلام) ليكون من آثارها المباركة تزكية النفس، و محو النفاق، و تكفير الذنوب، و قضاء الحوائج.
ثم إن القسم الأعظم من هذا الدعاء مرتبط بإنجازات ظهور ولي العصر (عجل اللّه تعالى فرجه الشريف) ، و التي تشمل عزت الإسلام و المسلمين، و الوحدة، و العدالة، ونضج البشرية، و سعة الأرزاق.
هذه الإنجازات تتحقق في صورة دولة، تحمل إسم دولة الصالحين، و دولة المستضعفين، و دولة الحق، و الدولة الأبدية، و الدولة الآخرة، و الدولة الكريمة.
و من أبرز أسماء هذه الدولة هو الدولة الكريمة، فهي تتمتع بخصوصيات عدة مثل أنها حكومة الولاية التي تتمحور حول عبادة اللّه تعالى، و أنها الحكومة العالمية المتمحورة حول القرآن الكريم، و أنها حكومة إرساء العدالة مع محورية رضا الجميع.

و في الختام، يجب تنبيه محبي المهدي و أنصاره (عجل اللّه فرجه الشريف) إلى الأخطار المحدقة بهم، كالغفلة والشك والإتهام و الملامة و الذعر من عواقب الظهور، و النظرة السطحية، فكل هذه تشكل عقبات الدرب في هذا المسير.

إنني أثني على سماحة الشيخ الجليل محمد علوان، لما أقدم على تعريف و ترويج دعاء الإفتتاح، و أوصي نفسي و إياه و جميع المؤمنين بقراءة هذا الدعاء الشريف.

له الحمد و له الشكر

محمد حسين إلهي زاده

يقول السيد ابن طاووس قدس سره الشريف: الدعاء الذي ذكره محمد بن أبي قرة باسناده فقال: حدثني أبو الغنائم محمد بن محمد بن محمد بن عبد اللّه الحسني، قال: أخبرنا أبو عمرو محمد بن محمد بن نصر السكوني رضي اللّه عنه، قال: سألت أبا بكر أحمد بن محمد بن عثمان البغدادي رحمه اللّه، أن يخرج إلي أدعية شهر رمضان، التي كان عمه أبو جعفر محمد بن عثمان بن السعيد العمري رضي اللّه عنه وأرضاه يدعو بها، فأخرج إلي دفترا مجلدا بأحمر، فنسخت منه أدعية كثيرة، وكان من جملتها: و تدعو بهذا الدعاء في كل ليلة من شهر رمضان، فان الدعاء في هذا الشهر تسمعه الملائكة وتستغفر لصاحبه، وهو:

{اللهم إني أفتتح الثناء بحمدك، وأنت مسدد للصواب بمنك وأيقنت أنك أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة، وأعظم المتجبرين في موضع الكبرياء والعظمة.

اللهم أذنت لي في دعائك ومسألتك، فاسمع يا سميع مدحتي، و أجب يا رحيم دعوتي و أقل يا غفور عثرتي، فكم يا إلهي من كربة قد فرجتها، وهموم قد كشفتها، وعثرة قد أقلتها، ورحمة قد نشرتها، وحلقة بلاء قد فككتها.

الحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيرا.

الحمد لله بجميع محامده كلها على جميع نعمه كلها. الحمد لله الذي لا مضاد له في ملكه، ولا منازع له في أمره.

الحمد لله الذي لا شريك له في خلقه، ولا شبيه له في عظمته.

الحمد لله الفاشي في الخلق أمره وحمده، الظاهر بالكرم مجده، الباسط بالجود يده، الذي لا تنقص خزائنه، ولا تزيده كثرة العطاء إلا جودا وكرما، إنه هو العزيز الوهاب.

الحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، وكبره تكبيرا.

الحمد لله بجميع محامده كلها على جميع نعمه كلها. الحمد لله الذي لا مضاد له في ملكه، ولا منازع له في أمره.

الحمد لله الذي لا شريك له في خلقه، ولا شبيه له في عظمته.

الحمد لله الفاشي في الخلق أمره وحمده، الظاهر بالكرم مجده، الباسط بالجود يده، الذي لا تنقص خزائنه، ولا تزيده كثرة العطاء إلا جودا وكرما، إنه هو العزيز الوهاب.

اللهم إني أسألك قليلا من كثير، مع حاجة بي إليه عظيمة وغناك عنه قديم، وهو عندي كثير، وهو عليك سهل يسير.

اللهم إن عفوك عن ذنبي، وتجاوزك عن خطيئتي، وصفحك عن ظلمي، وسترك على قبيح عملي، وحلمك عن كثير جرمي، عندما كان من خطئي وعمدي، أطمعني في أن أسألك ما لا أستوجبه منك، الذي رزقتني من رحمتك، وأريتني من قدرتك، وعرفتني من إجابتك.

فصرت أدعوك آمنا، وأسألك مستأنسا، لا خائفا ولا وجلا، مدلا عليك فيما قصدت فيه إليك، فإن أبطأ عني عتبت بجهلي عليك، و لعل الذي أبطأ عني هو خير لي، لعلمك بعاقبة الأمور.

فلم أر مولى كريما أصبر على عبد لئيم، منك علي يا رب إنك تدعوني فأولي عنك، وتتحبب إلي فأتبغض إليك، وتتودد إلي فلا أقبل منك، كأن لي التطول عليك، فلم يمنعك ذلك من الرحمة لي، والإحسان إلي،

والتفضل علي بجودك وكرمك، فارحم عبدك الجاهل، وجد عليه بفضل إحسانك، إنك جواد كريم.

الحمد لله مالك الملك، مجري الفلك، مسخر الرياح، فالق الإصباح، ديان الدين رب العالمين.

الحمد لله على حلمه بعد علمه، الحمد لله على عفوه بعد قدرته، الحمد لله على طول أناته في غضبه، وهو القادر على ما يريد.

الحمد لله خالق الخلق، باسط الرزق، ذي الجلال والإكرام والفضل والإنعام، الذي بعد فلا يرى، وقرب فشهد النجوى، تبارك وتعالى.

الحمد لله الذي ليس منازع يعادله، ولا شبيه يشاكله، ولا ظهير يعاضده، قهر بعزته الأعزاء وتواضع لعظمته العظماء، فبلغ بقدرته ما يشاء.

الحمد لله الذي يجيبني حين أناديه، ويستر علي كل عورة وأنا أعصيه، ويعظم النعمة علي فلا أجازيه، فكم من موهبة هنيئة قد أعطاني، وعظيمة مخوفة قد كفاني، وبهجة مونقة قد أراني، فأثني عليه حامدا وأذكره مسبحا.

الحمد لله الذي لا يهتك حجابه، ولا يغلق بابه، ولا يرد سائله ولا يخيب آمله.

الحمد لله الذي يؤمن الخائفين، و ينجي الصالحين، ويرفع المستضعفين، و يضع المستكبرين، و يهلك ملوكا ويستخلف آخرين.

والحمد لله قاصم الجبارين، مبير الظالمين، مدرك الهاربين، نكال الظالمين، صريخ المستصرخين، موضع حاجات الطالبين، معتمد المؤمنين.

الحمد لله الذي من خشيته ترعد السماء وسكانها، وترجف الأرض و عمارها، و تموج البحار و من يسبح في غمراتها.

الحمد لله الذي يخلق ولم يخلق، ويرزق ولم يرزق، ويطعم ولا يطعم، ويميت الأحياء و يحيي الموتى، و هو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

اللهم صل على محمد عبدك ورسولك وأمينك وصفيك وحبيبك، وخيرتك من خلقك، وحافظ سرك، ومبلغ رسالاتك أفضل وأحسن وأجمل وأكمل وأزكى وأنمى وأطيب وأطهر وأسنى وأكثر، ما صليت وباركت وترحمت وتحننت وسلمت على أحد من عبادك وأنبيائك ورسلك وصفوتك وأهل الكرامة عليك من خلقك.

اللهم صل على علي أمير المؤمنين و وصي رسول رب العالمين عبدك و وليك وأخي رسولك وحجتك على خلقك وآيتك الكبرى والنبأ العظيم.

وصل على الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين.

وصل على سبطي الرحمة وإمامي الهدى الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة.

وصل على أئمة المسلمين، علي بن الحسين و محمد بن علي و جعفر بن محمد، و موسى بن جعفر، و علي بن موسى، و محمد بن علي، و علي بن محمد، والحسن بن علي، و الخلف المهدي، حججك على عبادك و أمنائك في بلادك، صلاة كثيرة دائمة.

اللهم وصل على ولي أمرك، القائم المؤمل، والعدل المنتظر وحفه بملائكتك المقربين، وأيده بروح القدس يا رب العالمين.

اللهم اجعله الداعي إلى كتابك، والقائم بدينك، واستخلفه في الأرض كما استخلفت الذين من قبله، مكن له دينه ارتضيته له، أبدله من بعد خوفه أمنا، يعبدك لا يشرك بك شيئا.

اللهم أعزه وأعزز به، وانصره وانتصر به، وانصره نصرا عزيزا.

اللهم أظهر به دينك وسنة نبيك، حتى لا يستخفي بشئ من الحق مخافة أحد من الخلق.

اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة، تعز بها الإسلام وأهله، وتذل بها النفاق وأهله، وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك، وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة

اللهم ما عرفتنا من الحق فحملناه وما قصرنا عنه فبلغناه

اللهم الم به شعثنا، واشعب به صدعنا، وارتق به فتقنا وكثر به قلتنا، وأعز به ذلتنا، وأغن بن عائلنا، واقض به عن مغرمنا، واجبر به فقرنا، وسد به خلتنا ويسر به عسرنا، وبيض به وجوهنا، وفك به أسرنا، وأنجح به طلبتنا، وأنجز به مواعيدنا، واستجب به دعوتنا، وأعطنا به آمالنا، وأعطنا به فوق رغبتنا.

يا خير المسؤولين وأوسع المعطين، اشف به صدورنا، وأذهب به غيظ قلوبنا، واهدنا به لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم، وانصرنا به على عدوك وعدونا اله الحق آمين.

اللهم إنا نشكو إليك فقد نبينا صلواتك عليه و آله، وغيبة إمامنا، وكثرة عدونا و شدة الفتن بنا، و تظاهر الزمان علينا، فصل على محمد و آل محمد،

و أعنا على ذلك بفتح تعجله، و بضر تكشفه، و نصر تعزه، وسلطان حق تظهره و رحمة منك تجللناها، و عافية تلبسناها، برحمتك يا أرحم الراحمين}.[١]

هكذا أورد السيد ابن طاووس أعلى اللّه مقامه دعاء الإفتتاح في كتابه الإقبال، و قد ورد هذا الدعاء الشريف في كتاب المصباح[٢] للكفعمي رضوان اللّه عليه، بشئ يسير جدا من الإختلاف في بعض الجمل و العبارات، كما ورد في تهذيب الأحكام، ومصباح المتهجد.

و نحن إذ نجلس بين يدي هذا الدعاء الشريف، نريد أن ننهل من فيض عطائه، و أول ما نفعله هو أننا نقسمه إلى إثنين وعشرين فصلا . لكل واحد من هذه الفصول محور خاص به، تصب جميع فقراته في صياغته، ثم تلتقي جميع هذه المحاور لتقدم لنا رسالة هذا الدعاء الشريف، و من اللّه تعالى نستلهم المدد و التوفيق، سائلين إياه سبحانه أن يسددنا للصواب بمنه.

---

[١] إقبال الأعمال - السيد ابن طاووس - ج ١ - ص ١٣٨

[٢] المصباح – الكفعمي ص٥٧٨

فصول دعاء الإفتتاح:

الفصل الأول / الاستهلال بالثناء والحمد لله تعالى، وطلب التوفيق منه سبحانه:
الفكرة التي تتمحور حولها فقرات هذا الفصل هي: الإقرار بأن الله سبحانه هو منشأ كل خير و رحمة في الوجود كله، لأنه تعالى الحميد، الذي لا يصدر منه إلا كل فعل محمود.

(اللّهُمَّ إنّي أفتَتِحُ الثّناءَ بِحَمْدِكَ):

معلوم في اللغة العربية أن الثناء قد يكون بخير، كما قد يكون بشر، وهذا المعنى يجعله ذا مراتب متفاوتة في الشدة والضعف، تمتد بين المدح والذم، يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي: (والثناء: تعمدك لشئ تثني عليه بحسن أو قبيح).[3]
ومن هنا فقد خصص الإمام المعصوم (ع) ثناء الله تعالى بالحمد ليكون واضحا صريحا بالمدح.
وأما الحمد، فبينه وبين المدح و بين الشكر، أوجه شبه غير قليلة، إلا أن بينها فروقا واضحة بينة، بالوقوف عليها، ندرك جمال و دقة استعمال الإمام (عليه السلام) كلمة (الحمد) في هذا المورد.
يقول الأزهري في الفرق بين الشكر والحمد: (الشكر لا يكون إلا ثناء ليد أوليتها، والحمد قد يكون شكرا للصنيعة، ويكون ابتداء للثناء على الرجل، فحمد الله الثناء عليه ويكون شكرا لنعمه التي شملت الكل، والحمد أعم من الشكر).[4]
ويبين لنا صاحب الفروق اللغوية، الفرق بين المفردات الثلاثة (الحمد و الشكر و المدح) فيقول: أن الحمد: هو الثناء باللسان على الجميل، سواء تعلق بالفضائل كالعلم، أم بالفواضل كالبر.
و أن الشكر: فعل ينبئ عن تعظيم المنعم لأجل النعمة، سواء أكان نعتا باللسان، أو اعتقادا، أو محبة بالجنان، أو عملا وخدمة بالأركان، وقد جمعها الشاعر في قوله:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة
يدي ولساني والضمير المحجب

---

[3] كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج ٨ - ص ٢٤٤
[4] لسان العرب - ابن منظور - ج ٣ - ص ١٥٥

فالحمد أعم مطلقا، لأنه يعم النعمة وغيرها، وأخص موردا إذ هو باللسان فقط، والشكر بالعكس، إذ متعلقه النعمة فقط، ومورده اللسان وغيره.
فبين الحمد والشكر عموم وخصوص من وجه، فهما يتصادقان في الثناء باللسان على الاحسان، ويتفارقان في صدق الحمد فقط على النعت بالعلم مثلا، وصدق الشكر فقط على المحبة بالجنان، لأجل الإحسان، سواء كان هذا الإحسان يصل إلى الحامد أم لا يصل إليه، فمجرد الإحسان الذي يعني صدور الفعل الحسن، يسوغ الحمد.
وأما الفرق بين الحمد والمدح فمن وجوه، منها:
-أن المدح للحي ولغير الحي، كاللؤلؤ و اليواقيت الثمينة، والحمد لا يكون إلا للحي فقط.
-أن المدح قد يكون قبل الاحسان و قد يكون بعده، و الحمد إنما يكون بعد الاحسان.
-أن المدح قد يكون منهيا عنه، و الحمد مأمور به مطلقا.
-أن المدح عبارة عن القول الدال على أنه مختص بنوع من أنواع الفضائل باختياره، وبغير اختياره. والحمد قول دال على أنه مختص بفضيلة من الفضائل معينة وهي فضيلة الإنعام إليك، وإلى غيرك، و لا بد أن يكون على جهة التفضيل لا على التهكم والاستهزاء.
وبعبارة أخرى: أن الحمد لا يكون إلا على إحسان، والله حامد لنفسه على إحسانه إلى خلقه، فالحمد متضمن للفعل. و أما المدح فيكون بالفعل و يكون بالصفة، وذلك مثل أن يمدح الرجل شخصا بإحسانه إلى نفسه وإلى غيره، أو أن يمدحه بحسن وجهه وطول قامته، و أن يمدحه بصفات التعظيم، نحو: قادر و عالم و حكيم، ولا يجوز أن يحمده على ذلك، وإنما يحمده على إحسان يقع منه فقط.[5]
وأما في الفرق بين الشكر و الحمد فيقول العسكري:
-الشكر هو الاعتراف من قبل المنعم عليه بالنعمة على جهة التعظيم للمنعم، والحمد هو الذكر بالجميل على جهة التعظيم للمنعم، ولكنه يصح على النعمة وغير النعمة، أي من المنعم عليه وغير المنعم عليه، في حين أن الشكر لا يصح إلا على النعمة.
-يجوز أن يحمد الانسان نفسه في أمور جميلة يأتيها، و لا يجوز أن يشكر نفسه، لأن الشكر يجري مجرى قضاء الدين، و لا يجوز أن يكون للإنسان دين على نفسه، فالاعتماد

---

[5] راجع الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري (٧٩٧) و (٧٩٨) ص٢٠١–٢٠٣

في الشكر على ما توجبه النعمة وفي الحمد على ما توجبه الحكمة، أي أن الشكر، إنما هو من باب جزاء الإحسان بالإحسان، فوظيفة المتنعم أن يشكر المنعم بينما يكون الحمد من باب وضع الشئ في موضعه، فالمحسن يستحق الحمد من كل أحد.
فالشكر على هذا الأصل إظهار حق النعمة لقضاء حق المنعم، كما أن الكفر تغطية النعمة لإبطال حق المنعم.
فإن قيل أننا نقول: (الحمد للّه شكرا) فنجعل الشكر مصدرا للحمد، فلولا اجتماعهما في المعنى لم يجتمعا في اللفظ ؟؟ قلنا هذا مثل قولنا (قتلته صبرا، وأتيته سعيا) والقتل غير الصبر، والاتيان غير السعي، وقال سيبويه: هذا باب ما ينصب من المصادر لأنه حال وقع فيها الامر وذلك كقولك (قتلته صبرا) ومعناه: أنه لما كان القتل يقع على ضروب وأحوال، بين الحال التي وقع فيها القتل، والحال التي وقع فيها الحمد، فكأنه قال: قتلته في هذه الحال.
و قول (الحمد للّه شكرا) أبلغ من قول (الحمد للّه حمدا) لأن هذا للتوكيد، و الأول لزيادة معنى، أي أحمده في حال إظهار نعمه علي.[٦]
وبقي أن نشير إلى هذا الأدب الوحياني، الذي يتمثله المعصوم صلوات اللّه وسلامه عليه في مخاطبة اللّه تبارك وتعالى، فهو (ع) قبل أن يضع مسألته بين يديه، يؤكد بأروع التعابير والمعاني، أنه (ع) غارق في نعم اللّه سبحانه، وأنه لا يجد في ربه تعالى إلى أنه مثال لأفضل الثناء والحمد على سبوغ نعمائه على الكائنات كلها.
وهذا الأدب الرفيع هو ما يعلمنا إياه أمير المؤمنين و مولى المتقين علي بن أبي طالب (ع) إذ يقول فيما يرويه عنه ولده الصادق (ع) (أن في كتاب أمير المؤمنين عليه السلام، أن المدحة قبل المسألة، فإذا دعوت اللّه عز وجل فمجده. قال الراوي: قلت: كيف أمجده؟ قال تقول: يا من هو أقرب إلي من حبل الوريد يا فعالا لما يريد يا من يحول بين المرء وقلبه يا من هو بالمنظر الأعلى يا من ليس كمثله شيء).

(وَأَنْتَ مُسَدِّدٌ لِلصَّوابِ بِمَنِّكَ):

ويبقى الإنسان مفتقرا إلى التسديد من اللّه تعالى دائما و أبدا، فهو في ذاته جاهل عجول هلوع جزوع وما أوتي من العلم بشئ من مصالحه و مفاسده.

---

[٦] راجع الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري (١٢١١) ص ٣٠١ - ٣٠٢

ومن هنا فقد يتعجل الإنسان بطلب شئ، وتراه مصرا متوسلا في بلوغه، فإذا ما حصل عليه ندم أشد الندم، وأحس بأنه إنما استعجل هلاكه، و سعى إلى ما فيه بؤسه وشقاؤه.

وهذا المعنى هو الذي يعبر عنه القرآن المجيد، إذ يقول تعالى ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾(الإسراء/١١) وللعلامة الطباطبائي – أعلا الله مقامه – كلام رائع في تفسير هذه الآية المباركة، يقول فيه: (قوله تعالى ﴿ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا﴾ المراد بالدعاء على ما يستفاد من السياق، مطلق الطلب، سواء كان بلفظ الدعاء كقوله: اللهم ارزقني مالا وولدا وغير ذلك، أو من غير دعاء لفظي، بل بطلب وسعي، فان ذلك كله دعاء و سؤال من الله، سواء اعتقد به الانسان و تنبه له، أم لا، إذ لا معطي و لا مانع في الحقيقة الا الله سبحانه، قال تعالى ﴿يسأله من في السماوات والأرض﴾(الرحمن٢٩) وقال ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه﴾(إبراهيم٣٤) فالدعاء مطلق الطلب، والباء في قوله ﴿بالشر﴾ و ﴿بالخير﴾ للصلة. والمراد أن الإنسان يدعو الشر و يسأله دعاء، كدعائه الخير وسؤاله وطلبه. وعلى هذا فالمراد بكون الإنسان عجولا، أنه لا يأخذ بالأناة إذا أراد شيئا، حتى يتروى و يتفكر في جهات صلاحه وفساده، حتى يتبين له وجه الخير، فيما يريده من الأمر، فيطلبه و يسعى إليه، بل يستعجل في طلبه، بمجرد ما ذكره و تعلق به هواه، فربما كان شرا، فتضرر به، و ربما كان خيرا فانتفع به.[٧]

و يورد الفيض الكاشاني في تفسيره الصافي، وكذلك الشيخ الحويزي في تفسيره، رواية عن الإمام الصادق عليه الصلاة والسلام، يقول فيها (و اعرف طريق نجاتك و هلاكك، كي لا تدعو الله بشئ عسى فيه هلاكك وأنت تظن أن فيه نجاتك، قال الله تعالى: ﴿و يدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا﴾.[٨]

و نلاحظ أن الإمام سلام الله عليه استعمل كلمة (مسدد) في التعبير عن الهداية والإرشاد إلى الصواب، فماذا تعني هذه الكلمة، و ما هي دلالاتها ؟

يقول الخليل الفراهيدي أن السداد يعني إصابة القصد، ومن ثم فإن قولنا (سددك الله) يعني وفقك للقصد والرشاد.[٩]

---

[٧] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ١٣ - ص ٤٩

[٨] التفسير الصافي - الفيض الكاشاني ج ٣ ص ١٨١. تفسير نور الثقلين - الشيخ الحويزي ج ٣ ص ١٤١. مصباح الشريعة ١٣٢الباب٦٢

[٩] كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج ٧ - ص ١٨٣

و يقول الجوهري في صحاحه: (التسديد: التوفيق للسداد، وهو الصواب و القصد من القول و العمل. و رجل مسدد، إذا كان يعمل بالسداد والقصد).[١٠]
فيما يبين لنا العسكري معنى التسديد بشكل أوضح إذ يقارنه في المعنى بالتقويم، فيقول: (الفرق بين التسديد والتقويم: أن التسديد هو التوجيه للصواب فيقال سدد السهم إذا وجهه وجه الصواب، والتقويم إزالة الاعوجاج كتقويم الرمح).[١١]
ليتبين لنا أن الإمام (ع) اختار كلمة (مسدد) ليتداعى إلى الأذهان، بحر من المعاني، منها:
-أن الإمام (ع) يطلب من اللّه تعالى أن يوصله إلى الحق والرشاد، لا أن يريه إياه فحسب.
-أن الإمام (ع) يسأل اللّه سبحانه أن يمد له يد العون بالهداية قبل الوقوع في الخطأ، لا أن يقومه إذا أخطأ.
ثم إن هذا التسديد ليس حقا لأحد على اللّه تعالى، بل هو محض تفضل و إنعام، لأنه صفة حميدة في اللّه سبحانه، إذ هو المنان بالعطيات، و هو الذي يعطي من سأله، بل و يعطي من لم يسأله و من لم يعرفه تحننا منه و رحمة.
وفي تأكيد هذا المعنى يقول أهل اللغة أن (المن) هو الإحسان الذي تمن على من لا يستثيبه[١٢] والمنان: الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال.[١٣]
وبهذا تكون هذه الفقرة متفرعة على الفقرة التي سبقتها حيث يفتتح الإمام (ع) الثناء بحمد اللّه سبحانه و تعالى.

---

[١٠] الصحاح - الجوهري - ج ٢ - ص ٤٨٥
[١١] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري (٤٨٧) ص ١٢٥
[١٢] كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج ٨ - ص ٣٧٤
[١٣] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - ص ٢٠٤

الفصل الثاني/ الفكرة التي تتمحور حولها فقرات هذا الفصل، هي أن اللّه سبحانه وتعالى يتجلى بأسمائه الحسنى كلها، من دون أن يعني ذلك تعددا، بأي من معاني التعدد، ذلك أن صفاته تعالى هي عين ذاته، و من ثم فإن اللّه سبحانه رحيم من حيث هو شديد العقاب، وهو المعطي وهو المانع وهو المعز وهو المذل، وهو اللّه لا إله إلا هو، له الأسماء الحسنى والأمثال والعليا والآلاء والكبرياء وهو على كل شئ قدير.

(وَأَيْقَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فِي مَوْضِعِ العَفْوِ وَالرَّحْمَةِ)

و هنا يبتدأ الإمام المعصوم صلوات اللّه و سلامه عليه بإعلان إيمانه الراسخ بوحدانية اللّه تعالى، ويعبر عن ذلك الإيمان بشكل صريح لا يدع للبس مجالا.

فهو سلام اللّه عليه يستعمل كلمة (أيقنت) ولا يقول ألفاظا أخرى كعلمت أو عرفت أو ماشابه، لأن علمه ومعرفته وإيمانه باللّه تعالى قد وصل إلى حد اليقين.

ثم إن الإمام (ع) يعطف كلمة (أيقنت) وهي بصيغة الماضي، على كلمة (أفتتح) وهي بصيغة المضارع، ليؤكد أن إيمانه باللّه سبحانه وتعالى سابق حتى لثنائه عليه وحمده له سبحانه، بل إن منشأ هذا الثناء والحمد إنما هو ذلك الإيمان اليقيني المتجذر في النفس، الذي لا يقدحه الشك، ولا يجرحه الوهم بتاتا، إذ يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي أن اليقين هو إزاحة الشك وتحقيق الأمر.[١٤] ويقول صاحب معجم مقاييس اللغة أن اليقين هو زوال الشك.[١٥] فيما يخبرنا العسكري إلى الفرق بين العلم واليقين فيقول: أن العلم هو اعتقاد الشئ على ما هو به على سبيل الثقة، وأما اليقين فهو العلم بالشئ استدلالا بعد أن كان صاحبه شاكا فيه. فكل يقين علم، وليس كل علم يقينا.

وقيل: هو العلم بالحق مع العلم بأنه لا يكون غيره ولذلك قال المحقق الطبرسي: هو مركب من علمين.[١٦]

فاليقين إذن، مرتبة سامية من العلم والمعرفة، وكما يقول العلامة قدس سره أن اليقين لا ينفك عن مشاهدة الملكوت[١٧] و يستدل بقوله تعالى (وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات و الأرض و ليكون من الموقنين)(الأنعام ٧٥).

---

[١٤] كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج ٥ - ص ٢٢٠
[١٥] معجم مقاييس اللغة - أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا - ج ٦ - ص ١٥٧
[١٦] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري (١٥٠٩) و (١٥١٠) ص ٣٧٣ - ٣٧٤
[١٧] تفسير الميزان – العلامة الطباطبائي ج١ ص١٥٧

ويدعم الإمام سلام اللّه عليه هذا اليقين باستعمال حرف التوكيد (أن) ويشدد على ذلك التأكيد بذكره للضمير المنفصل (أنت) بعد الضمير المتصل (أنك).

فالعبارة (و أيقنت أنك أنت..) تنطوي على تأكيد تلو تأكيد على يقين الإمام (ع) بوحدانية اللّه تبارك وتعالى.

و الأمر الذي يصرح الإمام (ع) في دعائه بأنه على أتم اليقين منه هو أن اللّه (أرحم الراحمين) صيغة التفضيل هذه تؤكد أنه ليس هناك في الوجود من هو أشد رحمة من اللّه سبحانه.

و هذا المعنى موجود في القرآن الكريم، فقد وردت هذه العبارة (أرحم الراحمين) في كتاب اللّه تعالى أربع مرات:

المرة الأولى في سورة الأعراف، فبعد أن يتمادى بنو إسرائيل في غيهم وضلالهم، ويتخذون العجل إلها يعبدونه من دون اللّه تعالى، وعندما يرجع موسى (ع) من ميقات ربه، وتأخذه الصدمة العنيفة بانحراف قومه عن عبادة اللّه وحده، ويشتد به الغضب، ويعلم بأن القوم استضعفوا أخاه و صيه هارون (ع) وكادوا أن يقتلوه، إذ نصحهم أن يرعووا عن غيهم وأن لا يشركوا باللّه شيئا، عندها وجه موسى الكليم (ع) خطابه لربه مستغفرا من جهل قومه و متبرئا من انحرافهم وكفرهم، مؤكدا أنه هو وأخوه هارون لا زالا على الإيمان الخالص باللّه سبحانه، فقال (ع) ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(الأعراف/١٥١).

المرة الثانية في سورة يوسف (ع)، إذ جاء إخوة يوسف (ع) يراودون أباهم عن يوسف (ع) ليأخذوه معهم إلى عزيز مصر، بعد أن منع منهم الكيل، إلا أن يأتوا وبصحبتهم أخوهم يوسف (ع)، وقد ألحوا عليه أن يرسله معهم، وعندما رأي يعقوب (ع) أن لا بد له من أن يرسله معهم، قال لهم ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(يوسف/٦٤).

المرة الثالثة في سورة يوسف (ع) أيضا، ولكن بعد أن كشف يوسف (ع) لإخوته سوء عملهم، وأظهر لهم أن اللّه كان معه، وأنهم بفعلهم القبيح ذلك، قد أسخطوا اللّه عليهم، وعرضوا أنفسهم لغضبه وعقابه، فلما رأوا أنهم قد أسقط في أيديهم وأحسوا بقبح ذنبهم، توسلوا إلى يوسف (ع) أن يسامحهم ويعفو عنهم، فما كان من يوسف (ع) إلا أن نبههم إلى أن الذي ينبغي أن يطلبوا منه المغفرة هو اللّه سبحانه، و طمأنهم بأن اللّه سوف يغفر اللّه لهم، فقال (ع) ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(يوسف/٩٢).

و المرة الرابعة و الأخيرة فهي في سورة الأنبياء (ع) وذلك في قصة نبي اللّه أيوب (ع) إذ اشتد عليه البلاء، فصبر و صبر، حتى صار مضربا للمثل في الصبر و قوة التحمل، وعندما آذنت ساعة الفرج، ألهمه اللّه تعالى أن يدعو بهذا الدعاء ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(الأنبياء/٨٣) فاسجاب له ربه فكشف عنه ما به من ضر، وآتاه أهله ومثلهم معهم.

وعند التأمل فيهذه الموارد القرآنية الأربعة، نجد أن جميعها تحكي عن حالة من الشدة والضيق بلغت حدا لا يطاق، وسدت أبواب الرحمة كلها، إلا باب رحمة اللّه تعالى، وكأن لسان الحال في هذه الموارد يقول، بأن كل راحم قد سد بابه، وباب اللّه مفتوح، لا يسد و لا يصد عنه أحد، لأنه سبحانه لا يقاس به أحد في رحمته، فهو أرحم الراحمين.

و نلاحظ أن عبارة (الرحمن الرحيم) قد وردت في ستة مواضع في القرآن الكريم، بما فيها بسملة فاتحة الكتاب، و هي في جميعها جاءت صفة ابتدائية للّه تعالى، من دون أن تأتي تعقيبا أو تعليقا على قضية أو حادثة، بينما جاءت عبارة (أرحم الراحمين) في جميع مواردها الأربعة تعقيبا على حدث، تجلى فيها الابتلاء بأشد صوره.

فإذا تبينت لنا هذه الحقيقة، تكشف لنا أن الإمام (ع)، يصف اللّه تعالى بأنه (أرحم الراحمين) بنفس الطريقة التي وصف اللّه تبارك وتعالى نفسه في كتابه الحكيم.

و من الأسرار المخبوءة في هذا التقييد، أن الإمام (ع) يعلمنا أن اللّه تعالى بحكمته و ربوبيته، يتجلى لخلقه برحمته، التي ليس لها نظير، و لكن متى ما استلزمت الحكمة ذلك، و متى ما كان الوضع يقتضي العفو و الرحمة.

و هذا يعني أن جميع مظاهر الرحمة في الكون كله، من مطر يحيي الأرض، و من أزهار و ثمار وخير و نماء و سعادة و ازدهار... الخ، كل ذلك إنما هو من اللّه سبحانه و تعالى.

و بما أن الإمام المعصوم (ع) يقول بأن رحمة اللّه سبحانه وتعالى إنما تتجلى في مواضع العفو والرحمة، فإنن نجد أنفسنا بأمس الحاجة إلى استجلاء تلك المواضع، ليتأتى لنا أن نقصدها، فنتعرض لعفو اللّه و رحمته.

و قد لا يسعنا المقام هنا لاستقصاء مواضع العفو والرحمة كلها، و لكن لا ينبغي ترك الميسور بالمعسور، فنكتفي بنقل جملة من الروايات الشريفة التي تضع أيدينا على نماذج قيمة من تلك المواضع:

- عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: أيما مؤمن نفس عن مؤمن كربة نفس اللّه عنه سبعين كربة من كرب الدنيا وكرب يوم القيامة، قال: ومن يسر على مؤمن وهو

معسر، يسر اللّه له حوائج الدنيا والآخرة، ومن ستر على مؤمن عورة ستر اللّه عليه سبعين عورة من عوراته في الدنيا و الآخرة.[18]

- عن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أنه قال: أيما مؤمن عاد مريضا في اللّه عز وجل خاض في الرحمة خوضا، وإذا قعد عنده استنقع استنقاعا، فإن عاده غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك إلى أن يمسي، فان عاده عشية صلى عليه سبعون ألف ملك إلى أن يصبح.[19]

- عن علي بن الحسين (ع) قال: من أطعم مؤمنا من جوع، أطعمه اللّه عز وجل من ثمار الجنة، ومن سقى مؤمنا من ظمأ، سقاه اللّه يوم القيامة من الرحيق المختوم، ومن كسى مؤمنا من العرى، كساه اللّه عز وجل من الثياب الخضر).[20]

- عن علي بن الحسين عليه السلام قال: لو يعلم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج إن اللّه تبارك وتعالى أوحى إلى دانيال أن أمقت عبيدي إلى الجاهل المستخف بحق أهل العلم، التارك للاقتداء بهم، وأن أحب عبيدي إلي التقي الطالب للثواب الجزيل، اللازم للعلماء، التابع للحلماء، القابل عن الحكماء.[21]

- عن علي بن الحسين (عليهما السلام) قال: الصبر والرضا عن اللّه رأس طاعة اللّه ومن صبر ورضي عن اللّه فيما قضى عليه فيما أحب أو كره لم يقض اللّه عز وجل له فيما أحب أو كره إلا ما هو خير له.[22]

- عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) أن فيما أوحى اللّه عز وجل إلى موسى بن عمران (عليه السلام): يا موسى بن عمران: ما خلقت خلقا أحب إلي من عبدي المؤمن فإني إنما أبتليه لما هو خير له وأعافيه لما هو خير له وأزوي عنه ما هو شر له لما هو خير له وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي، فليصبر على بلائي وليشكر نعمائي وليرض بقضائي، أكتبه في الصديقين عندي، إذا عمل برضائي وأطاع أمري.[23]

- عن يعقوب بن شعيب قال: سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: ما نقل اللّه عز وجل عبدا من ذل المعاصي إلى عز التقوى، إلا أغناه من غير مال، و أعزه من غير عشيرة، و آنسه من غير بشر.[24]

---

[18] كتاب المؤمن - الحسين بن سعيد - (١٠٩) ص ٤٦
[19] كتاب المؤمن - الحسين بن سعيد - (١٤٦) ص ٥٨
[20] كتاب المؤمن - الحسين بن سعيد - (١٦١) ص ٦٣
[21] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - (٥) ص ٣٥
[22] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - (٣) ص ٦٠
[23] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - (٧) ص ٦١ - ٦٢
[24] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - (٨) ص ٧٦

- عن يزيد بن خليفة قال: وعظنا أبو عبد اللّه (عليه السلام) فأمر وزهد، ثم قال: عليكم بالورع، فإنه لا ينال ما عند اللّه إلا بالورع. [٢٥]
- عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: فيما ناجى اللّه عز وجل به موسى (عليه السلام) يا موسى: ما تقرب إلى المتقربون بمثل الورع عن محارمي، فإني أبيحهم جنات عدن لا أشرك معهم أحدا. [٢٦]
- عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله): من ترك معصية للّه مخافة اللّه تبارك وتعالى أرضاه اللّه يوم القيامة. [٢٧]
- عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، عن ابن فضال، عن أبي جميلة، عن محمد الحلبي، عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: قال اللّه تبارك وتعالى: ما تحبب إلي عبدي بأحب مما افترضت عليه. [٢٨]
- عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله): ما يوضع في ميزان امرئ يوم القيامة أفضل من حسن الخلق. [٢٩]
- عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: من كظم غيظا وهو يقدر على إمضائه حشا اللّه قلبه أمنا وإيمانا يوم القيامة. [٣٠]
- عن علي بن الحسين (ع) قال: قال رسول اللّه (ص): من أحب السبيل إلى اللّه عز وجل جرعتان: جرعة غيظ تردها بحلم وجرعة مصيبة تردها بصبر. [٣١]
- عن أبي عبد اللّه (ع) قال: قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله): ما اصطحب اثنان إلا كان أعظمهما أجرا وأحبهما إلى اللّه عز وجل أرفقهما بصاحبه. [٣٢]
- عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: فيما أوحى اللّه عز وجل إلى داود (عليه السلام) يا داود كما أن أقرب الناس من اللّه المتواضعون كذلك أبعد الناس من اللّه المتكبرون. [٣٣]
- عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في كلام له: ألا إنه من ينصف الناس من نفسه لم يزده اللّه إلا عزا. [٣٤]

---

[٢٥] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - (٣) ص ٧٦
[٢٦] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - (٣) ص ٨٠
[٢٧] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - (٦) ص ٨١
[٢٨] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - (٥) ص ٨٢
[٢٩] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - (٢) ص ٩٩
[٣٠] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - (٧) ص ١١٠
[٣١] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - (٩) ص ١١٠
[٣٢] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - (١٥) ص ١٢٠
[٣٣] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - (١١) ص ١٢٣ - ١٢٤
[٣٤] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - (٤) ص ١٤٤

- قال أبو جعفر (عليه السلام): صلة الأرحام تزكي الأعمال وتنمي الأموال وتدفع البلوى و تيسر الحساب وتنسئ في الاجل.[٣٥]
- عن إسحاق بن عمار قال: سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: إن صلة الرحم والبر ليهونان الحساب ويعصمان من الذنوب، فصلوا أرحامكم وبروا بإخوانكم ولو بحسن السلام ورد الجواب.[٣٦]
- عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: إن صلة الرحم تزكي الأعمال وتنمي الأموال وتيسر الحساب وتدفع البلوى وتزيد في الرزق.[٣٧]
- عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله): الخلق عيال اللّه، فأحب الخلق إلى اللّه من نفع عيال اللّه وأدخل على أهل بيت سرورا.[٣٨]

(وَ أَشَدُّ المُعاقِبِينَ فِي مَوْضِعِ النِّكالِ وَ النَّقِمَةِ):

وفي هذه الفقرة يكشف لنا الإمام (ع) عن إيمانه اليقيني الراسخ، بأن اللّه عز و جل أيضا له تجل آخر، هو الظهور لاسم من أسمائه الحسنى، ألا و هو (المنتقم).
فهو سبحانه شديد العقاب، بل هو أشد المعاقبين، متى ما اقتضت الحكمة واستلزم الوضع أن يكون كذلك.
وهذا يعني أن كل شر و سوء في الوجود إنما هو أيضا من اللّه سبحانه، فهو خالق كل شئ وهو رب كل شئ لا إله غيره، فالشرور ليست مفاهيم حقيقية، وإنما هي اعتبارية نسبية أي أن كل ما يبدو لنا شرا إنما هو في الحقيقة كمال مخلوق آخر، وكما قيل (مصائب قوم عند قوم فوائد)، فمثلا: لدغة العقرب للإنسان، لهذه القضية وجهان، فهي في الوجه الأول وإن كانت شرا وسوء لذلك الملدوغ، ولكنها في الوجه الآخر، قوة في العقرب.
وبهذا يندفع ما توهمه البعض، ممن اتخذوا إلهين إثنين، زعما منهم أن إله الخير لا يمكن أن يكون هو نفسه إله الشر.
فالإمام المعصوم (ع) في هذا الدعاء يؤكد الحقيقة القرآنية ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ

---

[٣٥] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - (٤) ص ١٥٠
[٣٦] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - (٣١) ص ١٥٧
[٣٧] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - (٣٣) ص ١٥٧
[٣٨] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ - (٦) ص ١٦٤

تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا)(النساء/٧٨)

وقد تظافرت أقوال أعاظم المفسرين على هذا المعنى، فالقمي يرى أن الحسنات في كتاب الله على وجهين أحدهما الصحة والسلامة والسعة في الرزق والآخر الأفعال كما قال تعالى (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وكذلك السيئات فمنها الخوف والمرض والشدة ومنها الأفعال التي يعاقبون عليها، فالمعنى الأول من الحسنة والسيئة، من عند الله تعالى، والمعنى الثاني من الإنسان نفسه.[39]

ويقول الفيض الكاشاني، أعلى الله مقامه، في قوله (قل كل من عند الله) فإن الكل من عنده إيجادا وإيصالا، غير أن الحسنة إحسان وامتحان، والسيئة مجازاة وانتقام.[40]

وينقل رواية عن الإمام الصادق (ع) يقول فيها (كما أن بادي النعم من الله عز و جل نحلكموه فكذلك الشر من أنفسكم و إن جرى به قدره).[41]

ويؤكد الشهيد السعيد السيد مصطفى الخميني قدس سره الشريف هذا المعنى، فيقول: (أن جميع الموجودات وتوابعها المنجعلة بالعرض - وهي الأسواء والسيئات والشرور - يستند إليه تعالى في وجه).[42]

وهذا ما يقول العلامة الطباطبائي قدس سره الشريف: (فالأمور جميعا سواء كانت عادية أو خارقة للعادة وسواء كان خارق العادة في جانب الخير والسعادة كالمعجزة والكرامة أو في جانب الشر كالسحر والكهانة مستندة في تحققها إلى أسباب طبيعية، وهي مع ذلك متوقفة على إرادة الله، لا توجد إلا بأمر الله سبحانه أي بأن يصادف السبب أو يتحد مع أمر الله سبحانه.

(وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك، قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا)(النساء٧٨) علمنا بذلك أن هذه المصائب إنما هي سيئات نسبية بمعنى أن الانسان المنعم بنعمة من نعم الله كالأمن والسلامة والصحة والغنى يعد واجدا فإذا فقدها لنزول نازلة وإصابة مصيبة كانت النازلة بالنسبة إليه سيئة لأنها مقارنة لفقد ما وعدم ما، فكل نازلة فهي من الله وليست من هذه الجهة سيئة وإنما هي سيئة نسبية بالنسبة إلى الإنسان وهو واجد، فكل سيئة فهي أمر عدمي غير منسوب من هذه

---

[39] تفسير القمي - علي بن إبراهيم القمي - ج ١ - ص ١٤٤
[40] التفسير الأصفى - الفيض الكاشاني - ج ١ - ص ٢٢٣
[41] التفسير الصافي - الفيض الكاشاني - ج ١ - ص ٤٧٢
[42] تفسير القرآن الكريم - السيد مصطفى الخميني - ج ١ - ص ٣٠١

الجهة إلى اللّه سبحانه البتة وإن كانت من جهة أخرى منسوبة إليه تعالى بالإذن فيه ونحو ذلك.

وفي التوحيد أيضا عن الصادق عليه السلام قال: قال: (قال رسول اللّه (ص): من زعم أن اللّه يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على اللّه، ومن زعم أن الخير والشر بغير مشية اللّه فقد أخرج اللّه من سلطانه).[٤٣]

ونلاحظ أن الإمام (ع) يصف اللّه سبحانه بأنه (أشد المعاقبين) في إشارة واضحة إلى أنه عليه السلام ينزه الباري تبارك اسمه عن صفة الإعتداء والإيذاء والتعذيب، و إنما هو سبحانه يعاقب الظالمين من عباده على ظلمهم، والمفسدين على إفسادهم.

وهذا يعني أن الخطوة الأولى تبدأ من العبد، فهو يعمل ما يستحق به غضب اللّه وعذابه ونكاله، فيجازيه اللّه تعالى بالعذاب والنكال، عقابا له على سوء أعماله.

وهذا المعنى ينطق به القرآن الكريم في عدد من آياته الشريفة، منها قوله سبحانه: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾(النساء/١٤٧) و ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الأنعام/٥٤).

وكما قلنا عند الحديث عن مواضع العفو و الرحمة، وعملا بالحكمة القائلة بأن ما لا يدرك كله لا يترك جله، نورد هنا بعض الروايات الشريفة، من كتاب ثواب الأعمال[٤٤] للشيخ الصدوق، قدس اللّه نفسه، التي تسلط الضوء على بعض تلك المواضع المشؤومة، لنعمل بعد ذلك على تجنبها بتوفيق من اللّه تعالى:

-عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: إياكم والغفلة، فإنه من غفل فإنما يغفل عن نفسه، وإياكم والتهاون بأمر اللّه عز وجل فإنه من تهاون بأمر اللّه أهانه اللّه يوم القيامة.

-عن إسماعيل الجعفي قال سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا بعثه اللّه أجذم.

-عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: ثلاثة لا ينظر اللّه عز وجل إليهم: الثاني عطفه، والمسبل إزاره خيلاء، والمنفق سلعة بالأيمان، إن الكبرياء للّه رب العالمين.

---

[٤٣] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي ج١ ص٨١ و ص١٠٢- ١٠٣

[٤٤] ثواب الأعمال - الشيخ الصدوق - ص٢٠٣- ٢٦٠

-عن المعلى بن خنيس قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال الله عز وجل ليأذن بحرب منى من أذل عبدي المؤمن وليأمن غضبي من أكرم عبدي المؤمن.
-عن أبي عبد الله (ع) قال: ما من مؤمن يخذل مؤمنا أخاه وهو يقدر على نصرته إلا خذله الله في الدنيا والآخرة.
-عن الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص) إذا ظهر العلم واحترز العمل وائتلفت الألسن واختلفت القلوب وتقاطعت الأرحام هنالك لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم.
-عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا تحقروا مؤمنا فقيرا فإنه من حقر مؤمنا فقيرا واستخف به حقره الله تعالى ولم يزل ماقتا له حتى يرجع عن تحقيره أو يتوب.
-عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من ولي شيئا من أمور المسلمين فضيعهم، ضيعه الله تعالى.

(وَأَعْظَمُ الْمُتَجَبِّرِينَ فِي مَوْضِعِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ):

وهناك مظهر ثالث يتجلى فيه اسم من أسماء الله الحسنى ألا و هو اسم (الجبار) أو (المتكبر)، وتماما كما بين الإمام (ع) في الفقرتين السابقتين، فإن الله تعالى يتجلى بأسمائه الحسنى، وفقا لحكمته ومشيئته القاهرة، من دون أن يعني هذا التكثر في المظاهر، تكثرا في الذات المقدسة، إذ أن صفاته تعالى هي عين ذاته.

و هنا يعلمنا الإمام المعصوم (ع) أن الله تعالى لا يقاس بجبروته و كبريائه أحد من خلقه، إلا أن هذا الجبروت و هذا الكبرياء له محله و موضعه المقتضي له.

و نتوقف عند معنى (المتجبرين) ليتسنى لنا فهم مراد الإمام (عليه السلام) على وجه أفضل وأتم.

يقول الزبيدي أن (الجبر) خلاف الكسر، والمادة موضوعة لإصلاح الشيء بضرب من القهر.[45] ويقول الفراهيدي أن الله تبارك وتعالى هو الجبار العزيز، أي أنه قهر خلقه، فلا يملكون منه أمرا، وله التجبر و هو التعظم.[46] ويرى ابن الأثير أن من أسماء الله تعالى (الجبار) ومعناه الذي يقهر العباد على ما أراد من أمر ونهي.[47] ويؤكد ابن منظور هذا المعنى، فيقول بأن الجبار: الله عز اسمه القاهر خلقه على ما أراد من أمر ونهي. و ينقل عن ابن الأنباري قوله: الجبار في صفة الله عز وجل الذي لا ينال، كما ويحكي أن

---

[45] تاج العروس – الزبيدي ج ٦ – ص ١٥٨
[46] كتاب العين – الخليل الفراهيدي – ج ٦ – ص ١١٧
[47] النهاية في غريب الحديث - ابن الأثير - ج ١ - ص ٢٣٥

الأزهري يرى أن اسم (جبار) في وصف اللّه تعالى، إنما هو من الإجبار، و هو القهر والإكراه لا من الجبر.[٤٨]

(المتجبر) تصريف لفعل (جبر) على صيغة (متفعل)، ولهذه الصيغة معان عدة كما تذكر كتب علم الصرف،[٤٩] و هي هنا بمعنى (الاتخاذ) أي أن اللّه سبحانه اتخذ الجبروت رداء له، كما يقول القائل (توسدت الحجر) أي اتخذت الحجر وسادة.

---

[٤٨] لسان العرب - ابن منظور - ج ٤ - ص ١١٣

[٤٩] كتاب (نزهة الطرف شرح بناء الأفعال في علم الصرف) للبيضاني ص٥٩

الفصل الثالث / الإقرار لله تعالى بأنه منشأ كل خير يجده الإنسان في حياته الشخصية:
فكرة هذا الفصل تتمحور حول تحسس الإنسان لآثار رحمة الله تعالى، وملامسته لنعمائه وعطائه، وتقلبه في حفظه و حياطته سبحانه.
ففي هذا الفصل يترجم الإمام (ع) ما قاله في الفصل السابق، من أن الله تعالى هو المنان بالعطيات وأنه سابغ النعم، وأنه سبحانه هو مصدر كل خير في الوجود كله.

(اللَّهُمَّ أَذِنْتَ لِي فِي دُعائِكَ وَ مَسْأَلَتِكَ):
في لفتة راقية جدا، يتقدم الإمام (ع) باعتذار شديد إلى ربه تعالى، عن جسارته و جرأته، بطرقه بابه سبحانه !! وهذا العذر الذي يقدمه الإمام (ع) بين يديه في محضر ربه الكريم هو أن الله تبارك اسمه هو الذي أذن لعبده أن يطرق بابه و يسأله حوائجه، و إلا لما كان يجوز للعبد الحقير الذليل أن يدخل إلى الحرم الإلهي المقدس.
وإذا أردنا أن نتعرف على هذا الإذن الإلهي، فعلينا أن نقرأ في كتاب الله المجيد، قوله سبحانه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة/١٨٦) و قوله تبارك و تعالى ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(غافر/٦٠) حيث نجد أن الكلمتين (الدعاء) و (المسألة) كلاهما وردتا في القرآن.
والفرق بين الدعاء و المسألة هو أن الدعاء في أصله هو طلب الفعل[٥٠]، أو هو أن تميل الشئ إليك بصوت أو كلام يكون منك.[٥١] ويقول العسكري في الفرق بين المسألة والدعاء: أن المسألة يقارنها الخضوع والاستكانة، والدعاء إذا كان لله تعالى فهو مثل المسألة معه استكانة وخضوع، وإذا كان لغير الله جاز أن يكون معه خضوع و جاز أن لا يكون معه ذلك.[٥٢]
فقوله (ع) (في دعائك) يعني ندائي وسعيي في استمالة كرمك ولطفك يا إلهي، وعندما يقول عليه السلام (مسألتك) فإن المقصود هو تلك الحاجة الخاصة التي يستجديها الداعي في دعائه من الله تعالى، ويطلب منه سبحانه أن يقضيها له.
وهذا المعنى نجده في تفسير العلامة الطباطبائي أعلى الله مقامه، لقوله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا

---

[٥٠] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - ص ٥٣٤
[٥١] معجم مقاييس اللغة - أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا - ج ٢ - ص ٢٧٩
[٥٢] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري (١٩٩٨) ص ٤٩٤ ـ ٤٩٥

بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة/١٨٦) إذ يقول (والدعاء والدعوة توجيه نظر المدعو نحو الداعي، والسؤال جلب فائدة أو رد من المسؤول، يرفع به حاجة السائل بعد توجيه نظره، فالسؤال بمنزلة الغاية من الدعاء، وهو المعنى الجامع لجميع موارد السؤال، كالسؤال لرفع الجهل، والسؤال بمعنى الحساب والسؤال بمعنى الاستدرار و غيره). [٥٣]

(فأسْمَعْ يا سَمِيعُ مِدْحَتِي):

أما وقد أذنت لي يا إلهي بدعائك و طرق باب كرمك و لطفك مستجديا عطفك و رحمتك، فاسمع يا مولاي، وأنت السميع الذي لا تخفى عليه أصوات الخلائق، ما أقدمه بين يدي دعائي من جميل مدح و وصف لسوابغ كرمك وكثير نعمك.

صيغة فعل الأمر (اسمع) تدل على الدعاء إذا كانت من الداني إلى العالي، لأن صيغة الأمر موضوعة لإنشاء الطلب مجردا عن الدواعي التي تقف وراء استعمال تلك الصيغة، فهي بالتالي قابلة لأن تستعمل في معان مختلفة، كالبعث على إنجاز الفعل المطلوب حقيقة أو الدعاء، أو حتى التهديد.. الخ. [٥٤]

ثم يصف الإمام (ع) ربه سبحانه بأنه (سميع)، راجيا من هذا السميع أن يسمع مدحته. وهنا نسأل: إذا كان الإمام (ع) يعلم بأن اللّه سميع، فلماذا يطلب منه أن يسمع مدحته ؟؟

والجواب هو: أن هذا من أساليب الاستجداء، بل هو من أفضلها و أحسنها، وهو ما يعبر عنه بأن على السائل أن يضع بين يدي مسألته كل مسوغات قضاء حاجته واستجابة دعائه.

فالإمام (ع) يريد أن يوصل كلامه إلى اللّه تعالى، و يسأل اللّه سبحانه أن يأذن لهذا الكلام القاصر الصادر من عبد ضعيف، لكي يصل إلى حضرته القدسية.

ولذا فهو يعلق كل آماله في أن اللّه تبارك اسمه (سميع) فهو لا تخفى عليه خافية ولا تتشابه عليه الأصوات، ولا يعزب عنه صغيرها كما لا يصمه كبيرها، وهذا المعنى نقرأه في ما يورده العسكري من فرق بين (سميع) و (سامع) إذ يقول (قيل: السميع من كان على صفة يجب لأجلها أن يدرك المسموعات إذا وجدت، فهي ترجع إلى كونه حيا لا آفة به. والسامع: المدرك ويوصف القديم - سبحانه - في الأزل بأنه سميع، ولا يوصف في الأزل بأنه سامع، وإنما يوصف به إذا وجدت المسموعات). [٥٥]

---

[٥٣] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٢ - ص ٣١
[٥٤] راجع كفاية الأصول - الآخوند الخراساني - ص ٦٩
[٥٥] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (١١٣١) ص ٢٨٤

بل إن الإمام (ع) على يقين سلفا بأن مدحته هذه مسموعة لأنه (ع) لا يشك طرفة عين في أن اللّه تعالى سميع، و نظير هذا أن يكتب السائل حاجته إلى شخص ما، ثم يذيل رسالته هذه بعبارة (نشكركم على حسن صنيعكم) أو (أشكرك سلفا على حسن تعاونك)، مع ما بين هذين المثالين من فروق شاسعة، فالإمام (ع) على يقين من ربه، كما أن اللّه تعالى عند حسن ظن عبده.

و لفظ (سميع) ورد في صيغة الصفة المشبهة، على وزن (فعيل) ، وهذه الصيغة تدل على الثبات والبقاء.[٥٦] وقد جاء ذكر هذا الوصف للّه سبحانه و تعالى في القرآن الكريم خمسا وأربعين مرة ومنها ما ورد على لسان بعض الأنبياء في مورد الدعاء، مثل قوله تعالى ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾(آل عمران/٣٨) و قوله سبحانه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾(إبراهيم/٣٩).

ونلاحظ أن الإمام (ع) يستعمل كلمة (مدح) في هذه الفقرة، بينما نراه (ع) يستعمل كلمة (حمد) في مستهل الدعاء.

والوجه في ذلك أنه (ع) أراد هناك أن يقول بأنه يثني على اللّه تعالى بأفضل ما يكون الثناء، وليس أفضل من وصف الأفعال الحسنة والألطاف والأنعام التي يمن بها اللّه سبحانه على الخلائق جميعا ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(الإسراء/٢٠)، بينما يريد الإمام (ع) هنا أن يصف اللّه تعالى بأسمائه الحسنى و صفاته العليا، وهذا هو المدح لأن المنظور إليه هنا هو ذات هذه الصفات، لا ما يفيض عنها من خير و رحمة.

المدح: الثناء الحسن. وقد مدحه وامتدحه بمعنى. وكذلك المدحة.[٥٧]

ويؤكد الخليل الفراهيدي هذا المعنى فيقول أن المدح: نقيض الهجاء، و هو حسن الثناء. والمدحة اسم المديح[٥٨] ويقول صاحب مقاييس اللغة: (مدح) الميم والدال والحاء أصل صحيح يدل على وصف محاسن بكلام جميل.[٥٩]

(وَ أَجِبْ يا رَحِيمُ دَعْوَتِي):

إن أقصى ما يتمناه الداعي هو استجابة دعائه، فهو يعلق آماله كلها على رحمة المدعو وكرمه و لطفه، و يتضرع إليه أن يجيب دعاءه.

---

[٥٦] راجع شرح الرضي على الكافية - رضي الدين الأستراباذي ج٣ ص٤٢٣

[٥٧] الصحاح - الجوهري - ج ١ - ص ٤٠٣

[٥٨] كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج ٣ - ص ١٨٨

[٥٩] معجم مقاييس اللغة - أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا - ج ٥ - ص ٣٠٨

ولذا نجد الباري تبارك اسمه، حين يرغب عباده في دعائه، يقدم له وعدا بالإجابة ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(غافر/٦٠) بل و يقرر الحق تبارك وتعالى أن استجابته سبحانه لدعاء عباده هو أمر مفروغ منه و حقيقة لا خلاف عليها، فيقول تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة/١٨٦).

وفي هذه الفقرة يبين لنا الإمام (ع) أن مناط استجابة الدعاء، ليس قابلية الداعي واستحقاقه بل هو رحمة اللّه تعالى و كرمه.

و هنا نجد الخطاب للّه تعالى باسم (الرحيم) فما هي دلالة هذه الصيغة و ما الفرق بينها و بين صيغة (الرحمن) هذا ما نسلط عليه الضوء في السطور التالية.

يقول النحاة أن صيغة كلمة (رحيم) هي الصفة المشبهة وهي تدل على الثبات والاستمرار والبقاء، في حين أن صيغة كلمة (رحمن) فهي اسم الفاعل، وهي صيغة مبالغة تدل على الكثرة.

ومن هنا مال بعض المفسرين إلى أن (الرحمن) في قوله تعالى (بسم اللّه الرحمن الرحيم) إشارة إلى شمول رحمة اللّه تعالى لجميع عباده، المؤمن منهم و العاصي، ومن ثم فهي مخصوصة بالدنيا، وأن (الرحيم) إشارة إلى اختصاص رحمة اللّه تعالى بعباده المؤمنين دون الكافرين، ومن ثم فهي مخصوصة بالآخرة، ولقد وردت في تأييد هذا المعنى بعض الروايات.

و يقول العلامة الطباطبائي قدس سره الشريف: و أما الوصفان: الرحمن الرحيم، فهما من الرحمة، و هي وصف انفعالي، و تأثر خاص يلم بالقلب، عند مشاهدة من يفقد أو يحتاج إلى ما يتم به أمره، فيبعث الانسان إلى تتميم نقصه ورفع حاجته، إلا أن هذا المعنى يرجع بحسب التحليل إلى الإعطاء والإفاضة لرفع الحاجة، و بهذا المعنى يتصف سبحانه بالرحمة.

والرحمن على وزن (فعلان) صيغة مبالغة تدل على الكثرة والرحيم على وزن (فعيل) صفة مشبهة تدل على الثبات والبقاء، و لذلك ناسب الرحمن أن يدل على الرحمة الكثيرة المفاضة على المؤمن والكافر وهو الرحمة العامة، و لذلك أيضا ناسب الرحيم أن يدل على النعمة الدائمة والرحمة الثابتة الباقية، التي تفاض على المؤمن كما قال تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما)(الأحزاب٤٣) ولذلك قيل: إن (الرحمن) عام للمؤمن والكافر، و (الرحيم) خاص بالمؤمن.[٦٠]

---

[٦٠] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ١ - ص ١٨ - ١٩

ويهدينا هذا إلى القول بأن الإمام عليه السلام لما أن كان أعظم مسألته إلى اللهّ تعالى هو إقامة حكم اللهّ في الأرض، و إرساء قواعد العدل بين العباد، كما سيأتينا ذلك في أواخر هذا الدعاء الشريف، وهذا أمر يتطلب فترة متمادية من الزمان، ويحتاج إلى تهيئة مقدمات كثيرة وعظيمة على رأسها حفظ الإمام المهدي الموجود الموعود، الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا بعدما ملئت ظلما وجورا، و إعداد العدة له بنصره بالمؤمنين الصادقين، و بتمكينه من الأرض، وقضائه على الظلمة والجبابرة المعتدين.

لذلك فقد كانت الرحمة المنظور إليها هنا هي تلك الرحمة الثابتة المستمرة على مر الأيام وتعاقب الدهور، كما أنها هي الرحمة الخاصة بالمؤمنين، لا تلك الرحمة العامة، التي تشمل العباد كلهم، من ماء و كلاء و تدبير و تقدير...

و الدعاء و الدعوة بمعنى واحد، كما يقول الأعلام، إلا أن استعمال الإمام (ع) للفظ (الدعوة) هنا يوحي إلى أنه (ع) يقصد معنى مستبطنا في هذه الصيغة التي هي على وزن (فعلة) والتي تدل على عدم التكرار، فكأن الإمام (ع) وهو يتضرع إلى اللهّ تعالى مستجديا قضاء حاجته هذه، يحرص (ع) على أن يؤكد أنه لا يطلب حاجة إلا هذه، فهي حاجة واحدة و طلب واحد و دعاء واحد، فهو (ع) يطلب قليلا من كثير كما سيأتي في هذا الدعاء الشريف.

(وَ أَقِلْ ياغَفُورُ عَثْرَتِي):

صحيح أن مناط استجابة الدعاء هو رحمة اللهّ سبحانه وكرمه، ولكن هذا لا يعني عدم وجود شروط، تقتضيها الحكمة الإلهية، يجب توفر العبد عليها، و لا تنافي بين الأمرين، فاللهّ تعالى أبت حكمته إلا أن يتقبل من المتقين، يقول تعالى على لسان هابيل، وهو الولد الصالح من ابني آدم عليه السلام، حين هدده أخوه قابيل بالقتل ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(المائدة/٢٧).

وهذا ما يعلمنا إياه الإمام (ع) في هذه الفقرة من الدعاء الشريف، فهو (ع) بعد أن يتضرع إلى اللهّ تعالى أن يسمع مدحته، وأن يجيب دعوته، يسأل اللهّ سبحانه أن يزيل الموانع التي قد تحول دون وصول دعائه إلى الحضرة القدسية للباري تعالى، فلا يستجاب دعاؤه و لا تسمع مدحته.

وهذا العائق يتمثل في تلوث النفس بالمعاصي و الخطايا، فهي عثرات يقع فيها الإنسان، فلا يصل إلى غايته المنشودة و هي القرب من اللهّ سبحانه.

ونقف عند هذه الكلمات الثلاثة التي استعملها الإمام (ع) للتعبير عن هذا المعنى المذكور:

١/ (أقل) يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي في معنى هذه الكلمة: (تقايلا بعدما تبايعا أي تاركا).[61] و في مجمع البحرين: (أقاله يقيله إقالة أي وافقه على نقض وسامحه. و منه (أقاله اللّه عثرته) والعثرة: الخطيئة).[62] وفي لسان العرب: (أقال اللّه فلانا عثرته بمعنى الصفح عنه. و تقايلا إذا فسخا البيع وعاد المبيع إلى مالكه والثمن إلى المشتري، إذا كان قد ندم أحدهما أو كلاهما، وتكون الإقالة في البيعة والعهد)[63]

والحقيقة هي أن الإقالة أقوى و أعمق من العفو و الصفح، بل هي أقوى مراتب المغفرة. ذلك أن العفو هو ترك العقاب على الذنب، بينما المغفرة هي تغطية الذنب بإيجاد المثوبة، صونا للمذنب عن عذاب الخزي و الفضيحة. و قال الغزالي: في العفو مبالغة ليست في الغفور، فإن الغفران ينبئ عن الستر، والعفو ينبئ عن المحو، وهو أبلغ من الستر، لأن الستر للشئ قد يحصل مع إبقاء أصله، بخلاف المحو فإنه إزالته جملة و رأسا. وأما الصفح، فإنه ترك التثريب و هو اللوم، كما يقول الراغب الإصفهاني و البيضاوي.[64]

وقد عرفنا أن الإقالة هي إعادة الوضع إلى سابق عهده، وإبقاء ما كان على ما كان، فليس هناك ذنب أو خطيئة، ومن ثم فلا حديث عن العفو و الصفح، و هذا قمة الغفران.

٢/ (غفور) و أصل هذه الكلمة التغطية.[65] وهذه الصيغة على وزن (فعول) ملحقة باسم الفاعل، لأنها بمعنى الفاعل، مع زيادة التأكيد عليه.[66] وكما هو معروف فإن صيغة اسم الفاعل تدل على المبالغة و الكثرة.

وقد تكرر هذا الإسم من أسماء اللّه الحسنى في القرآن الكريم إحدى و تسعين مرة، وهذه الكثرة تنبئ بسبوغ عفو اللّه و مغفرته، و قد صرحت بهذا المعنى الروايات الشريفة الواردة عن أهل البيت عليهم الصلاة و السلام.

فالإمام (ع) في هذه الفقرة من الدعاء الشريف، يتضرع إلى اللّه تعالى، مناديا إياه بالغفور، أن يقيله من خطاياه، فيجعلها كأن لم تكن، وهذا هو أعظم الغفران، لأنه إزالة للذنب، في العالمين معا، عالم التكوين و عالم التشريع، فلا يترتب عليه عقاب و لا لوم، و يعود المذنب كيوم ولدته أمه، صحيفة أعماله ناصعة البياض.

---

[61] كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج ٥ - ص ٢١٥
[62] مجمع البحرين - الشيخ الطريحي - ج ٣ - ص ٥٧٦
[63] لسان العرب - ابن منظور - ج ١١ - ص ٥٨٠
[64] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري – (١٤٥٧- ١٤٥٩) ص٣٦٣ - ٣٦٤
[65] كتاب العين - الفراهيدي ج٤ - ص٤٠٧ و الصحاح - الجوهري ج٢ ص٧٧٠
[66] كتاب نزهة الطرف شرح بناء الأفعال في علم الصرف للبيضاني ص١٨٢

٣/ (عثرتي) الذي تعطينا إياه معاجم اللغة العربية هو: أن العثرة بمعنى السقوط على الوجه أثناء المشي، بأن يصيب رجل الإنسان أو الدابة شيء، وتدرج من هذا المعنى المادي للسقوط، ليستعمل اللفظ في المعنى المجازي فيعبر به عن السقوط في براثن الخطيئة و الذنب.[٦٧]

وقد يقول قائل: لماذا لم يستغفر الإمام (ع) من الذنوب أو المعاصي أو الآثام أو الخطايا... لماذا قال (عثرتي) ؟

فنقول له: إن الجامع بين جميع هذه الألفاظ (الذنب، المعصية، الإثم، الخطأ...) هو إتيان القبيح، والخروج بذلك عن جادة الصواب، و مجانبة الحق.

وإن اختلفت معاني هذه الألفاظ في حيثياتها، فالذنب هو القبيح الذي يستتبع عقابا، في حين أن الخطيئة هي القبيح الذي يرتكب بغير قصد، كما أن الإثم هو القبيح الذي يكون عن تعمد وتقصير من فاعله، و الجرم هو القبيح الذي ينقطع به صاحبه عن الواجب، والمعصية تنبئ عن كونها منهي عنها.[٦٨]

وأما (العثرة) فإنها تنبئ بأنها حدث طبيعي يقع لكل سالك في الدرب، فهو من ملازمات الحركة و السير، ومن ثم فإن صاحبه إنما يقع فيه، لا أنه يرتكبه، ومع ذلك فهو ليس خروجا عن الجادة ولا مجانبة للصواب، كما أن قبحه ليس فاعليا، و إن كان فيه قبح فعلي، أي أن القبح فيه ينسب إلى الفعل، لا إلى الفاعل، فالتعثر قبيح، ولكن المتعثر ليس كذلك، وأقصى ما قد يقال في حقه أنه ضعيف.

فإذا تبينت لنا هذه الدقة في المعنى، عرفنا أن الإمام المعصوم (ع) الذي هو في حال الدعاء، يريد أن يستجدي رحمة اللّه و كرمه، فهو يبتغي إلى ذلك أحسن الوسائل، و لذلك يتضرع إلى اللّه بضعفه و قلة حيلته و قصوره.

إن لسان هذه الفقرة يقول: إلهي إنك تعلم أن الذي صدر مني في طريقي إليك، إنما هو نتيجة ضعفي و قصوري، ولم يكن ما كان مني عن تعمد و إصرار ، فانتشلني من حفرتي التي وقعت فيها، لأنني كما أنني عاجز عن منع نفسي من الوقوع و التعثر، فأنا كذلك أعجز عن الخروج منها، لمواصلة السير نحوك.

و عندما نقرأ قول الإمام عليه السلام في هذا الدعاء الشريف (و أقل يا غفور عثرتي) وأمثال هذه العبارة في مختلف الأدعية الشريفة، كقول الإمام أمير المؤمنين علي عليه الصلاة والسلام في دعاء كميل (اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم.....)

---

[٦٧] كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج٢ ص١٠٥ و الصحاح – الجوهري ج٢ ص٧٣٦ و معجم مقاييس اللغة - أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا ج٤ص٢٢٨ ومجمع البحرين للطريحي ج٣ - ص١٢١

[٦٨] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري – (٤٣) (٨٥٨) (٨٦٣) (٢٠٣٦)

فإننا قد نجد في أنفسنا تساؤلات تضج بها عقولنا و قلوبنا، تطرح علينا قضية عصمة الأئمة من أهل بيت النبي (ص).

كيف نقول عنهم أنهم معصومون، في حين أنهم هم بأنفسهم يلحون على الله تعالى بالاستغفار و طلب الإقالة من الذنوب و العثرات و الزلات ؟!!

و في معرض الإجابة على هذه التساؤلات، ينبغي أولا أن نؤسس لمواطئ أقدامنا في البحث، فنقرر النقاط التالية:

أولا / القرآن الكريم يؤكد عصمة الأئمة (ع)، إذ يقول الحق تبارك اسمه ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ ويقول سبحانه ﴿وأطيعوا الله أطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ وغيرها من الآيات الكريمة.

ثانيا / الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) يؤكد عصمة الأئمة من أهل بيته (عليهم السلام) في أحاديث كثيرة، يتفق الفريقان على نقل كثير منها، كحديث الثقلين، وحديث المنزلة، وحديث غدير خم..

ثالثا / إن القرآن المجيد يأمر النبي الأكرم (ص) في عدد من آياته بالاستغفار، و يخبره (ص) بأن الله قد غفر له وعفى عنه ونحن نقول يقينا بأن النبي الأكرم (ص) معصوم مسدد من قبل الله تعالى، ويدل على ذلك قوله سبحانه ﴿و ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ وغير الآية من الأدلة العقلية والنقلية المستفيضة.

رابعا / أن عصمة النبي الأكرم (ص) والأئمة المعصومين (ع) ليست ذاتية، وإنما هي هبة من الله تعالى لهم (ع)، فهي قابلة للزوال إذا شاء الله تعالى أن يفعل ذلك، وقد أخبرنا القرآن الكريم قصة ذلك العبد الذي مثله كمثل الكلب، يقول عز من قائل ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الأعراف ١٧٥ - ١٧٦).

فإذا أسسنا لذلك فإننا نقول بأن هذا الإستغفار الذي نقرأه في هذا الدعاء وفي غيره من الأدعية الشريفة، يمكن حمله على وجهين، و لا يضير الجمع بينهما:

الوجه الأول: أنه لغرض التعليم والتأديب، فالمعصوم (ع) نبيا كان أو إماما، يهديه الله تعالى إلى أفضل أنواع العبادة ويسدده للصواب والحكمة، ويلقنه المعاني والبيان وقد قال رسول الله (ص): (أدبني ربي فأحسن تأديبي).

وقد صرح القرآن الكريم بهذا المعنى، فيقول عز و جل ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(النساء/١١٣).

ثم إن القرآن المجيد أيضا صريح في أن من وظيفة النبي الأكرم (ص) أن ينقل إلى الناس ذلك العلم والهدى بحسب تفاوت قدراتهم الاستيعابية ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة/١٥١).

ومن هنا فقد أمر القرآن الكريم الناس بأن يتخذوا رسول اللّه (ص) أسوة لهم يقتدون به، ويتعلمون منه مناسك دينهم. فقال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(الأحزاب/٢١).

الوجه الثاني: وهو ما يذكره سماحة الشيخ جوادي آملي (أدام اللّه عزه الوافر) في تفسير القيم (تسنيم) إذ يقول: يكون الإستغفار تارة لأجل الدفع، أي لتجنب التلوث بالذنب وتارة أخرى يكون لأجل الرفع، أي لإزالة التلوث بعد صدور الذنب.

وعندما تأمر الآية الكريمة، النبي الأكرم (ص) بالاستغفار فإنها لا تعني أن ذنبا أو أمرا قبيحا قد صدر من النبي الأكرم (ص). ذلك لأن المعصومين (ع) على اتصال دائم باللّه تعالى، لا يغفلون عن ذكره طرفة عين أبدا، و لذا فقد كافأهم اللّه تعالى بأن آمنهم من ارتكاب المعاصي والذنوب ومنع الخطايا أن تقترب منهم .

ولكنهم (ع) من حيث أنهم موجودات ممكنة، فهم ليسوا معصومين بالذات، و إنما بما عصمهم اللّه تعالى، ولذا فإن عصمتهم هذه قابلة للزوال.

و من هنا فهم بحاجة دائمة إلى التوجه إلى اللّه سبحانه بالعبادة و الإنابة و الاستغفار، مفتقرون إلى عناية اللّه تعالى ولطفه و رحمته.

وهم بهذا الإستغفار يؤمنون علة دوام عصمتهم (ع) ويحفظون استقامتهم على الهدى و الصلاح.

وهكذا فإن استغفار المعصومين (ع) إنما هو لدفع الذنوب والتحرز منها، لا لرفعها بعد الوقوع فيها، فهو استمرار في الرجوع إلى اللّه تعالى ومداومة في السير إليه سبحانه، لا أنه رجوع بعد خروج من المسير .[٦٩]

وإلى هذا الرأي يشير العلامة رضوان اللّه عليه في إشارة مقتضبة، إذ يقول: فأمره بأن يستغفر ليس لصدور ذنب ذي وبال وتبعة منه، ولا لإشرافه على ما لا يحمد منه، بل ليسأل من اللّه أن يظهره على هوى النفس، ولا ريب في حاجته في ذلك إلى ربه وعدم استغنائه عنه وإن كان على عصمة فإن للّه سبحانه أن يفعل ما يشاء.[٧٠]

---

[٦٩] تفسير تسنيم - الشيخ جوادي آملي ج٢٠ ص٣٤٥
[٧٠] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٥ - ص ٧٢

(فَكَمْ يا إلهي مِنْ كُرْبَةٍ قَدْ فَرَّجْتَها):

ثم يؤكد الإمام (ع) بشواهد صارخة، تثبت ما ادعاه في الفقرة السابقة، من أنه ضعيف، فهو دائما عرضة للتعثر و الزلل، وأنه لولا رحمة ربه لكان من الهالكين.

ومن تلك الشواهد: الكرب الكثيرة التي تحيط بالإنسان، فتأخذ عليه سمعه و بصره، و تجثم على صدره، فلا يطيق أن يفعل شيئا، وتبقى هذه الكرب مخيمة على حياة الإنسان، إلا أن تتداركه نعمة من ربه، فعندئذ تنفرج عنه.

والكربة كما يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي: اسم للكرب و هو الغم الذي يأخذ بالنفس، ويوافقه في ذلك الجوهري في صحاحه، و يبين العسكري الفرق بين الحزن والكرب، بقوله: الفرق بين الحزن والكرب: أن الحزن تكاثف الغم وغلظته، مأخوذ من الأرض الحزن وهو الغليظ الصلب، والكرب تكاثف الغم مع ضيق الصدر، ولهذا يقال لليوم الحار يوم كرب، أي كرب من فيه، وقد كرب الرجل، وهو مكروب، وقد كربه إذا غمه وضيق صدره.[٧١]

فالإمام (ع) هنا يستشهد على ضعفه وحاجته للمدد الإلهي، بأنه لا تمر عليه فترة من الزمان إلا وتعرض له حادثة تكربه بغمها، فلا يجد لها فرجا إلا من عند اللّه تعالى، و قد عوده اللّه سبحانه بكرمه و رحمته، أن يفرج عنه كربته.

وهذه الصيغة المبتدئة باداة الاستفهام (كم) تدل على الكثرة تعظيما، إذ أنها هنا خبرية، ولذلك جاء تمييزها مجرورا، كما تقول مصادر اللغة العربية.[٧٢]

فالإمام سلام اللّه عليه يعظم بهذه الصيغة منن اللّه تعالى عليه، ويعد تفريجه سبحانه وتعالى عنه كربته، مرة تلو المرة، بما لا يحصى عددا، نعمة كبيرة.

(وَ هُمُومٍ قَدْ كَشَفْتَها):

و يتدرج الإمام (ع) في ذكر الشواهد التي تدل على سبوغ رحمة اللّه و كرمه، وشموله لعباده في جميع حالاتهم، فيبدأ الإمام (ع) في الفقرة السابقة من أصعب الحالات التي قد تمر على الإنسان، فيذكر (ع) الكرب، باعتباره أشد الغموم و أقساها، ثم ينزل قليلا، فيذكر من الحالات ما هو أهون على الإنسان، فيذكر الهموم في إشارة واضحة إلى اعتقاد الإمام (ع) بأن اللّه سبحانه، من شدة رحمته و سمو كرمه، يرعى

---

[٧١] كتاب العين - الخليل الفراهيدي ج٥ ص٣٦٠ و الصحاح - الجوهري ج١ ص٢١١ و الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري (٧٣٣) ص١٨٥

[٧٢] شرح الرضي على الكافية - الأستراباذي ج٣ ص١٥٧و المعجم الوافي ص٢٥٢- د.علي توفيق الحمد ويوسف الزعبي

الإنسان، ليس فقط في أحلك الظروف وأقساها، بل و أيضا في كل ما يهم الإنسان أمره و يصعب عليه بلوغه، من حوائجه.
وقد قارن العسكري بين الهم و الغم فقال: أن الهم هو الفكر في إزالة المكروه و اجتلاب المحبوب وليس هو من الغم في شئ، ألا ترى أنك تقول لصاحبك اهتم في حاجتي، ولا يصح أن تقول اغتم بها. [٧٣] وقيل أن الهم هو ما يقدر صاحبه على دفعه، والغم هو ما لا يقدر على دفعه.
فالهموم إذن مرتبة أدنى من الصعوبات والمنغصات التي يتعرض لها الإنسان في حياته، نتيجة لضعفه، فهي مثل السحاب المتراكم من حول الإنسان، يحجب عنه الرؤية، ويجعل الجو من حوله كئيبا، و لذلك فهو يحتاج إلى من يكشف عنه هذه الهموم، و هنا أيضا تتداركه رحمة من ربه، فيكشف ما به هم وحزن.

(وَ عَثْرَةٍ قَدْ أَقَلْتَها):

ومن الشواهد على سبوغ رحمة الله تعالى لعباده أنه يقيل عثراتهم، فيمحوها من صفحة الوجود و يبقي شؤونهم مصونة عن التأثر بآثامهم وأخطائهم.
و ها هنا نكتة لطيفة، فإن الإمام (ع) في معرض استجدائه لكرم ربه الغفور، وطلبه منه تعالى أن يقيل عثرته، يقدم بين يديه مدحته أن ربه الغفور قد سبق وأن أقال عثرته، مرات ومرات، فلا هذه أول مرة يتعثر فيها الإنسان، و لا هذه أول مرة يقيله الله من عثراته، فكأننا نقرأ بين سطور هذا الدعاء الشريف: إلهي إنك قد عودتني أن تقيل عثراتي، و حاشاك أن تقطع عادة الإمتنان، إلهي كلما عدت بجهلي عدت علي بحلمك، فسبحانك من رؤوف غفور.

(وَ رَحْمَةٍ قَدْ نَشَرْتَها):

بل و أنت يا إلهي أكبر من ذلك و أعظم، فهي لا تقف عند حد تفريج الكرب و كشف الهموم عني، و إنما تبتدئني بالرحمة الغمرة، فتنشرها علي في أموري كلها، فلا ألقى منك يا إلهي إلا جميلا حميدا.
وما أروع هذا التعبير الصادر من الإمام المعصوم (ع)، فهو (ع) يصور الرحمة كالهواء ينتشر في كل مكان، فلا يبقى شئ في الوجود إلا و دخله.

---

[٧٣] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (٢٢٦٢) ص ٥٦٠

وقد ورد هذا التعبير في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾(الشورى/٢٨)، ويقول العلامة الطباطبائي أعلى الله مقامه في تفسير هذه الآية المباركة: و نشر الرحمة، تفريق النعمة بين الناس، بإنبات النبات وإخراج الثمار التي يكون سببها المطر. وفي الآية انتقال من حديث الرزق إلى آيات التوحيد التي لها تعلق ما بالأرزاق، ويتلوها في هذا المعنى آيات وتذييل الآية بالإسمين: الولي الحميد، وهما من أسمائه تعالى الحسنى، للثناء عليه في فعله الجميل.[٧٤]

و من حيث أن الإمام المعصوم (ع) هو القرآن الناطق، فإن هذا الانتقال الذي يذكره العلامة الطباطبائي هنا، من حديث الرزق إلى آيات التوحيد في هذه السورة المباركة نجده أيضا ملحوظا في هذا الدعاء الشريف، وسوف نتأمل فيه في المحور القادم إن شاء الله تعالى.

(وَ حَلْقَةِ بَلاءٍ قَدْ فَكَكْتَها):

وردت كلمة (بلاء) بمختلف اشتقاقاتها في القرآن الكريم، بمعنى الامتحان و الاختبار يقول العسكري: أن البلاء يكون ضررا و يكون نفعا، و أصله أن تختبره بالمكروه، و تستخرج ما عنده من الصبر به، و قد تسمى النقمة بلاء، و البلاء لا يسمى نقمة إذا كان ابتداء، و البلاء أيضا اسم للنعمة، و في كلام الأحنف: البلاء ثم الثناء أي النعمة ثم الشكر.[٧٥] ويقول الخليل الفراهيدي: بلي الإنسان و ابتلي إذا امتحن، و البلاء، في الخير و الشر. و الله يبلي العبد بلاء حسنا و بلاء سيئا.[٧٦]

وفي هذه الفقرة أيضا نرى الإمام (ع) يتدرج في ذكر الحالات الصعبة التي يتعرض لها الإنسان في حياته، و يلتمس الخلاص منها، فتدركه رحمة ربه في كل شدة محنة، إذ أن المنظور إليه في هذه الكلمة (بلاء) هنا هو الشدة و الصعوبة.

فالإمام (ع) يصور البلاء هنا على شكل حلقة من الشدة و العسر تحيط بالإنسان، فلا يستطيع أن يخرج منها، إلى ما هو سهل يسير، فتأتيه رحمة الله سبحانه لتفك عنه تلك الحلقة الكأداء، فيخرج الإنسان من عنائه و تعبه.

وهذا هو معنى طلب العافية من الله تعالى في الأمور كلها، و هو ما تشير إليه الآية الكريم في دعاء الرسول (ص) والمؤمنين معه ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا

---

[٧٤] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ١٨ - ص ٥٧ - ٥٨

[٧٥] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري – (٤١٨) ص ١٠٥

[٧٦] كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج ٨ - ص ٣٤٠

وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة/٢٨٦).

الفصل الرابع / الإيمان بأن أسماء اللّه الحسنى هي وراء كل الخير الموجود في العالم.
وبما أن الوحدانية هي أعظم أسماء اللّه الحسنى تقدست أسماؤه، وعقيدة التوحيد هي الركن الركين والأصل الأول في كل رسالات السماء، وعليها قامت كل دعوات الأنبياء، من أولهم إلى خاتمهم صلوات اللّه وسلامه عليهم.
فقد بدأ الإمام (ع) هذا الفصل بتأكيده (ع) على أن وحدانية اللّه تبارك وتعالى هي السبب الأول لكل الخير الموجود في الكون، إذ أنه هو المالك التام لكل شئ، و المتصرف الوحيد في كل شئ، ولو أنه كان في الكون آلهة أخرى لفسد النظام القائم فيها، و لهلكت الكائنات كلها، وهذا ما يصرح به قوله تبارك اسمه ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(الأنبياء/٢٢) و قوله تعالى ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(المؤمنون/٩١).
و لا يخفى أن فقرات هذا الفصل، قد نزل بها جبريل (ع)، على قلب نبينا الأكرم (ص) قرآنا يتلى آناء اللّه وأطراف النهار بأمره الحق تبارك اسمه، أن يحمده بهذه الكيفية، فقال تعالى ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾(الإسراء/١١١).

(الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ صاحِبَةً وَلا وَلَداً):

ونلاحظ زيادة بند في الدعاء الشريف لم يرد في التحميد الوارد في الآية المباركة، و هو تنزيه الباري سبحانه عن اتخاذ الزوجة، وهو ما يعبر عنه بكلمة (صاحبة).
ولا يظنن أحد أن هذه الزيادة غير مستندة إلى كتاب اللّه المجيد و أنها إضافة في تمجيد اللّه تعالى و تحميده، لم يدل عليها القرآن الكريم.
ذلك أن القرآن الكريم يصرح بتمجيده بهذه الصفة، على لسان بعض خلقه، وأنها علامة على وحدانيته سبحانه، فمن ذلك قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا﴾(الجن/٣) و ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(الأنعام/١٠١).
و للشراكة صور عدة، فتارة تكون الشراكة بالتوافق و التراضي، كالزواج والصداقة وتارة أخرى تكون بالاستحقاق، كالإشتراك في الملك، و تارة ثالثة تكون الشراكة بالوصاية و القهر، كالجبابرة و الطواغيت، الذين يشاركون الناس في أرزاقهم و أموالهم غصبا و قهرا.

و في هذه الفقرة يشير الإمام (ع) إلى النوع الأول من الشراكة، وهو الذي يكون بالتراضي والتوافق متمثلا هنا في علاقة اتخاذ الزوجة، و ما تسفر عنه هذه العلاقة من إنجاب الأولاد.

و هذا النوع من الشراكة، يتميز بأن الطرف القوي فيه، يسخر تمام إمكانياته، و يقدم أفضل ما لديه لشريكه الضعيف، مبتغيا بذلك رضاه و وده، وقد جاءت الروايات الشريفة تحث الأزواج على حسن معاملة نسائهم، و منها الحديث الشريف (رفقا بالقوارير).

و من هنا يصبح للزوجة دخل في تصريف الأمور، فهي تميل إلى هذا و تنفر من ذاك، و ترغب أن يكون هذا الشئ على هذا النحو، وأن يكون ذلك الشئ على نحو آخر.. و هلم جرا.

وقد تجد الزوج، في كثير من الأحيان، مدفوعا بالعاطفة، فيخرج عن جادة الحكمة و الصواب، فيقدم على فعل ما لا ينبغي له فعله، أو يترك ما يجب عليه فعله، و في هذا المعنى يقول الحق تبارك و تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾(التغابن/١٤) كناية عن أن هذه العلاقة الحميمة، المملوءة بالعاطفة، قد تفعل فعل عكسها، فتؤدي بصاحبها إلى الهلاك والشقاء، كما يفعل الأعداء.

وهذا هو المعنى الذي يريد الإمام المعصوم (ع) في هذه الفقرة من هذا الدعاء الشريف، أن يوجه أنظارنا إليه.

فإن اتخاذ الصاحبة، يقترن عادة مع جعلها شريكة في تصريف الأمور، و تسيير الدفة، و من ثم الوقوع في كثير من التخبط و الارتجال، و كفى بذلك فسادا.

فلو أن الله تعالى اتخذ صاحبة و ولدا، لآل أمر الكون إلى الفساد و الهلاك، لأن الأوامر عندئذ ستصدر من جهات متعددة، قد تختلف فيها زوايا النظر، وتتباين فيها الأهداف، و لما أمكن أن تسير الأمور بهذه الغاية من الرحمة و الكرم و اللطف الإلهي المعهود.

ولا ينبغي أن نغفل في هذا المقام عن دفع شبهة اتخاذ الباري سبحانه صاحبة و ولدا فنقول: أن المعقول هو أن تقوم هذه العلاقة بين المتجانسين، و المتماثلين، لأنها تبنى على العناصر المشتركة بينهما، و لذا فهي لا تقوم بين المتباينين ناهيك عن المتضادين، لأنهما لا يجتمعان على شئ مشترك بينهما.

وهذا يعني أن فرض الصاحبة و الولد للباري تعالى يقتضي وجود تجانس بينهما، و هذا يفضي إلى القول بتعدد واجب الوجود، و هو ما يرفضه العقل أيما رفض، إذ أن البرهان العقلي قائم على أن الواجب سبحانه لا يتعدد، لأنه واجب من جميع الجهات.

(وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ):

وفي هذه الفقرة يشير الإمام (ع) إلى النوع الثاني من علاقة الشراكة، و هي التي تقوم على استحقاق كل طرف للشراكة، باعتباره مالكا لجزء من الموجودات.

وفي هذا النوع من الشراكة، لا ينظر إلى الضعف والقوة في الشركاء، وإنما يمارس كل طرف حقه في الإدارة و التصرف، بمقدار ما يملك من الشركة، و ليس للشريك الأخر أن يمنعه فيما هو حق له، أو يحده بما لا يمليه عليه الحق.

وفي هذه الشراكة، يصبح الأمر أشد سوء، منه في النوع الأول، ذلك أن الشريك هنا إنما يتصرف فيما يملكه من حق، و ليس في ذلك تفضل لأحد عليه، و لا محل للعواطف هنا.

بل إن المحرك هنا قد يكون المصالح، و هي في العادة متضاربة، فكما يقال (مصائب قوم عند قوم فوائد) فيصبح الكون ساحة معركة، كل يجر النار إلى قرصه.

و حيث أن هذه الشراكة مفروضة بسلطان الحق، جاء التعبير عنها بعبارة (لم يكن له شريك) في حين أن العلاقة السابقة القائمة على التراضي و التوافق، يعبر الإمام (ع) عنها بعبارة (لم يتخذ).

وبانتفاء هذا النوع من الشراكة، نجد العالم الرحب على سعته، مليئا بالخير و الرحمة الإلهية ولولا ذلك، لعاث الفساد والظلم كل أرجاء الكون و لما بقيت لأحد من المخلوقات باقية.

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِ):

وهنا يشير الإمام (ع) إلى النوع الثالث من الشراكة، و هو الذي لا يكون بالتراضي و الاتخاذ، كما لا يكون بالاستحقاق و التملك، و إنما يكون فرضا بالقهر و الإذلال.

و في هذه الشراكة، يتصرف الشريك القاهر بدون مبالاة، و لا اكتراث لما يحصل نتيجة تصرفاته هذه أو ما ينعكس لتصرفاته من آثار سلبية ماحقة.

ولا يملك المالك الحقيقي أن يمنعه أو أن يملي عليه التصرف بما يتناسب مع الحكمة ويوافق الصواب، لأنه عاجز مقهور، قد لبسته ذلة الضعف والقهر فيما يسرح هذا الشريك القاهر وكأنه هو الولي المتصرف في سائر الشؤون.

و قد يكون المقصود من هذه العبارة، أن (الولي) يعني الناصر، فكأن المالك قد غلب على أمره، ولبسه ذل الهزيمة والانكسار، فيحتاج إلى ولي ناصر يستنقذه من هذا الذل والهوان، فيصبح لهذا الولي سلطان، و يصير شريكا للمالك، وهذا المعنى هو الذي يورد فيه الشيخ القمي رضوان اللّه عليه حديثا عن الإمام أبي عبد اللّه عليه السلام في قوله تعالى ﴿و قل الحمد للّه الذي لم يتخذ ولدا و لم يكن له شريك في الملك و لم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا﴾ قال: لم يذل فيحتاج إلى ولي فينصره.[٧٧]
ومحصل المعنيين واحد، وهو فرض شريك للّه تعالى من باب نسبة الضعف إلى اللّه عز و جل، تعالى عن ذلك علوا كبيرا.

(وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً):
وينتهي المقال عند الحقيقة الناصعة، التي لا تقبل التنازع ولا تستسيغ الجدال، وهي أن جميع أنواع الشراكة، باطلة في حق اللّه تعالى، لأن سبحانه أكبر من أن ينفعل بالعواطف وغيرها، و أكبر من أن يكون له مسانخ أو مجانس و أكبر من يستحق عليه أحد شيئا، أو يكون لأحد معه أمر أو استقلال، و أكبر من أن ينسب إليه الضعف والذلة، فهو سبحانه و تعالى أكبر من أن يكون له شريك على الإطلاق.
و صيغة المفعول المطلق (كبره تكبيرا) جاءت لتدل على التأكيد هنا، أي كبره من دون شك و لا ريب، و من دون مهادنة و لا تساهل.

(الحَمْدُ للهِ بِجَمِيعِ مَحامِدِهِ كُلِّها عَلى جَمِيعِ نِعَمِهِ كُلِّها):
معلوم أن تعداد أي شيء، يكون عرضة للزيادة أو النقصان، لما تعرض على العاد من غفلة أو سهو ولما يتلبسه من جهل وعدم إحاطة.
ومن هنا، فبعد أن شرع الإمام المعصوم (ع) في تعداد نعم اللّه تعالى و آثار رحمته سبحانه، أتى على ذكر بعضها، ثم عدل إلى إجمالها في هذه الفقرة من الدعاء الشريف.
وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن نعم اللّه تعالى لا تعد ولا تحصى، حتى وإن كان العاد معصوما، وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(إبراهيم/٣٤).

---

[٧٧] تفسير القمي - علي بن إبراهيم القمي ج ٢ص٣٠

(الحمد للّه) وهذه العبارة هي مستهل أم الكتاب التي هي أعظم سورة في القرآن الكريم.
وقد ورد عبارة (الحمد للّه) في سبع وعشرين سورة في القرآن الكريم، خمس منها افتتحت بالحمد للّه، وهي (فاتحة الكتاب، سورة الأنعام، سورة الكهف، سورة سبأ، سورة فاطر).
وأداة التعريف (ال) هنا (جنسية) وليست (عهدية) فهي تفيد الاستغراق لجميع أفراد جنس (الحمد)، أي أن كل حمد إنما هو للّه تعالى.[٧٨]
و يؤكد الإمام (ع) بعبارة صريحة هذا المعنى إذ يقول (ع) (بجميع محامده كلها على جميع نعمه كلها)، فهو عليه السلام يستعمل ثلاثة أنوع من أدوات الجمع في هذه الفقرة:
(جميع) و هو من ألفاظ التأكيد المعنوي للجمع.
(محامد) وهو جمع تكسير من (محمدة) يفيد الكثرة، لأن لفظ (محمدة) له جمعان: الجمع المؤنث السالم (محمدات)، و الآخر هو جمع التكسير (محامد)، و اللفظ الذي يكون هكذا، فإن جمعه سالما يدل على القلة، بينما يدل جمعه مكسرا على الكثرة. يقول في شرح شافية ابن الحاجب (وقد ذهب بعضهم إلى أن الاسم إن كان له جمع تكسير وجمع سلامة كالجفان والجفنات فجمع السلامة للقلة وجمع التكسير للكثرة، وإن لم يكن له إلا جمع سلامة فجمع السلامة مشترك بين القلة والكثرة)[٧٩]
(كل) وهو لفظ يراد به الشمول و إفادة العموم و استغراق أفراد الإسم .[٨٠]
يقول الفيض الكاشاني أعلى اللّه مقامه في تفسيره الصافي (الحمد للّه: يعني على ما أنعم اللّه به علينا، في العيون و تفسير الامام (عليه السلام) عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه سئل عن تفسيرها فقال: هو أن اللّه عرف عباده بعض نعمه عليهم جملا إذ لا يقدرون على معرفة جميعها بالتفصيل لأنها أكثر من أن تحصى أو تعرف فقال قولوا الحمد للّه على ما أنعم به علينا. وفي الكافي عن الصادق (عليه السلام): ما أنعم اللّه على عبد بنعمة صغرت أو كبرت فقال: الحمد للّه الا أدى شكرها).[٨١]

---

[٧٨] راجع كتاب المعجم الوافي – د.علي توفيق ويوسف الزعبي ص٤٦
[٧٩] شرح شافية ابن الحاجب - رضي الدين الأسترابادي ج ١ هامش ص٢٦٧
[٨٠] راجع كتاب المعجم الوافي – د.علي توفيق ويوسف الزعبي ص٢٤٧
[٨١] تفسير الصافي للفيض الكاشاني ج١ ص٨٧

فيما يعرض علينا العلامة الطباطبائي قدس سره تحليلا قرآنيا رائعا يتجلى فيه كيف يكون الحمد كله لله تعالى وحده، فيقول: (و ذلك أن الله سبحانه يقول ﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء﴾(غافر٦٢) فأفاد أن كل ما هو شيء فهو مخلوق لله سبحانه، و قال ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾(السجدة٧) فأثبت الحسن لكل شيء مخلوق من جهة أنه مخلوق له منسوب إليه، فالحسن يدور مدار الخلق و بالعكس، فلا خلق إلا و هو حسن جميل بإحسانه، و لا حسن إلا و هو مخلوق له منسوب إليه، و قد قال تعالى ﴿هو الله الواحد القهار﴾(الزمر٤) و قال تبارك اسمه ﴿و عنت الوجوه للحي القيوم﴾(طه١١١).

فأنبأ أنه لم يخلق ما خلق بقهر قاهر، و لا يفعل ما فعل بإجبار من مجبر، بل خلقه عن علم و اختيار، فما من شيء إلا و هو فعل جميل اختياري له.

فهذا من جهة الفعل، و أما من جهة الاسم فقد قال تعالى﴿الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾(طه٨) و قال تعالى ﴿و لله الأسماء الحسنى فادعوه بها و ذروا الذين يلحدون في أسمائه﴾(الأعراف١٨٠) فهو تعالى جميل في أسمائه و جميل في أفعاله، و كل جميل منه.

فقد بان أنه تعالى محمود على جميل أسمائه، و محمود على جميل أفعاله، و أنه ما من حمد يحمده حامد لأمر محمود، إلا كان لله سبحانه حقيقة، لأن الجميل الذي يتعلق به الحمد منه سبحانه، فلله سبحانه جنس الحمد و له سبحانه كل حمد.[٨٢]

(الحَمْدُ للهِ الَّذِي لا مُضادَّ لَهُ فِي مُلْكِهِ):

و كما شاهدنا تدرج الإمام (ع) في بيان موانع سبوغ البر و الإحسان و انتشار الرحمة و الكرم من الله تعالى على جميع مخلوقاته، فيما مضى من فقرات هذا الفصل.

فبدأ عليه السلام بنفي المانع الضعيف (لم يتخذ صاحبة و لا ولدا) و هو الشريك التوافقي الاتخاذي ثم نفى المانع القوي (ولم يكن له شريك في الملك) وهو الشريك الاستحقاقي، ثم انتهى بالمانع الأقوى (ولم يكن له ولي من الذل) وهو الشريك القهري الغالب.

نراه عليه الصلاة والسلام هنا في هذه الفقرات يحافظ على التدرج، ولكنه (ع) يعكس الترتيب، فيبدأ من الأقوى فالأضعف فالأضعف، ولعل السر في ذلك يكمن في أن إجمال الحمد هنا، و ما يتضمنه من تكرار لذكر النعم والآلاء، يتناسب مع نفي

---

[٨٢] تفسير الميزان للعلامة الطباطبائي ج١ ص٩

الأقوى من الموانع، إذ كما أن المتبادر من إجمال النعم هو أعلاها وأفضلها، فكذلك يكون من الموانع أقواها و أشدها تأثيرا، فانتفاء الموانع يجد ذاته من أكبر النعم التي يحمد عليها الله تعالى، ولذلك نقرأ في كتاب الله المجيد ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الزمر/٢٩).

وفي هذه الفقرة ينفي الإمام (ع) ذلك الشريك الذي يتصرف في الأمور كما يحلو له، رغما عن إرادة المالك الحقيقي، بل هو يضاده في الحكم و الفعل، لأنه ينظر إلى مصالحه ومآربه هو فحسب، ولذلك يعبر الإمام (ع) عنه بأنه مضاد في الملك، فهو فضلا عن أنه لا يملك في هذا الوجود شيئا، يريد هلاك هذا الوجود و فساده .

(وَ لا مُنازِعَ لَهُ فِي أَمْرِهِ):

ثم ينتقل الإمام (ع) إلى ذكر النوع الأضعف، وهو الشريك الذي يملك جزء من هذا الكون، و له حق في التصرف واتخاذ القرار، كما لشريكه تماما، فيقع التنازع بين الشريكين، تبعا لاختلاف الإرادة، و تباين المصالح، و تغاير زوايا النظر، بينهما.

(الحَمْدُ للهِ الّذِي لا شَرِيكَ لَهُ فِي خَلْقِهِ):

و أخيرا يأتي الإمام (ع) على نفي الدرجة الأضعف من الشراكة، حيث يكون المالك الحقيقي هو الذي يختار شريكه، وهو الذي يتفضل عليه بأن يجعل له نصيبا في التصرف و اتخاذ القرار. و في الحقيقة فإن الإمام (ع) هنا ينفي كل أنواع الشراكة على الإطلاق، ليكون ذلك دالا على انتفاء هذا النوع الأضعف في الضمن.

(وَلاشَبِيهَ لَهُ فِي عَظَمَتِهِ):

و يعلل الإمام (ع) نفيه لمطلق الشريك لله تعالى، بأن الله سبحانه ليس له شبيه في عظمته، و الحال أن الشراكة، بكل أنواعها، إنما تقوم على درجة من التشابه.

و نلاحظ دقة الإمام (ع) في التعبير، إذ يستعمل كلمة (العظمة) في نفي الشبيه.

وهذا بالتأكيد لا يعني نفي الشبيه في خصوص صفة العظمة فحسب، بل يعني أن الله تعالى الذي هو عظيم في كل صفاته و أسمائه، لا يشبهه أحد.

فقد يكون بعض الخلق سميعا بصيرا، و هو ما يقرره قوله تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(الإنسان/٢) و لكن صفة السميع البصير تصل إذا ما وصف بها الله تعالى إلى حد العظمة.

وقد يكون بعض الخلق رؤوفا رحيما، كما يقول تعالى في وصف نبيه الأكرم (ص) ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(التوبة/١٢٨) إلا أن الرأفة و الرحمة عندما تصبحان، من أسماء اللّه الحسنى، فإنهما تبلغان الذروة.

وقد يقال لبعض الخلق أنه خالق، كما قال اللّه تعالى عن نبيه الكريم عيسى (ع) ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾(آل عمران/٤٩) و لكن اللّه سبحانه يخلق بلا إذن من أحد فتبارك اللّه أحسن الخالقين

وبهذا يتبين لنا أن قول الإمام (عليه السلام) في هذه الفقرة المباركة (لا شبيه له في عظمته) تنزيه للباري سبحانه عن الشبيه مطلقا.

وإذ لم يكن و لا يكون للّه تعالى شبيه في أي من صفاته، فيصبح القول بأن له سبحانه شريك، قولا بلا معنى.

الفصل الخامس / و بعد أن قدم الإمام (ع) شهادته بالوحدانية لله تعالى، بين يدي مدحته، في هذا الدعاء الشريف، ينتقل (ع) إلى ذكر صفة أخرى من صفات الله الجمالية و هي صفة الجود و الكرم، وهما من صفات الله الحسنى التي هي منشأ كل خير.

فالإمام (ع) يرى أن كرم الله تعالى و جوده، سبب رئيسي في سبوغ الخير و انتشاره في الكون كله.

و يجدر بالقول أن الفصل السابق، الذي نفى فيه الإمام (ع) وجود الشريك لله سبحانه وتعالى، كان بمثابة بيان ارتفاع المانع في قضية انتشار الخير وعموم البركة في الوجود كله، و أما ما يفعله الإمام (ع) في هذا الفصل فهو بيان الصفات الجمالية لله تعالى، و هذا بمثابة بيان وجود الدافع في قضية انتشار الخير و البركة في الكون.

ومعلوم أن المعلول لا يتحقق إلا بوجود علته التامة، و هي عبارة عن وجود الدافع وارتفاع المانع.

(الحَمْدُ للهِ الفاشِي فِي الخَلْقِ أَمْرُهُ وَ حَمْدُهُ):

و نرى الإمام (ع) يستعمل كلمة (الفاشي) في التعبير عن شدة ظهور و انتشار نعم الله تعالى في الكون كله.

و هذه الكلمة تفيد الظهور و الإنتشار و التوسع والكثرة، كما يقول أرباب اللغة العربية.[٨٣] و يقول صاحب الفروق اللغوية أن الإفشاء يعني كثرة الإظهار.[٨٤]

فالإمام (ع) هنا في هذا المقطع من الدعاء الشريف، يصرح بإيمانه بأن أمر الله تعالى و حمده سبحانه، وصلا حد الظهور الكثير و الانتشار الواسع في الخلق.

و لنلتفت إلى عبارة (الفاشي) و هي صيغة اسم الفاعل، و كأن أمر الله تعالى و حمده هما الذين انتشرا و ظهرا بهذه الكثرة و السعة، و في هذا ايحاء إلى أن الله تعالى قد جعل فيهما قوام الانتشار و الظهور، كما جعل في الماء قوام الإرواء، فنقول (الماء يروي من العطش).

ثم إن الإمام (ع) يربط بين أمر الله تعالى وحمده، في إشارة واضحة، إلى أن أوامر الله تعالى كلها، التكوينية منها والتشريعية، مثار حمد الخلق كلهم، لأنها في محل استحسانهم جميعا.

---

[٨٣] كتاب العين-الفراهيدي ج٦ص٢٨٩ و تاج العروس-الزبيدي ج٢٠ ص٤٩

[٨٤] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري (٢٣٨) ص ٦١

وبعبارة أخرى، فإن اللّه سبحانه، تحمد إلى الخلائق بأوامره، التي امتلأت حكمة، و فاضت رحمة و كرما و جودا.
وكما عرفنا فيما سبق بأن الحمد يتضمن الفعل، فهو في الحقيقة يتعلق بالفعل الحسن، سواء كان الحامد ممن يشملهم ذلك الفعل الحسن، أم لا يصلهم، فيصح مثلا أن يحمد الإنسان اللّه عز وجل على ما أحسن من خلقة الأجرام السماوية، حتى وإن لم يلمس خيرها في حياته الشخصية.
وقد قرر القرآن الكريم حقيقة أن الكون كله خاضع لأمر اللّه سبحانه، وأن المخلوقات كلها، كبيرها و صغيرها، تجري بأمره تعالى، فنقرأ في قوله سبحانه ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(الأعراف/٥٤) و ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾(إبراهيم/٣٢-٣٣) و ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحج/٦٥) و غيرها من الآيات المباركة، الناطقة بهذا المعنى.
بل إن القرآن الكريم يحدثنا عن أن الكون كله يسبح بحمد اللّه والثناء عليه سبحانه، إذ يقول تعالى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(الإسراء/٤٤).

(الظاهر بالكرم مجده):

يقول الفراهيدي في تعريف (المجد) هو نيل الشرف والرجل مجده كرم فعاله.[٨٥] ويقول الجوهري بأن المجد هو الكرم.[٨٦] ويتضح معنى المجد أكثر عندما نقرأ ما يقوله العسكري في بيان الفرق بين المجيد والرفيع: (المجيد هو الرفيع في علو شأنه والماجد هو العالي الشأن في معاني صفاته. وأصل المجد العظم إلا أنه جرى على وجهين عظم الشخص وعظم الشأن)[٨٧]

---

[٨٥] كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج ٦ - ص ٨٩
[٨٦] الصحاح - الجوهري - ج ٢ - ص ٥٣٦
[٨٧] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (١٩٤٣) ص ٤٨٢

وأما (الكرم) فهو الشرف، و هو التنزه عن الشائنات، كما يقول الفراهيدي،[٨٨] و هو ضد اللؤم كما يقول الجوهري.[٨٩]
وثمة معنى آخر لكلمة (كرم) وهو الجود والسخاء فيقال كرم السحاب إذا جاد بالغيث.[٩٠] ويقول صاحب الفروق اللغوية في الفرق بين الجود والكرم: ويجوز أن يقال الكرم هو إعطاء الشئ عن طيب نفس قليلا كان أو كثيرا. والكرم هو الذي يعطي من غير سؤال.[٩١]
ومن هنا يتبين لنا أن المعنى المراد من كلمة (كرم) هنا هو المعنى الثاني، أي الجود والسخاء.
إذ أن حمله على معنى الشرف، يجعل الجملة على النحو التالي (الظاهر بالشرف شرفه) وهو واضح الضعف.
فالإمام (ع) يفصح عن أن جود الله تعالى وفيضه وعطاءه الوافر، هو الذي يتعظم به الله سبحانه وهو الذي يظهر به مجده، تبارك اسمه.

(الباسط بالجود يده):

و قد أنكر الله سبحانه في كتابه المجيد على اليهود الذين قالوا بأن الله تعالى لا يقدر على التصرف في الخلق أو أنه لا يجب أن يغدق على الكون فضلا و رحمة، وامتدح نفسه بالكرم والسخاء وبسط اليد، فقال تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾(المائدة/٦٤) و في آية أخرى يقول الحق سبحانه ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾(الرعد/٢٦).
والبسط هو نقيض القبض، وهو بمعنى نشر الشئ و توسعته،[٩٢] و يكنى به عن الجود و الكرم.
(الجود) كما يقول العسكري في الفرق بين السخاء و الجود: بأن من أعطى البعض و أبقى لنفسه البعض فهو صاحب سخاء. و من بذل الأكثر و أبقى لنفسه شيئا، فهو صاحب جود. والجود كثرة العطاء من غير سؤال. ويجوز أن يكون أصل الجواد إعطاء

---

[٨٨] كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج ٥ - ص ٣٦٨
[٨٩] الصحاح - الجوهري - ج ٥ - ص ٢٠١٩
[٩٠] كتاب العين - الفراهيدي ج٥ ص٣٦٩ و الصحاح - الجوهري ج٥ ص٢٠٢٠
[٩١] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري (٦٧٣) ص ١٧٠ - ١٧٢
[٩٢] كتاب العين - الفراهيدي ج٧ ص٢١٧ و الصحاح - الجوهري ج٣ ص١١١٦

الخير.[٩٣] و قيل: الجود إفادة ما ينبغي لا لغرض. و الجود سعة العطاء و منه سمي المطر الغزير الواسع جودا.[٩٤]

(الذي لا تنقص خزائنه):

فلازم الإنفاق قلة المخزون، لأن الإنفاق يعني الأخذ من المخزون، فإذا كان هذا المنفق جوادا كريما، بل باسط اليد بالجود والكرم، فإن النتيجة الطبيعية هي أن ينفد المال المنفق منه.

و هذا من شأنه أن يؤدي إلى انتهاء هذا العطاء، و توقف هذا الكرم و الجود، بزوال المال المخزون.

و هنا نجد الإمام (ع) يضع يده على هذه المسألة، مبينا أن الخزائن التي ينفق منها الله تعالى غير قابلة للنفاد، لأنها لا تنقص بالإعطاء.

وقد بين الله تعالى في كتابه المجيد أن له سبحانه خزائن السماوات والأرض ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾(الحجر/٢١) و هذه الآية الكريمة تبين أن لله خزائن من كل شيء، فيما صرحت آيات عدة بأن منها خزائن الرحمة ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا﴾(الإسراء/١٠٠).

و يجدر بالإشارة إلى أن في هذه الآية الكريمة نقطة مهمة، نجدها في الفقرة الأخيرة من هذا الفصل، وهي أن الكرم والجود، لا يقوم على الجدة فقط، فلا يكفي التملك و الثراء ليحصل الإنفاق، بل لا بد من توفر صفة الكرم والجود أيضا

(و لا يزيده كثرة العطاء إلا جوداً و كرما):

يقسم العلماء الأجلاء، صفات الله سبحانه و تعالى إلى قسمين: صفات الذات و صفات الفعل.[٩٥]

ويقولون بأن صفات الذات هي تلك التي لا نحتاج في نسبتها إلى الله تعالى إلا إلى تصور الذات الإلهية المقدسة فحسب. ويقول الشيخ الكليني أعلى الله مقامه: أنها تلك التي لا يصح سلبها عنه سبحانه مطلقا.

---

[٩٣] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري (١٠٨٩) و (١٠٨٨) ص٢٧٥
[٩٤] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري (٦٧٣) و (٦٧٤) ص١٧١
[٩٥] راجع كتاب مفاهيم القرآن – جعفر السبحاني ج٦ ص٥٥-٥٧

فمثلا صفة (الحياة) أو صفة (الوجود) يمكن وصف الذات الإلهية المقدسة بهما من دون النظر إلى شئ آخر، فنقول أنه سبحانه حي موجود، بغض النظر عن أي شئ آخر. ثم إنه لا يمكننا أن نقول أنه سبحانه غير حي أو أنه تعالى غير موجود، في أي حال من الأحوال أبدا.

و في مقابل هذه تأتي صفات الفعل، والتي هي مفاهيم ينتزعها العقل، من خلال النظر إلى الذات المقدسة، وإلى الآثار الواقعية لتلك الذات المقدسة، فينسب إليه تعالى بعض الصفات.

و صفات الفعل هذه يمكن سلبها عن اللّه سبحانه كما يقول الشيخ الكليني رضوان اللّه عليه، فنقول - مثلا - بأن اللّه سبحانه لا يخلق الشر.

فمثلا: صفة (الرحمة و الكرم) ينتزعهما العقل من خلال مشاهدته لآثار رحمة اللّه سبحانه في الخلق، و من خلال سبوغ نعمائه و آلائه على الخلق.

وقد رأينا هذا المعنى في مستهل هذا الدعاء الشريف، عند قراءتنا لقوله (ع): (وأيقنت أنك أنت أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة...) فتبين لنا أن الإمام (ع) موقن بأن اللّه تعالى رحيم غاية الرحمة ولكن عندما يقتضي الحال ذلك، وأنه شديد النقمة إذا ما اقتضت الحكمة ذلك. فهو سبحانه إذن ليس رحيما و ليس كريما في غير مواضع الرحمة و الكرم.

فمن حيث أن (الكرم) و (الجود)، من صفات الفعل فهما يزيدان تجليا و ظهورا بالممارسة، فكلما زاد العطاء و الإنفاق، اتصف المعطي و المنفق بالجود أكثر فأكثر.

(إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْوَهَّابُ):

وهنا يأتي الإمام عليه السلام على بيان السبب الحقيقي الكامن وراء الكرم و الجود.

لا بد من توفر صفتين في النفس ليتحقق الجود و الكرم: الأولى هي صفة (العزيز). و الثانية هي صفة (الوهاب).

و كما قلنا قبل قليل، فإن مجرد التملك للمال الكثير، لا يكفي لتحقق الجود و الكرم، فاللّه تعالى يقول في قرآنه الكريم ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا﴾(الإسراء/١٠٠).

إذن ينبغي أن لا تكون النفس قتورة، خاضعة لشهوة حب المال، وإلا فإنها و لو ملكت خزائن لا تفنى، لما زادها ذلك إلا شحا و بخلا.

فاللّه سبحانه وتعالى هو (العزيز) الذي قهر الأشياء كلها، وهو الذي وضعت له الملوك نير المذلة على أعناقها، حاشا له أن يأسره تعلق بشئ أبدا.

والعزة كما يقول العسكري في فروقه، تتضمن معنى الغلبة والإمتناع.[٩٦]
ويقول ابن منظور أن (العزيز) من صفات اللّه عز وجل وأسمائه الحسنى، قال الزجاج: هو الممتنع فلا يغلبه شئ[٩٧] وهو الذي لا يعادله شئ والغالب الذي لا يغلب كما يقول الطريحي.[٩٨]
ثم إنه تعالى إذ كان (عزيزا) فهو (الوهاب) أي أنه سبحانه المنعم المتفضل على خلقه، الذي يعطي عباده تمليكا، من غير يأخذ سبحانه منهم عوضا على نعمائه.
يقول العسكري في الفرق بين الإعطاء والهبة: أن الهبة تقتضي الاعطاء على نحو التمليك فإذا وهبته له فقد ملكته إياه.[٩٩] ويقول في الفرق بين المنحة والهبة: أن الهبة عطية منفعة تتفضل بها على صاحبك.[١٠٠]
ويقول في الفرق بين الهدية والهبة: أن الهدية ما يتقرب به المهدي إلى المهدى إليه وليس كذلك الهبة ولهذا لا يجوز أن يقال إن اللّه يهدي إلى العبد كما يقال إنه يهب له و قال تعالى ﴿فهب لي من لدنك وليا﴾(مريم/٥) [١٠١]
و قد وردت كلمة (الوهاب) صفة للّه تعالى في القرآن الكريم ثلاث مرات، منها قوله تعالى ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهّابِ﴾(ص/٩).

---

[٩٦] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (١٤٣٥) ص ٣٥٥
[٩٧] لسان العرب - ابن منظور - ج ٥ - ص ٣٧٤
[٩٨] مجمع البحرين - الشيخ الطريحي - ج ٣ - ص ١٧٣
[٩٩] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (٢٢٨)ص ٥٩
[١٠٠] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (٢٠٨٥) ص ٥١٥ - ٥١٦
[١٠١] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (٢٢٤٥) ص ٥٥٥

الفصل السادس / ومن تلك الأسماء الحسنى التي تفيض عطاء وخيرا و رحمة على العالمين: (الغني) ولذا فإن الإمام (ع) يمهد للمسألة العظيمة مؤكدا في مقارناته التي يعقدها على غنى الرب و فقر العبد.

وفي هذا الفصل نرى الإمام (عليه السلام) يختط في تضرعه إلى اللّه تعالى واستجدائه رحمته تبارك اسمه، مسيرا من نوع مختلف.

فهو عليه السلام ينطلق من وصفه للّه تعالى بقوله (إنك أنت العزيز الوهاب) ليعقد شيئا من المقارنة بين ذلك الرب العزيز الوهاب، وهذا العبد الفقير الخاطئ المقصر.

مؤكدا (ع) بلسان الضارع المتوسل المستكين، أن اللّه تعالى لا يرد عبده السائل خائبا أبدا.

(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ قَلِيلا مِنْ كَثِيرٍ):

يمهد الإمام (ع) لإلقاء مسألته العظيمة، فيوفر كل عناصر الاستجداء الموصل إلى الاستجابة من قبل المسؤول.

و أول هذه العناصر أنه (ع) يصرح بأنه سائل يطرق باب اللّه تعالى، ثم يبين أن هذا السائل لا يريد إلا شيئا قليلا.

هذا لا يعني أن الإمام (ع) يستقل ما يطلبه، كيف ذلك وهو يصرح فيما يأتي من الدعاء (وهو عندي كثير) ؟!

إنما هو يطلب شيئا إذا ما قيس بما عند اللّه تعالى لكان قليلا من كثير.

الإمام (ع) يعلم يقينا أن كل ما عندنا فهو من اللّه تعالى، وأنه لا سبيل إلى الحصول على شئ من غيره سبحانه.

وهذا يعني أن الإمام (ع) يسأل اللّه كل ما يريده، ولكنه في الوقت نفسه، يعرف بأن كل ما يريده، ليس إلا قليلا في ملك اللّه تعالى، فهو (ع) إنما يصف كل ما يريده من اللّه سبحانه، بأنه قليل.

وهنا قد تتبادر إلى الذهن شبهة، بأن هذا الكلام يعني أن اللّه تعالى لا يعطي الكثير مما عنده، وهذه ليست من خصال الجود و الكرم، ولا من فعال العزيز الوهاب.!!

فنقول في رد هذه الشبهة: نعم صحيح أن اللّه تعالى لا يعطي الكثير من ملكه لأحد من خلقه، ولكن ذلك ليس إلا لأن كل ما تستطيع الخلائق أن تحوزه من عطاء اللّه سبحانه، لا يعدو أن يكون قليلا من كثير ملكه تعالى.

وبعبارة أوضح: إن قابلية المخلوقات كلها في استيعاب عطاء الله وكرمه، و لو اجتمعت، لا تتجاوز حدا معينا، تفرضه عليها ماهياتها، و هذا الحد ليس إلا قليلا من كثير ما عند الله تعالى.

و في هذا المعنى نقرأ قوله عز و جل ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(النحل/٩٦) وقوله سبحانه ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. مَا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(لقمان/٢٧ - ٢٨).

(مَعَ حَاجَةٍ بِي إِلَيْهِ عَظِيمَةٍ):

و العنصر الثاني هو أنه تصريح الإمام (ع) بأنه محتاج، وأن به فاقة، فهو سائل محتاج يطرق باب كرم الله و رحمته.

وهذا الذي يطلبه الإمام (ع) من ربه الكريم، مع أنه قليل من كثير، إلا أنه يسد حاجة عظيمة عند الإنسان، فسبحان الله ما أعظمه.

(و غِناكَ عَنْهُ قَدِيمٌ):

و العنصر الثالث هو أن الله تعالى غني بذاته، فطلبة الإمام (ع) هذه، التي به إليها حاجة عظيمة، ليست عند الله تعالى شيئا يذكر، فهو سبحانه غني عن كل شئ منذ الأزل

و هذا عنصر يضاف إلى تلك العناصر التي حشدها الإمام (ع) في استجدائه و تضرعه إلى الله سبحانه و تعالى في قضاء حاجته.

و (الغني) هو الذي لا يحتاج إلى غيره، و هي صفة في الله تعالى على وجه الحقيقة والإطلاق، لأنه سبحانه واجب الوجود، و كما تقرر في محله، فإن واجب الوجود واجب من جميع الجهات[١٠٢] فلا يفتقر في شئ إلى غيره أبدا.

و قد ورد هذا المعنى على أروع صوره و في أبهى حلله في دعاء الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عرفة، إذ يقول سلام الله عليه (إلهي أنت الغني بذاتك أن يصل إليك النفع منك فكيف لا تكون غنيا عني).

---

[١٠٢] نهاية الحكمة – العلامة الطباطبائي ص٧٠

(وَ هُوَ عِنْدِي كَثِيرٌ):
وفي هذا تأكيد على أن ذلك الشئ الذي يطلبه الإمام (ع) من ربه تعالى، ليس أمرا تافها، أو شيئا قليلا، بل هو كثير كبير، لأنه شئ لا يمكن الإستغناء عنه، إذ أن الحاجة إليه عظيمة.
وهذا هو العنصر الرابع في استجداء الإمام (ع) وتضرعه بين يدي ربه الكريم.

(وَهُوَ عَلَيْكَ سَهْلٌ يَسِيرٌ):
ثم إن هذا الشئ المطلوب، الذي هو كثير عند الإمام (ع)، ليس بالأمر العسير على اللهّ تعالى، بل هو عليه سبحانه سهل يسير.
و إذ قد يتوهم من لا عقل له، أن الشئ إذا كان بهذا الحجم الكثير الكبير، فإن تحقيقه يكون أصعب و أشق !!
ولذا نجد الإمام (ع) يبادر إلى دفع هذا الوهم، فيقول بأن هذا الطلب على أنه كبير و كثير، إلا أنه على اللهّ تعالى سهل يسير، إذ لا فرق عنده سبحانه بين الأمور، فكلها عليه سهل يسير، وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.
وهذا هو العنصر الخامس الذي يقدمه الإمام (ع) بين يدي دعائه و تضرعه إلى اللهّ تعالى.

(اللّهُمَّ إِنَّ عَفْوَكَ عَنْ ذَنْبِي):
و مرة أخرى و بنفس جديد في التضرع و الدعاء، يعقد الإمام (ع) مقارنات سريعة بين كرم اللهّ تعالى و رحمته، و بين ذلة العبد و لؤمه.
معتبرا جانب العظمة في اللهّ تعالى مسوغا لإلحاحه (ع) في الدعاء و تفننه في الطلب والاستجداء منه سبحانه و تعالى
العبد يرتكب الذنب، فيقابله الرب تعالى بالعفو، فيمحو عنه العقاب.
وحيث أن الذنب ملحوظ فيه العقاب و هو الأثر التكليفي الذي يتبع صاحبه، كما أن العفو هو محو الأثر، فقد ناسبه التعبير بالعفو عن الذنب أي محو العقاب عن صاحبه.

(وَ تَجاوُزَكَ عَنْ خَطِيئَتِي):
و العبد يأتي بالخطيئة، ويتلوث بها، فيتجاوز اللهّ تعالى عنه، ولا يوقفه للحساب عليها.

وحيث أن الخطيئة هي إساءة العبد تجاه ربه الكريم كما يقول أرباب اللغة[١٠٣] فقد ناسبه التجاوز و عدم الوقوف عنده، من قبل الله تعالى بكرمه و لطفه.

(وَ صَفْحَكَ عَنْ ظُلْمِي):

والعبد يمارس الظلم، بأبشع أشكاله و صوره، فلا يرى من اللّه تعالى إلا الصفح و الإعراض.

فكأن اللّه تعالى يعرض عن العبد المتلبس بالظلم و العدوان، فلا يطالبه و لا يؤاخذه

(وَ سَتْرَكَ عَلَى قَبِيحِ عَمَلِي):

والعبد يباشر قبائح الأعمال، والرب الكريم يستر عليه أن لا يراه أحد من خلقه فيعيره، بل و إنه سبحانه يستر عليه، حتى كأن ذلك العبد لم يفعل شيئا قبيحا.

وحيث أن القبيح ذميم المنظر، سئ الصورة والهيكل، يجرح النظر، و يخدش البصر لا يرغب أحد في أن ينظر إليه أو أن يرى منه، فقد ناسب في العفو عنه التعبير بالستر.

(وَ حِلْمَكَ عَنْ كَثِيرِ جُرْمِي):

والعبد يرتكب الجرائم الكثيرة، فيعامله اللّه تعالى بحلمه، فلا يعجل عليه العذاب.

و إذ كان الجرم هو الفعل القبيح الذي ينقطع به الإنسان عن أداء الواجب[١٠٤]، وكان الحلم بمعنى الإمهال، و لا يكون إلا عن المستحق للعقاب[١٠٥]، فقد ناسب في التعبير عن العفو عن الجرم بالحلم.

(عِنْدَما كانَ مِنْ خَطَأي وَعَمْدِي):

كل هذه الصور والأشكال من التعدي على شرع اللّه تعالى وانتهاك محارمه سبحانه، يرتكبها الإنسان، سواء عن عمد و قصد و سوء نية وسابق اصرار و ترصد، أم بسبب جهله و غفلته، فلا يجد من المولى تعالى إلا العفو و الغفران والصفح و الإحسان.

---

١٠٣ الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (٨٥٨) ص٢٢١ - ٢٢٢

١٠٤ الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (٩٥٩) ص ٢٤٤

١٠٥ الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (٧٨٦) ص ١٩٧

(أَطْمَعَنِي فِي أَنْ أَسْأَلَكَ ما لا اسْتَوْجِبُهُ مِنْكَ):

إن هذه الكرامة و هذا اللطف الإلهي و هذه الرحمة الربانية هي التي تسوغ لهذا الإنسان المتلوث بذنوبه وخطاياه وآثامه، أن يقرع باب الملك الجبار، العزيز الغفار، ليسأله ما لم يعمل شيئا في سبيل استحقاقه على اللهّ تعالى.

بل هي التي تدفعه طمعا أن يطلب من اللهّ تعالى ما لا يستوجبه عليه.

(الَّذِي رَزَقْتَنِي مِنْ رَحْمَتِكَ):

وفي غمرة هذا الكرم الإلهي العظيم، يستعرض الإمام (عليه السلام) مواقف أخرى من فيض الرحمة الإلهية سبقت وتكررت فشملت حياة الإنسان في ماضيه وحاضره و مستقبله.

فكأن الإمام (ع) يقول مخاطبا ربه الكريم: إلهي ما هذه أول مرة أحاطت بي رحمتك وغشيني كرمك، و أرخى علي سترك... فلطالما عودتني على ذلك يا إلهي بلطفك و رحمتك.

(وَأَرَيْتَنِي مِنْ قُدْرَتِكَ):

و كم من مرة، لا أحصيها عددا، شاهدت فيها عظيم قدرتك، تكشف بها عني الكرب و تبعد عني الأهوال، و تفك عني حلق البلاء.

(وَعَرَّفْتَنِي مِنْ إِجابَتِكَ):

و لكم سألتك يا سيدي، متوسلا راجيا، ملتمسا فضلك و نوالك، فعرفت منك الإجابة، و رأيت عطاءك بأم عيني، و عرفته بقلبي و وعيته بعقلي و كل جوارحي.

هكذا أنت يا إلهي و ربي و مولاي، عادتك الإحسان إلى المسيئين وسبيلك الإبقاء على المعتدين، تتحبب إلينا بآلائك و نعمائك، فسبحانك سبحانك ما أعظم شأنك

(فَصِرْتُ أَدْعُوكَ آمِناً):

أفهل بعد ما رأيت من جميل كرمك يا إلهي و لمست من عظيم رحمتك، يمكنني أن أجفو دعاءك، و أغفل عن طرق بابك، خشية أن تعاملني بما أستحق من العقاب و العذاب، على سوء ما قدمت من قبيح عملي و كثير جرمي.. حاشا لوجهك الكريم أن تقابلني بذلك.

إن النتيجة الطبيعية الأكيدة، لتلك المقدمة القطعية الجازمة، هي إقبال العبد على ربه الكريم داعيا إياه، طارقا بابه، و هو على يقين بأنه تعالى جميل العفو، واسع المغفرة كريم الصفح، حسن التجاوز.. وهذا هو الأمن الذي يتحدث عنه الإمام (ع).

(وَ أسْأَلُكَ مُسْتَأْنِساً):

نعم، إن الداعي بين يدي اللّه تعالى، لا يشعر بالخوف من أن يتعرض لنقمة اللّه سبحانه.

بل وإنه يستأنس بالسؤال والتضرع إلى اللّه تعالى، فهو يرى حوائجه مقضية، و أمانيه محققة، و مطالبه مجابة.

لأنه يعلم أنه يسأل ربا كريما، لا يرد سائله، و لا ينقص نائله و لا يخيب آمله،

(لاخائِفاً وَ لا وَجِلاً):

إن المؤمن العارف باللّه لا يستشعر في المثول بين يدي اللّه تعالى خوفا و لا وجلا، بل هو يغرق في بحور الأمن و الأنس باللّه سبحانه وتعالى.

وفي تعريف الخوف يقول العسكري نقلا عن الشيخ الطوسي رضوان اللّه عليه: أن الخوف عند أرباب القلوب، هو تألم النفس من العقاب المتوقع بسبب ارتكاب المنهيات و التقصير في الطاعات.[١٠٦]

ويقول في الفرق بين الخوف والوجل: أن الخوف خلاف الطمأنينة، وجل الرجل إذا قلق و لم يطمئن، و في القرآن ﴿الذين إذا ذكر اللّه وجلت قلوبهم﴾ أي إذا ذكرت عظمة اللّه و قدرته، لم تطمئن قلوبهم إلى ما قدموه من الطاعة، و ظنوا أنهم مقصرون فاضطربوا من ذلك و قلقوا.[١٠٧]

و هنا تدرج في التعبير، إذ يبدأ الإمام (ع) بذكر الحالة الأشد، التي هي الخوف من العقاب، المبني على العلم بارتكاب الذنوب و المعاصي، ثم يأتي على ذكر الوجل والاضطراب النفسي، الناشئ من الظن بالتقصير في الطاعة.

و بهذا التدرج يقول الإمام (ع) أنه ليس الخوف الذي هو الحالة الشديدة هو المنفي فقط بل وحتى الوجل الذي هو أخف منه، أيضا منفي في حالة حالة المثول بين يدي اللّه تعالى.

---

[١٠٦] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (٨٥٠) ص ٢١٨

[١٠٧] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (٨٨٨) ص ٢٢٧

فهو (ع) ينفي مطلق الخوف و القلق عن الإنسان المتلبس بحالة الدعاء و التضرع إلى اللّه تعالى، ذلك أن من يدخل الحضرة الإلهية المقدسة، لا ينعم إلا بالأنس والأمان.

فإن قيل: أن اللّه تعالى قد مدح خاصة عباده بقوله سبحانه ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(الأنفال/٢) فكيف ينفي الإمام (ع) حالة الوجل عن المؤمن المتضرع إلى اللّه تعالى، في حين أن وجل القلب عند ذكر اللّه عز و جل من علامات الإيمان، كما تقرره هذه الآية الشريفة ؟

قلنا: بأن هذا الوجل الذي تذكره الأية المباركة هو أول طريق الإيمان، ولذلك تعقب الآية نفسها بعد ذكر الوجل، فتقول ﴿وإذا تليت عليهم لآياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي أنهم في المرتبة اللاحقة، يكتمل إيمانهم، و يرتقون في معرفة اللّه سبحانه، حتى يصلوا إلى درجة التوكل والتسليم المطلق للّه تعالى، و عندها لا يبقى للخوف والوجل مكان في قلوبهم.

وهذا المعنى يذكره العلامة الطباطبائي رضوان اللّه عليه في تفسيره لهذه الآية المباركة.[١٠٨]

بل وإن العلامة يفصل في الإجابة على هذا السؤال فيقول:

ومن ذلك يظهر أن قوله ﴿وتطمئن قلوبهم بذكر اللّه﴾ عطف تفسيري على قوله آمنوا فالايمان باللّه يلازم اطمئنان القلب بذكر اللّه تعالى.

ولا ينافي ذلك ما في قوله تعالى ﴿انما المؤمنون الذين إذا ذكر اللّه وجلت قلوبهم﴾(الأنفال/٢) فان الوجل المذكور فيه حالة قلبية متقدمة على الاطمئنان المذكور في الآية المبحوث عنها كما يرشد إليه قوله تعالى ﴿اللّه نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر اللّه ذلك هدى اللّه يهدى به من يشاء﴾(الزمر/٢٣)

و إذا كان الخوف و الخشية إنما هو من شر متوقع، ولا شر عنده سبحانه، فحقيقة الخوف من اللّه هي خوف الانسان من أعماله السيئة، التي توجب إمساك الرحمة وانقطاع الخير المفاض من عنده سبحانه، والنفس الانسانية إذا قرعت بذكر اللّه سبحانه، التفتت أولا إلى ما أحاطت بها من سمات القصور و التقصير فأخذتها

---

[١٠٨] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٩ - ص ١١

القشعريرة في الجلد و الوجل في القلب، ثم التفتت ثانيا إلى ربها الذي هو غاية طلبة فطرتها فسكنت إليه واطمأنت بذكره.[١٠٩]

(مُدِلاً عَلَيْكَ فِيما قَصَدْتُ فِيهِ إِلَيْكَ):

فإذا اطمأن الداعي من محبة اللّه تعالى له، و استأنس بكرمه و لطفه، انبسط في الدعاء، و ألح في المسألة.

هذا ما يعطينا إياه معنى كلمة (مدلا) إذ يقول ابن منظور: (دلل) أدل عليه وتدلل: انبسط. وقال ابن دريد: أدل عليه وثق بمحبته فأفرط عليه . و في الحديث: يمشي على الصراط مدلا أي منبسطا لا خوف عليه.

و هو من الإدلال والدالة على من لك عنده منزلة. و الدالة: ما تدل به على حميمك يقول أبو الهيثم: لفلان عليك دالة وتدلل وإدلال. وفلان يدل عليك بصحبته، أي يجترئ عليك.[١١٠]

(فَإِنْ أَبْطَأَ عَنِّي عَتِبْتُ بِجَهْلِي عَلَيْكَ):

ومن هذا الدلال الذي يمارسه الداعي الواثق من رحمة اللّه سبحانه، في محضر ربه الكريم، أنه إذا لم يجد أثر الاستجابة لدعائه، تجرأ على ربه بالعتاب و الملامة.

وما هذا العتاب والملامة إلا بسبب الجهل بحقيقة كرم اللّه تعالى و لطفه و رحمته.

فالمدل على اللّه تعالى في الدعاء، وإن كان قد بلغ مرتبة من المعرفة باللّه سبحانه، تجعله مطمئنا إلى كرمه و رحمته، إلا أنه يبقى موصوفا بقوله تعالى ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(الإسراء/٨٥) فهو على جهل بالذروة السامقة التي فيها صفات اللّه العليا و أسماؤه الحسنى.

و هذا الجهل هو المدخل الذي ينفذ منه الشيطان الرجيم، إلى قلب الإنسان، ليوسوس له، فيقنطه من ربه الكريم.

(وَلَعَلَّ الَّذِي أَبْطَأَ عَنِّي هُوَ خَيْرٌ لِي):

و هنا يكشف الإمام (ع) اللثام عن ذلك الجهل، الذي يدعو العبد إلى عتاب ربه، لمجرد تأخر الإجابة لدعائه.

---

[١٠٩] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ١١ - ص ٣٥٤- ٣٥٥

[١١٠] لسان العرب - ابن منظور - ج ١١ - ص ٢٤٧

فالحياة أوسع و أكبر بكثير من أن يحيط بها علم الإنسان، بل إنه لا يعلم حتى ما ينفعه و ما يضره في كثير من الأمور التي يتعاطاها، فنراه يجلب الضر لنفسه و هو لا يدري، ويضيع المنفعة، و هو لا يدري، وقد قرأنا هذا المعنى في مستهل هذا الدعاء الشريف، عند قوله (ع) (وأنت مسدد للصواب بمنك).

فكم من مرة يطلب الإنسان شيئا، ويسعى إلى الحصول عليه، ثم لا يلبث أن يعلم، و قد لا يعلم، أنه كان شرا له، والقرآن المجيد يحدثنا عن أبوين كانا يسألان اللّه تعالى أن يهبهما ولدا، و ألحا في الدعاء، وقدما بين يدي دعائهما عهدا و نذرا نذرا، يقول سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الأعراف/١٩٠)، فكانت هذه عاقبتهما أنهما أشركا باللّه سبحانه فحسبهما جهنم وبئس المصير.

(لعلمك بعاقبة الأمور):

فهذا التأخر في إجابة الدعاء ليس إلا شاهدا و مؤكدا على كثير رحمة اللّه و عظيم كرمه سبحانه، لأن اللّه سبحانه هو الذي يعلم مصالح العباد، فما كان فيه صلاحهم أجابهم إليه، و ما كان فيه ضررهم لم يجبهم إليه ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(الملك/١٤).

الفصل السابع / و يستمر الإمام (ع) في دعائه على نفس النهج من المقارنة بين الرب العزيز الوهاب، والعبد الذليل الفقير المذنب.. ولكن التجلي في هذا الشوط، يكون للحلم الإلهي العظيم، الذي هو تجل لعظيم كرم اللّه تعالى.
ومن المهدات التي يقدمه الإمام (ع) بين يدي دعائه وتضرعه إلى اللّه تعالى، طلبا لحاجته العظيمة، الإشهاد على إيمانه الصادق بأن اللّه تعالى هو الكريم، الذي لا يصدر عنه إلا كل محمود من الفعال.
وهذه المعرفة من الداعي بكرم اللّه تعالى، تجعله مدلا عليه سبحانه، في الطلب و المسألة.

(فَلَمْ أَرَ مَوْلىً كَرِيماً أَصْبَرَ عَلى عَبْدٍ لَئِيمٍ مِنْكَ عَلَيَّ):

إن أول شئ يقرره الإمام عليه السلام هنا هو أن اللّه سبحانه هو مولاه.
وكلمة (مولى) في اللغة العربية على معان عدة، كما تقول معاجم اللغة، و ما يناسب منها المقام هو (السيد).
فالإمام (ع) يصور لنا مشهدا فيه سيد يصبر على ما يلاقيه من عبده من عقوق وسوء أدب، فلا يكون هذا السيد إلا كريما، كم لا يكون هذا العبد إلا لئيما.
لأن الكرم هو الذي يدفع هذا السيد إلى الصبر و التجاوز عن ذلك العبد السئ، ولأن اللؤم هو الذي ينطلق منه ذلك العبد في سوء خلقه تجاه سيده، فكل إناء بالذي فيه ينضح، و كل يعمل على شاكلته.
و تتفق كتب اللغة العربية على أن اللئيم هو الدنئ الأصل الشحيح النفس.[111]
ويقول العسكري أن اللئيم هو الذي يجمع الشح و مهانة النفس و دناءة الآباء.[112]
في حين أن الكرم هنا يعني الشرف[113] فهو ما يضاد اللؤم كما يقول الجوهري.
إن التعبير الوارد في هذه الفقرة من الدعاء الشريف، يوحي بعظم إساءة ذلك العبد و تكرر العقوق والعصيان منه، مما دفع بالإمام إلى وصفه باللئيم، و وصف السيد بالكريم، فكأن حجم ذلك العصيان و الإساءة هو حجم الفارق بين اللؤم و الكرم، و لا شك في أن البون بينهما شاسع جدا.

---

[111] الصحاح - الجوهري - ج ٥ - ص ٢٠٢٥
[112] كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج ٥ - ص ٣٦٨
[113] الصحاح - الجوهري - ج ٥ - ص ٢٠١٩

(ياربِّ إنّكَ تدْعُوني فأُولّي عنْكَ):

ولكي تتضح لنا الصورة أكثر، يشرع الإمام (ع) في تفصيل ذلك العقوق و تلك الإساءة من ذلك العبد اللئيم.

و لأول مرة في هذا الدعاء الشريف، يخاطب الإمام (ع) اللّه تعالى باسم (الرب)، وإن كان سيتكرر ذلك في ما يلي من الدعاء الشريف، فما هو المغزى في ذلك ؟

إن كلمة (رب) تعني المالك و الحاضن و المصلح و المدبر[١١٤] ويقول العسكري في فروقه اللغوية أن الصفة بـ (رب) أفخم من الصفة بـ (مالك)، لأنها من تحقيق القدرة على تدبير ما ملك، فقولنا (رب) يتضمن معنى الملك و التدبير، فلا يكون إلا مطاعا أيضا.[١١٥]

و قد أكثر القرآن المجيد من وصف اللّه سبحانه وتعالى بصفة (الرب) حتى كادت الآيات الواردة بهذا الوصف الكريم، لا تعد و لا تستقصى.

و من اللافت للنظر أن أول سورة في المصحف الشريف وهي أم الكتاب تستهل بهذا اللإسم المبارك، فتقول (الحمد للّه رب العالمين) كما أن آخر سورة من المصحف الشريف أيضا تستهل به فتقول (قل أعوذ برب الناس).

ونحن عندما نتدبر في الآيات الكريمة التي تصف اللّه سبحانه بصفة الرب، ونتأمل في سياقها الذي وردت فيه، نلمس بشكل واضح صريح، نفسا من الرحمة والقرب والحميمية وكأنها تقول لنا أن اللّه تعالى الذي هو في علو كبريائه وجلاله وبهائه، هو هذا الرب القريب منك أيها الإنسان والمشفق عليك والمحيط بك.

وقد صرحت القرآن الكريم بهذا المعنى، إذ يقول سبحانه وتعالى (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي)(البقرة/١٨٦).

و تتميما للفائدة نورد بعض الآيات الكريمة التي تشتمل على كلمة (الرب) وصفا للّه سبحانه:

(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)(البقرة/٣٧).

(بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ)(البقرة/١١٢).

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)(البقرة/١٢٤).

---

[١١٤] كتاب العين - الفراهيدي ج٨ ص٢٥٦ و الصحاح - الجوهري ج١ ص١٣٠

[١١٥] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (٩٧٥) ص ٢٤٧

﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(البقرة/١٥٦-١٥٧).

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(البقرة/٢٠١).

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة/٢٥٠).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(البقرة/٢٦٠).

﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة/٢٧٤)

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(البقرة/٢٨٥).

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة/٢٨٦).

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ. فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(آل عمران٣٥-٣٧).

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ. فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(آل عمران٣٨-٤٠).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾(المائدة/٢٥).

{ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا. إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا. قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا}(مريم/٢-٤).

{قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}(النمل/٤٤).

{فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}(القصص/٢٤).

{قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ}(هود/٤٧).

{وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}(الأنبياء/٨٣).

ليست هذه إلا قليلا من كثير من الآيات الشريفة، التي تشعرنا بواسع رحمة الله تعالى و عظيم كرمه و سبوغ نعمائه، و شديد قربه من عباده و حبه لهم.

وفي هذه الفقرة يشير الإمام (ع) إلى قوله تعالى {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}(غافر/٦٠) و قوله سبحانه {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ}(الحديد/١١) و إلى مثل قوله (ص): (إن الله تبارك وتعالى ينزل ملكا إلى السماء الدنيا كل ليلة في الثلث الاخير، وليلة الجمعة في أول الليل فيأمره فينادي: هل من سائل فأعطيه، هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له)[116]

ولكن هذا العبد الآبق المتمرد، يولي دبره لله تعالى، مستهينا بدعوته، مستكبرا عن عبادة رب العزة و الجلال، حتى أن نبي الله نوح (ع) بعد أن لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعو قومه إلى الله تعالى ويبلغهم رسالته، فما آمن معه إلا قليل، فرفع أكف الدعاء إلى الله معتذرا إلى ربه شاكيا إعراض قومه، و القرآن الكريم يحكي لنا ذلك بأسلوب في غاية التأثير، حتى و كأننا نعيش في ذلك الجو {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِي. يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا. فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا. وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا. ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا. ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا. فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا. يُرْسِلِ

---

[116] بحار الأنوار – المجلسي ج٣ ص٣١٤

السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا. مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا)(نوح/١-١٣) ولكن لم تنفعهم الموعظة، ولا لانت قلوبهم إلى ذكر الله تعالى وما نزل من الحق، بل تمادوا في عصيانهم وإعراضهم عن الله سبحانه (قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلاَّ خَسَارًا. وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا. وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا. وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلاَ تَزِدْ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلاَلاً)(نوح/٢١- ٢٤).

و كذلك كان حال كليم الله موسى (ع) مع قومه، إذ جاءهم بالبينات من ربهم، وأراهم آياته، وأنجاهم من عذاب فرعون إذ كان يذبح أبناءهم و يستحيي نساءهم و في ذلك بلاء عظيم، إلا أن بني إسرائيل كانوا يرتكسون في وحل المادية وعبادة الشهوات، مرة تلو المرة، فعبدوا العجل الذي أخرجه لهم السامري، و طلبوا من نبيهم موسى (ع) أن يجعل لهم إلها كما للمشركين آلهة، وإذ قالوا لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، مستبدلين الذي هو أدنى بالذي هو خير.

وقد تعمد القرآن الكريم أن يتناول قصة بني إسرائيل في أكثر من سورة، فيعرض علينا مواقف من سيرتهم، من مختلف الزوايا و الجهات، لنأخذ من قصصهم دروسا و عبرا، تنفعنا في مسيرتنا.

(وَتَتَحَبَّبُ إِلَيَّ فَأَتَبَغَّضُ إِلَيْكَ):

سبحان الله ما أعظمه و أكرمه و أرحمه.. فهو الذي هو في السماء إله و في الأرض إله، و هو الذي يسبح الرعد من خيفته و السماوات في قبضته، ولكنه هو الذي يبادر عبده بالمحبة، و يجذبه إليه بالكرامة والإحسان، و يستميله إليه سبحانه باللطف و الرحمة.

و في المقابل، هذا العبد الذليل الذي كان أول خلقه من طين ثم كان في سلالة من ماء مهين، هذا الذي أوله نطفة و آخره جيفة و أوسطه يحمل العذرة، تنتنه العرقة و تقتله الشرقة، و تؤذيه البقة.. يتبغض إلى ربه !!

ألا ما أشد المفارقة بين الطرفين في هذه الصورة، فطرف يتجلى فيه الكرم بكله، و آخر يتجسد فيه اللؤم بكله.

و البناء اللغوي لكلمتي (يتحبب) و (يتبغض) على صيغة (يتفعل) التي تدل على تحصيل المطلوب شيئا بعد شئ.

و المعنى أن الله تعالى يفعل بكرمه ما يكسب به حب عبده تدرجيا. فهو يبدأ عبده بالخير تفضلا ثم يعيده عليه تجملا. حتى يدخل حبه في قلب عبده.
و هذا المعنى يؤكده القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿وَ لَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾(الحجرات/٧).

(وَتَتَوَدَّدُ إِلَيَّ فَلا أَقْبَلُ مِنْكَ):
من معاني التودد هو التقرب بالمحبة و الإحسان. فهو أخص من معنى الحب. إذ لا يكون إلا من جهة الطباع. أي أن منشأ الحب في المودة هو استحسان الطباع وملاءمتها بين الطرفين. و لذا يقال: أحب الصلاة. و لا يقال أود الصلاة. بينما يقال أحب فلانا. كما يقال أوده.[117]

(كَانَ لِيَ التَّطَوُّلُ عَلَيْكَ):
طرف يدعو و الآخر يولي عنه. طرف يتحبب. و الآخر يتبغض إليه. طرف يتودد و الآخر لا يقبل منه... كل هذا يوهم بأن لهذا الآخر الحق كله. فهو صاحب اليد العليا و هو المتفضل بمنه و خيره[118] و الغالب بقدرته !!
ولكن الحقيقة على عكس هذا الوهم تماما. فالطرف الآخر ليس إلا عبدا ذليلا حقيرا فقيرا.. لا يملك من أمره شيئا. بينما الطرف الأول هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار..
و ما هذا السلوك من هذا العبد تجاه ربه. إلا لأن هذا العبد لئيم الأصل. و هذا الرب عظيم المجد.

(فَلَمْ يَمْنَعْكَ ذلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ لِي):
فالفضل والطول إنما هو لله سبحانه و تعالى. على الخلائق جميعا. و حتى على هذا العبد الآبق المتمرد اللئيم.
و حاشا لله تعالى أن يعذب أحدا من عباده يدعوه و يتضرع إليه ويستغفره. حتى و إن أساء واجترأ على مولاه. فيمنعه رحمته. أو يصرف عنه نظره. لأنه سبحانه لو فعل

---

[117] راجع الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري (٦٨٦) ص ١٧٤ و تاج العروس - الزبيدي - ج ٥ - ص ٣٠٧
[118] كتاب العين – الفراهيدي ج٧ص٤٥٠و الصحاح – الجوهري ج٥ص ١٧٥٥

ذلك لساخت الأرض بذلك العبد و انعدم وجوده ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(الأنفال/٣٣).

إن هذه الرحمة الإلهية هي التي تحفظ الكون بما فيه من كائنات حية و جامدة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَانُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾(الملك/١٩) ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحج/٦٥).

(وَالإحْسانِ إِلَيَّ):

بل إن كرم المولى تبارك و تعالى يسمو و يعلو، فلا يقف عند حد عدم منع عبده اللئيم من رحمته، بل يطول ليصل الإحسان إليهم.

والإحسان كما يقول العسكري في فروقه اللغوية، هو إعطاء المنفعة الحسنة، و يكون الإحسان واجبا، كما يقول اللّه تعالى ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾(الرحمن/٦٠) كما قد يكون لا يكون واجبا، كأن يكون ابتدائيا.[١١٩]

(وَالتَّفَضُّلِ عَلَيَّ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ):

بل و يزداد كرمه سبحانه علوا و جلالا، فإذا به، تباركت آلاؤه وعظمت نعماؤه، يسبغ تلك النعم، حتى على اللئام من عباده، و يمطرهم بوابل رحمته و جوده.

و يقول العسكري: أن الاحسان قد يكون واجبا وغير واجب، والفضل لا يكون واجبا على أحد و إنما هو ما يتفضل به من غير سبب يوجبه.[١٢٠]

وقد قلنا فيما سبق أن الجواد هو الذي يعطي بعد السؤال، والكريم هو الذي يعطي قبل السؤال.

وهذا المعنى نجده في الدعاء الذي نعقب به الفرائض في شهر رجب الأصب والمستحب قراءته في كل أوقات هذا الشهر الفضيل، كما ينقل الشيخ القمي طيب اللّه ثراه عن السيد ابن طاووس أعلا اللّه مقامه عن الإمام الصادق عليه السلام (يا من أرجوه لكل خير وآمن سخطه عند كل شر، يا من يعطي الكثير

---

[١١٩] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (٧١) (٧٣) ص٢٣- ٢٤
[١٢٠] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري – (٧٣) ص٢٤

بالقليل، يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه، تحننا منه ورحمة، أعطني بمسألتي إياك....).

(فَارْحَمْ عَبْدَكَ الجاهِلَ):
وإذ كان اللّه سبحانه وتعالى على هذه الصفة من عظيم الكرم، فلا يمنع حتى اللئام من عباده، فيض رحمته ونوال كرمه، فما أجدر بالعبد الجاهل أن يتضرع إليه طلبا لرحمته و عنايته.
إذا كان العبد اللئيم يتمتع بعطاء اللّه، فمن الأولى أن لا يحرم منه العبد الجاهل، الذي إنما يقترف المعاصي، لجهله وضعفه و قلة بصيرته.

(وَجُدْ عَلَيْهِ بِفَضْلِ إِحْسانِكَ):
فهذا العبد الجاهل أليق من ذلك العبد اللئيم، بكرم المولى تبارك وتعالى، و بفضل إحسانه.

(إِنَّكَ جَوادٌ كَرِيمٌ):
ألا إن عطاء اللّه لا يمنع عن أحد أبدا، طائعا كان أم عاصيا، مقبلا كان أم معرضا، داعيا كان أم مستكبرا، لئيما كان أم جاهلا، عارفا باللّه تعالى أم منكرا ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(الإسراء/٢٠).

الفصل الثامن / من أسماء اللّه الحسنى التي هي منشأ كل الخير في الوجود: (مالك الملك).

ذلك أن الجود والسخاء، مهما تعاظم و نمى، فبلغ الذرى، لا يبيح التصرف في مال الغير، إلا بإذنه.

و هذا يعني وجوب اجتماع المالك و المتصرف على تلك الخصال الحميدة، و إلا فإن الجود و السخاء لن يتحقق في العالم الخارجي.

(الحَمْدُ لله مالِكِ المُلْكِ):

وقد ورد وصف اللّه تبارك وتعالى بـ (مالك الملك) مرة واحدة فقط في القرآن الكريم، إذ يقول سبحانه ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(آل عمران٢٦ - ٢٧).

و عند تناول العلامة الطباطبائي قدس سره الشريف هذه الآية المباركة بالتفسير، يتحدث عن لفظين: (مُلك) بضم الميم، و (مِلك) بكسر الميم.

و يقسم (المِلك) - بكسر الميم - إلى نوعين:

النوع الأول / (المِلك) الحقيقي، و يعرفه بأنه مثل البصر و السمع و اليد و سائر القوى التي يمتلكها الإنسان، فهو يقدر على أن يتصرف فيها على النحو الذي يريد مما هو ممكن لمثله من مثلها، كأن ينظر بعينه أو يغمضها أو يحدق بها و ما شابه.

ويرى العلامة أن بين المالك و مِلكه بهذا المعنى رابطة حقيقية غير قابلة للتغير، إلا ببطلان تلك القوى، كأن يصاب الإنسان بالعمى.

ويقرر بأن مِلك اللّه سبحانه و تعالى للكون أيضا هو من هذا القبيل، فله سبحانه أن يتصرف فيما شاء كيفما شاء.

النوع الثاني / (المِلك) الوضعي و الاعتباري، و يعرفه بأنه مثل تصرف الإنسان فيما هو تحت سلطته، بموجب توافق العقلاء على مثل هذه الرابطة الاجتماعية، لغرض تحقيق غايات و أغراض عقلائية، كأن يعين جماعة من الناس أحدهم رئيسا عليهم، يأتمرون بأمره، و ينتهون بنهيه.

وحيث أن هذه الرابطة اعتبارية وليست حقيقية، فإنها قابلة للتغير والتحول، بالفسخ والبيع والهبة و غير ذلك.

وأما (المُلك) - بضم الميم - فهو و إن كان من سنخ (المِلك) إلا أنه مالك لما يملكه جماعة الناس، فإن المليك مالك لما يملكه رعاياه، و له أن يتصرف فيما يملكونه.
واللّه سبحانه مالك كل شئ مُلكا مطلقا، ذلك أن له الربوبية المطلقة و القيمومة المطلقة على كل شئ، فإنه خالق كل شئ، و إله كل شئ، قال تعالى ﴿ذلكم اللّه ربكم خالق كل شئ لا إله إلا هو﴾(المؤمن٦٢) وغيرها من الآيات الدالة على أن كل ما يسمى شيئا، فهو قائم الذات باللّه تعالى مفتقر إليه سبحانه، و هذا هو (المِلك).
و أما أنه سبحانه مليك على الإطلاق، فهو لازم إطلاق كونه مالكا للموجودات، فإن الموجودات أنفسها يملك بعضها بعضا، كالأسباب حيث تملك مسبباتها، والأشياء تملك قواها الفعالة، والقوى الفعالة تملك أفعالها، وإذ كان اللّه سبحانه يملك كل شئ فهو يملك كل من يملك منها شيئا ويملك ما يملكه و هذا هو (المُلك) - بالضم - فهو مليك على الاطلاق.
هذا هو الحقيقي من (المِلك) و (المُلك).
وأما الاعتباري منها، فإنه تعالى مالك، لأنه هو المعطي لكل من يملك شيئا من المال ولو لم يملك لم يصح منه ذلك، و لكان معطيا لما لا يملك لمن لا يملك.
وهو تعالى مليك، يملك ما في أيدي الناس، لأنه شارع حاكم يتصرف بحكمه فيما يملكه الناس، كما يتصرف الملوك فيما عند رعاياهم من المال.
ومن التأمل فيما تقدم يظهر أن قوله تعالى ﴿اللهم مالك الملك﴾ مسوق لبيان مِلكه سبحانه وتعالى - بالكسر - لكل مُلك - بالضم - ومالكية المُلك - بالضم - هو المُلك على المُلك بالضم فيهما، فهو ملك الملوك، الذي هو المعطي لكل مَلك ملّكه، كما قال تبارك و تعالى ﴿أن آتاه اللّه الملك﴾(البقرة٢٥٨) و ﴿وآتيناهم ملكا عظيما﴾(النساء٥٤).[121]

ويقول أعلا اللّه مقامه، في موضع آخر من تفسيره الكبير: قال تعالى ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شئ قدير، الذي خلق الموت والحياة - إلى أن قال - الذي خلق سبع سماوات طباقا﴾(الملك٣).
والآيات تعلل المُلك بالخلق، فكون وجود الأشياء منه، وانتساب الأشياء بوجودها و واقعيتها إليه تعالى، هو الملاك في تحقق مُلكه، و هو بمعنى مِلكه الذي لا يشاركه

---

[121] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٣ - ص ١٢٨ - ١٣١

فيه غيره ولا يزول عنه إلى غيره، ولا يقبل نقلا ولا تفويضا يغنى عنه تعالى و ينصب غيره مقامه.[١٢٢]
وكلمة (مالك) تعني: القادر على التصرف في ماله، و له أن يتصرف فيه على وجه ليس لأحد منعه منه.[١٢٣]

(مُجْرِي الفُلْكِ):

لقد وردت في القرآن الكريم ست آيات مباركات، تتحدث عن قدرة اللّه تعالى و تقدم الأدلة على وحدانيته سبحانه، منها قوله عز و جل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة/١٦٤).
(الفلك) يتفق أرباب اللغة على أنها السفينة، واحد و جمع، يذكر و يؤنث.[١٢٤]
و نقرأ في تفسير الميزان أن في عد الفلك في طي الموجودات والحوادث الطبيعية، التي لا دخل لاختيار الانسان فيها، كالسماء والأرض واختلاف الليل والنهار، دلالة على أنها أيضا تنتهي مثلها إلى صنع اللّه سبحانه في الطبيعة.
فإن نسبة الفعل إلى الانسان لا تزيد على نسبة الفعل إلى سبب من الأسباب الطبيعية، فلا فرق من حيث الاحتياج إلى إرادة اللّه سبحانه بين أن تحرق النار شيئا، وأن يحرك الهواء شيئا، و بين أن يحرك الإنسان شيئا وأن يفعل شيئا يتحرك، فجميعها تنتهي إلى صنع اللّه وإيجاده، لا يستقل شئ مستغنيا عنه تعالى.[١٢٥]
ويقول سماحة آية اللّه العظمى الشيخ ناصر المكارم الشيرازي (دامت بركاته) في تفسير هذه الآية الكريمة، أنها تشير إلى ستة أقسام من آثار النظم الموجود في عالم الكون وكل واحد آية تدل على وحدانية المبدأ الأكبر.
فيذكر سماحته في البند الثالث: الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، فالإنسان يمخر عباب البحار والمحيطات بالسفن الكبيرة والصغيرة، مستخدما هذه السفن للسفر ولنقل المتاع. وحركة هذه السفن خاصة الشراعية منها تقوم على عدة أنظمة:

---

[١٢٢] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٧ - ص ١٧١
[١٢٣] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (١٩٠٠) ص ٤٧٣
[١٢٤] كتاب العين - الفراهيدي ج٥ ص٣٧٤ و الصحاح - الجوهري ج٤ ص١٦٠٤
[١٢٥] راجع تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ١ - ص ٣٩٩

الأول، نظام هبوب الرياح على سطح مياه الكرة الأرضية، و هي تعتبر قوة طبيعية لتحريك السفن نحو مقاصدها.
الثاني، خاصية الخشب، أو خاصية القوة الدافعة التي يسلطها الماء على الأجسام الغاطسة فيه، فيجعل هذه السفن تطفو على سطح الماء.
أضف إلى ذلك خاصية القطبين المغناطيسيين للكرة الأرضية، التي تساعد البحارة باستخدام البوصلة أن يعرفوا اتجاههم في وسط البحار، إضافة إلى استفادتهم من نظام حركة الكواكب في معرفة جهة السير.
كل هذه الأنظمة تساعد على الاستفادة من الفلك، وتعطي دليلا محسوسا على قدرة اللّه وعظمته، وتعتبر آية من آيات وجوده.
ويشير سماحته إلى أن استعمال المحركات الوقودية بدل الأشرعة في السفن اليوم، لم يقلل أهمية هذه الظاهرة، بل زادها عجبا و دهشة.[١٢٦]
وفي إشارة لطيفة يلفت العلامة الطباطبائي، رضوان اللّه عليه، أذهاننا إلى أن هذا النوع من التصرف في الموجودات إنما هو من شؤون الملك الحقيقي للّه تعالى.[١٢٧]

(مُسَخِّرِ الرِّياحِ):

وقد وردت كلمة (الرياح) في القرآن الكريم في عشر آيات مباركات، و في جميع هذه الموارد، تحمل الخير و النماء والإزدهار إلى العباد و البلاد.
يقول الشيخ الطوسي أعلا اللّه مقامه، أن ما ورد من أن النبي (ص) كان يقول إذا هبت ريح: (اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا) فلأن عامة ما جاء بلفظ (الرياح) في القرآن الكريم، هو بمعنى السقيا و الرحمة، كقوله تعالى ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾(الحجر٢٢) وقوله سبحانه ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾(الروم٤٦) وقوله ﴿اللّه الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء﴾(الروم٤٨).
و في المقابل فإن ما جاء من الآيات الشريفة، بخلاف هذا المعنى فإنه ورد بصيغة الإفراد، كقوله عز و جل ﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾(الذاريات٨) وقوله ﴿وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر﴾(الحاقة٦) وقوله تعالى ﴿بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم﴾(الأحقاف٢٤).[١٢٨]

---

[١٢٦] تفسير الأمثل - الشيخ مكارم الشيرازي - ج ١ - ص ٤٦٧ - ٤٦٩
[١٢٧] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٣ - ص١٣١
[١٢٨] التبيان - الشيخ الطوسي - ج ٤ - ص ٤٢٨

و مع أن استقراء الآيات المباركة في القرآن الكريم، يكشف لنا عن اصطلاح قرآني لكلمة (الرياح) يخصصها بالخير وبما ينفع الناس، إلا أنها من الناحية اللغوية يمكن أن تستعمل فيما هو مصدر خطر و دمار وهلع وجزع.
ومن هنا فقد حرص الإمام (ع) أن يذكر كلمة (مسخر) قبل (الرياح) للتأكيد على صرفها إلى جهة الخير والرخاء.
ونجد مثل هذا في قوله تعالى ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾(ص/٣٦)
إذ أن كلمة (الريح) كما بينا تنصرف في المصطلح القرآني إلى الشر والوبال، ولكن الله تعالى أراد أن يبين أنها لنبيه سليمان (ع) كانت رخاء وخيرا.
وتجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم، حين يأتي على ذكر الرياح، فإنه لا يعبر عنها بالتسخير أبدا، وفي ذلك ما يؤيد أنها إنما تكون في الخير والرخاء، اصطلاحا قرآنيا، وإن كانت لغويا قابلة لأن تستعمل في غير ذلك.

(فالِقِ الاِصْباحِ):

وقد وردت هذه العبارة في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في وصف الله سبحانه بقوله تعالى ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(الأنعام/٩٦).
و في تعليق جميل يقول سماحة الحكيم الرباني جوادي آملي حفظه الله: (إن الله تعالى كما أنه هو خالق الوصل، فكذلك هو خالق الفصل، وكما أن نظام الجمع بيده، فكذلك نظام التفريق أيضا تحت قدرته سبحانه وتعالى) [١٢٩]
وكلمة (فالق) اسم فاعل من كلمة (فلق) التي تعني شق الشيء [١٣٠] و لا يقال إلا للأمر العظيم [١٣١] كما يقول تعالى في قصة موسى (ع) وقومه، حين أتبعه فرعون وقومه ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ. قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ. فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾(الشعراء٦١-٦٣).

---

[١٢٩] تفسير تسنيم ج٤ ص٣٧٤
[١٣٠] الصحاح - الجوهري - ج ٤ - ص ١٥٤٤
[١٣١] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (١٦٥٥) ص ٤١٣

(دَيّانِ الدِّينِ):
كلمة (ديان) جمع تكسير يدل على المبالغة و الكثرة، على وزن (فعّال)[١٣٢]
فهو سبحانه الذي يجازي عباده، في يوم الحساب، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.
وقد وردت كلمة (الدين) في القرآن الكريم، بمعنى الحساب والجزاء، في يوم القيامة.
يقول الشيخ الطوسي أعلا الله مقامه في تفسير قوله تعالى ﴿مالك يوم الدين﴾ : أي يوم الجزاء، وسميت الطاعة دينا، لأنها للجزاء. ومنه الدين، لأنه كالجزاء في وجوب القضاء.[١٣٣]
و صيغة المبالغة (ديان) تفصح عن مدى دقة الحساب، و الحرص الشديد على أن لا يقع ظلم، و إن كان في مثقال حبة من خردل أو أصغر من ذلك، على أحد من العباد

(رَبِّ العالَمِينَ):
وهنا نجد التفاتة من الإمام (ع) جميلة جدا، ينبغي التوقف عندها والتأمل فيها.
إن الأصل هو أن تذكر عبارة (رب العالمين) أو ما يدل على معناها، من أن اللّه تعالى هو المالك الحقيقي للوجود كله، أولا ثم يعقب عليها بأنه سبحانه، يحاسب عباده على أفعالهم في يوم الجزاء.
وذلك أن المحاسبة تصرف تابع للملكية، فمن لم يثبت ملكه لشئ لا يمكنه أن يتصرف فيه، وكما قيل (ثبت العرش ثم النقش).
ولكن الإمام (ع) أراد هنا أن يخالف ذلك لسبب ظاهر، وهو:
أنه (ع) قد أكد في أول هذا الفصل من الدعاء الشريف، أن اللّه تعالى له الملك كله، فقال (ع) (الحمد للّه مالك الملك)، فأراد هنا في نهاية هذا الفصل أن يؤكد معنى آخر غير المالكية و هو معنى الربوبية، التي تنم عن الرحمة والصميمية في العلاقة و هذا المعنى ينسجم تماما مع جميع فصول هذا الدعاء المبارك، بل هو روحه المبثوثة في جميع ثناياه.
(العالمين) جمع لا مفرد له كرهط وقوم، وهو قد يطلق على مجموعة من الخلق متماثلة، كما يقال: عالم الجماد، عالم النبات، عالم الحيوان. وقد يطلق على مجموعة

---

[١٣٢] كتاب نزهة الطرف شرح بناء الأفعال في علم الصرف للبيضاني ص١٤١
[١٣٣] التبيان - الشيخ الطوسي - ج ٢ - ص ٤١٨

يؤلف بين أجزائها اجتماعها في زمان أو مكان، فيقال: عالم الصبا، عالم الذر، عالم الدنيا، عالم الآخرة.

وقد يطلق ويراد به الخلق كله على اختلاف حقائق وحداته، ويجمع بالواو والنون، فيقال: عالمون ويجمع على فواعل، فيقال: عوالم، ولم يوجد في لغة العرب ما هو على زنة فاعل، ويجمع بالواو والنون غير هذه الكلمة.[١٣٤]

[١٣٤] البيان في تفسير القرآن - السيد الخوئي - ص ٤٥٣

الفصل التاسع / من أسماء اللّه الحسنى التي هي منشأ كل الخير و البركة في الوجود: (الحليم). فحلم اللّه هو مدخل العبد إلى نيل عطاء اللّه سبحانه و إحسانه
وحين نقرأ القرآن الكريم، و إذا تتبعنا الآيات الشريفة التي تصف اللّه سبحانه بأنه (حليم)، فسوف نجد أنها مواضع الحلم و العفو عن الذنب.
ومن ذلك قوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(آل عمران/١٥٥).
وقوله تعالى ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾(البقرة/٢٦٣).
بل و إن قوله عز و جل ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾(البقرة/٢٣٥) يلمح إلى كثرة وساوس الشيطان التي يتعرض لها الإنسان، و يقع على إثرها في المعاصي و الذنوب.

(الحَمْدُ للهِ عَلَى حِلْمِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ):
وقد وصف القرآن الكريماللّه تعالى بصفة (الحليم) مقترنة مع صفة (العليم) في ثلاث آيات مباركات.
و الحلم هو الإمهال بتأخير العقاب المستحق، وقال بعضهم ضد الحلم السفه، وهو جيد لأن السفه خفة و عجلة وفي الحلم أناة و إمهال.
و قال أبو هلال: و هذا يوجب أنه - أي السفه - ضد الحلم لأن الحلم من الحكمة والحكمة وجود الفعل على جهة الصواب.[١٣٥]
و لا شك في أن الإمهال في إنزال العقاب بالمستحق، و مؤاخذة المذنب بذنبه، يتطلب أولا و قبل ذلك أن يتحصل العلم بصدور الذنب من المذنب، واستحقاقه للعقاب تبعا لذلك، و إلا فإن معاقبته لن تكون إلا ظلما له، على ذنب لم يعلم اقترافه له.
فالحلم إذن لا يكون قبل العلم بوقوع ما يستوجب العقاب، وهذا يبرر اقتران (الحلم) مع (العلم).

(وَالحَمْدُ للهِ عَلَى عَفْوِهِ بَعْدَ قُدْرَتِهِ):
و هكذا لا يكون للعفو معنى إلا بعد القدرة على إنزال العقاب بالمذنب.

---

[١٣٥] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (٧٨٩) ص ١٩٩

يقول أمير المؤمنين (ع): (إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْراً لِلْقُدْرَةِ عَلَيْه).[١٣٦]

ويقول صلوات اللّه وسلامه عليه: (مَتَى أَشْفِي غَيْظِي إِذَا غَضِبْتُ ؟ أَحِينَ أَعْجِزُ عَنِ الْأنْتِقَامِ فَيُقَالُ لِي: لَوْ صَبَرْتَ ؟ أَمْ حِينَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ فَيُقَالُ لِي: لَوْ عَفَوْتَ).[١٣٧]

و هنا يؤكد الإمام (ع) بأن اللّه تعالى إنما يعفو عن المستحقين للعقاب، مع علمه بذنوبهم، و قدرته على معاقبتهم.

(وَالْحَمْدُ للهِ عَلَى طُولِ أَنَاتِهِ فِي غَضَبِه):

و الأناة هي الحلم، و ترك الاستعجال في الأمور[١٣٨] كما يقول الخليل الفراهيدي، و التأني في الأمر بمعنى الترفق، بل هي المبالغة في الرفق بالأمور، كما يقول العسكري.[١٣٩]

وكما هو معلوم أن الغضب يدفع صاحبه إلى الإنفعال والتعجل في الأمور، و هذا يوقعه في الأخطاء الفادحة، ويقحمه في المهالك، يقول أمير المؤمنين (ع) (الغضب شر إن أطعته دمر) و يقول عليه السلام (الغضب يفسد الألباب، و يبعد من الصواب).[١٤٠]

والإمام عليه السلام هنا في هذه الفقرة من الدعاء الشريف يؤكد على عظم حلم اللّه سبحانه.

فهو لا يكتفي بوصف اللّه تعالى بأنه حليم، لا يعجل في غضبه و لا يأخذ أهل الأرض بألوان العذاب، بل إنه (ع) يبين أن اللّه تعالى يمهل المذنبين المستحقين للعقاب، و يطيل لهم الإمهال، ويترفق بهم، حتى كأنهم لا ذنب لهم.

(وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى مَا يُرِيدُ):

وهنا يكتمل البيان ويبلغ ذروته، فالإمام (عليه السلام) يصرح بأن اللّه تعالى الموصوف بهذا الحلم، الذي لا نظير له، هو في الوقت ذاته قادر على ما يريد، قدرة لا حدود لها، فهي تابعة للإرادة، مستجيبة لها.

---

[١٣٦] نهج البلاغة - قصار حكم أمير المؤمنين. ح٧

[١٣٧] نهج البلاغة - قصار حكم أمير المؤمنين. ح١٨٤

[١٣٨] كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج ٨ - ص ٤٠١

[١٣٩] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (٢٩٩) ص ٧٥

[١٤٠] مستدرك الوسائل - الميرزا النوري - ج ١٢ - ص ١١

وها هنا إشارة إلى أن هذا الحلم العظيم، ليس إلا لأن اللّه سبحانه و تعالى يريد أن يكون حليما.

وهذا المعنى ينسجم مع ما استهل به الإمام (ع) دعاءه، حين بين أن اللّه تعالى يتجلى بأسمائه الحسنى، بحكمته.

فهو تبارك وتعالى أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة وهو سبحانه أشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة، وهو عز و جل أعظم المتجبرين في موضع الكبرياء والعظمة، ثم هو تبارك اسمه الحليم في موضع الحلم و الأناة.

الفصل العاشر / و من أسماء الحسنى التي هي منشأ كل الخير و البركة في الكون كله، اسم (الرب) أو (المدبر).

فاللّه سبحانه هو الرب الذي أحاط جميع مخلوقاته بلطفه وكرمه وإحسانه، وهو المدبر لجميع شؤونهم، والذي من دونه لا يملك أحد لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ناهيك عن أن يملك ذلك لغيره من الخلق.

(الحَمْدُ لله خالِقِ الخَلْقِ):

وفي هذه الفقرة الأولى من هذا الفصل من الدعاء الشريف، يبادر الإمام (ع) إلى تبيين أن ربوبية اللّه تعالى وتدبيره للكون، إنما هو قائم على أنه سبحانه هو خالق هذا الكون و ما فيه، ومن ثم فلا أحد أقدر منه تعالى على تدبيره و توفير مستلزماته والحفاظ على ما به قوامه، كما لا أحد أعلم منه تبارك وتعالى بما يحتاج إليه العباد، على اختلاف ذواتهم وماهياتهم، فقد يكون ما ينفع هذا يضر الآخر.. وهكذا.

وهذه النكتة نجدها في قوله تعالى ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ. هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾(الملك١٤- ١٥) وقوله سبحانه ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾(الرعد/١٦)

(باسِطِ الرِّزْقِ):

ثم إنه سبحانه هو الذي يبسط الرزق لعباده ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(هود/٦).

لأنه هو لا غيره الخالق وهو لا غيره الذي يعلم بمصالح الخلق ومفاسدهم، وهو لا غيره القادر على ما يريد، فهو سبحانه هو الرب لا رب سواه.

والمعنى الذي يريده الإمام (عليه السلام) في هذه الفقرة، هو أن الذي يأتي منه الرزق، قليله أو كثيره، هو اللّه عز و جل وحده، وليس في الوجود غيره من يستطيع أن يرزق أو يمنع رزق أحد.

وهذا المعنى نقرؤه في عدة آيات مباركات، منها ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(العنكبوت/١٧).

فهو سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويصرفه عمن يشاء، لأنه هو الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها، وهو الخبير الذي يعلم أين مواضع الصلاح ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾(الإسراء/٣٠) ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾(الشورى/٢٧).

ولا ننسى أن الرزق يشمل العطاء المعنوي كما يشمل العطاء المادي، وقد قيل في تفسير قوله تعالى ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(هود/٨٨) أن الرزق هنا بمعنى النبوة و الحكمة، أو الهدى والإيمان.[١٤١]

وللعلامة الطباطبائي قدس سره الشريف كلام جميل حول رزق اللّه تعالى، يقول فيه: (قال تعالى ﴿وما من دابة في الأرض إلا على اللّه رزقها﴾(هود٦) وقال تعالى ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾(الذاريات٢٣) فالرزق مع كونه حقا على اللّه، لكونه حقا مجعولا من قبله عطية منه، من غير استحقاق للمرزوق من جهة نفسه، بل من جهة ما جعله - اللّه تعالى - على نفسه من الحق.

ومن هنا يظهر أن للانسان المرتزق بالمحرمات، رزقا مقدرا من الحلال بنظر التشريع، فإن ساحته تعالى منزهة من أن يجعل رزق إنسان حقا ثابتا على نفسه، ثم يرزقه من وجه الحرام، ثم ينهاه عن التصرف فيه و يعاقبه عليه)[١٤٢]

(فالق الإصْباح):

إن في التكرار معنى، يتجلى بإدراك اللحاظات المختلفة للحديث، أي أن ملاحظة السياق تجعل للعبارة الواحدة أكثر من معنى.

وقد ذكرت هذه العبارة (فالق الإصباح) في فصل سابق من هذا الدعاء الشريف، إلا أن سياقها هناك يختلف عن سياقها هنا، ومن ثم فإن معناها في الحالتين مختلف.

هذه العبارة في الفصل السابق وردت في سياق الحديث عن تجلي اللّه تبارك و تعالى باسمه (مالك الملك)، فكانت هذه العبارة (فالق الإصباح) تعني أن هذه الأوقات والأزمان لا تخرج عن ملك اللّه سبحانه، وأنه هو وحده المتصرف فيها.

---

[١٤١] التبيان - الطوسي ج٦ص٥١ وجوامع الجامع - الطبرسي ج٢ص١٨٦

[١٤٢] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٣ - ص ١٤٠

ولكنها هنا في هذا الفصل، الذي يتمحور حول فكرة ربوبية اللّه تعالى للخلق، وتدبيره للكون، تعني أن الذي يتصرف في كل هذه الأزمان والأوقات، ويغيرها ويبدلها، فيخرج الصبح من رحم الليل، ثم يغشي الليل على ضوء النهار، إنما هو اللّه سبحانه وحده لا شريك له، و أن هذا التناوب بين الليل و النهار، إنما تقف وراءه حكمة عظيمة، تنظر إلى مصالح الخلق كلهم.

و قد صرح القرآن الكريم بهذا المعنى فقال تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ. وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(القصص٧١- ٧٣).

(ذي الجَلالِ وَالإكْرامِ):

وقد ورد هذا الإسم المبارك للّه تعالى في موضعين من القرآن الكريم، أحدهما قوله تعالى ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ. وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(الرحمن٢٦- ٢٧) والآخر قوله سبحانه ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(الرحمن/٧٨).

يقول سماحة آية اللّه العظمى الشيخ جعفر السبحاني (دامت بركاته) أن صفة (ذي الجلال) تناسب الصفات السلبية للّه سبحانه، لأنه تعالى أجل وأعظم من أن يكون جسما أو جسمانيا أو حالا في محل. كما أن صفة (ذي الإكرام) تناسب الصفات الثبوتية له تعالى، لأن العلم والقدرة والحياة شرف للموجود بما هو هو.[١٤٣]

ويقول العلامة الطباطبائي أعلا اللّه مقامه الشريف:

و قوله ﴿ذو الجلال والاكرام﴾ في الجلال شئ من معنى الاعتلاء والترفع المعنوي على الغير، فيناسب من الصفات ما فيه شائبة الدفع والمنع كالعلو والتعالي والعظمة والكبرياء والتكبر والإحاطة والعزة والغلبة. ويبقى للاكرام من المعنى ما فيه نعت البهاء والحسن الذي يجذب الغير ويولهه، كالعلم والقدرة والحياة والرحمة والجود والجمال والحسن ونحوها، وتسمى صفات الجمال كما يسمى القسم الأول صفات الجلال. وتسمى الأسماء أيضا على حسب ما فيها من صفات الجمال أو الجلال

---

[١٤٣] مفاهيم القرآن – الشيخ جعفر السبحاني - ج ٦ – ص٢٤٧

بأسماء الجمال أو الجلال. فذو الجلال والاكرام اسم من الأسماء الحسنى جامع بمفهومه بين أسماء الجمال وأسماء الجلال جميعا.[١٤٤]

وإذا تأملنا في اسم (الرب) فإننا نجد أنه يستلزم من الكمالات والصفات ما قد لا يكون مطلوبا في غيره من الأسماء الحسنى.

ذلك أن التدبير يحتاج إلى العلم و الحكمة، ويحتاج إلى الحكمة، كما يحتاج إلى القدرة، وإلى جانب كل ذلك يحتاج إلى الرحمة واللطف، ولا يستغني عن الجود والكرم.

وبعبارة جامعة مانعة: يجب أن يكون المدبر متصفا بكل الصفات الحميدة، ويكون في الوقت نفسه منزها من جميع الصفات الذميمة، ليكون تدبيره محمودا.

وهذا هو السر في أن الإمام (ع) يصفه سبحانه بـ (ذي الجلال والإكرام) في هذا الفصل من الدعاء الشريف.

(وَالفَضْلِ وَ الانْعام):

يقول الشيخ الطوسي أعلا اللّه مقامه في تفسير قوله تعالى ﴿واللّه ذو الفضل العظيم﴾: فالفضل الزيادة عن الاحسان وأصله على الطلاق الزيادة يقال في بدنه فضل أي زيادة. والفاضل: الزائد على غيره في خصال الخير، فأما التفضل، فزيادة النفع على مقدار الاستحقاق ثم كثر استعماله حتى صار لكل نفع قصد به فاعله أن ينفع صاحبه.[١٤٥]

ونقرأ في تفسير الميزان: فلما كان الفضل بيد اللّه يؤتيه من يشاء، وكان واسعا عليما، أمكن أن يختص بعض عباده ببعض نعمه، فإن له أن يتصرف في ملكه كيف يشاء.

وليس إذا لم يكن ممنوع التصرف في فضله وإيتائه عباده، أن يجب عليه أن يؤتي كل فضله كل أحد، فإن هذا أيضا نوع ممنوعية في التصرف، بل له أن يختص بفضله من يشاء.

وقد ختم الكلام بقوله ﴿واللّه ذو الفضل العظيم﴾ وهو بمنزلة التعليل لجميع المعاني السابقة، فإن لازم عظمة الفضل على الاطلاق أن يكون بيده، يؤتيه من يشاء وأن يكون واسعا في فضله، وأن يكون عليما بحال عباده، وما هو اللائق بحالهم من الفضل، وأن يكون له أن يختص بفضله من يشاء.

---

[١٤٤] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ١٩ - ص ١٠١

[١٤٥] التبيان - الشيخ الطوسي - ج ٢ - ص ٥٠٣

وفي تبديل الفضل بالرحمة في قوله ﴿يختص برحمته من يشاء﴾ دلالة على أن الفضل و هو العطية غير الواجبة من شعب الرحمة.[١٤٦]
الفضل هو العطاء الذي لا يكون واجبا على أحد و إنما هو ما يتفضل به من غير سبب يوجبه.[١٤٧]
والنعمة هي المسرة[١٤٨] و اليد و الصنيعة و المنة[١٤٩] وأصلها يرجع إلى معنى واحد و هو الترفه و طيب المعيشة.[١٥٠]
فهو سبحانه يسبغ النعم على عباده مبتدئا متفضلا، من غير استحقاق لأحد من خلقه عليه تعالى، ولكنه بربوبيته يدخل السرور عليهم، بما ينعم عليهم به من أسباب الرفاهية و طيب المعيشة.

(الذي بَعُدَ فلا يُرى):
الحديث هنا ليس عن رؤية الباري سبحانه، إذ أن لذلك البحث مقاما يستوعبه، ولكننا استطرادا نستعرض بعض جوانب هذه القضية العقائدية المهمة.
فقد وردت في القرآن الكريم، آيات مباركة، تنزه الله تبارك وتعالى عن أن يرى، كقوله تعالى ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(الأنعام/١٠٣) وكقوله سبحانه ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(الأعراف/١٤٣).
وقد اختلف علماء المسلمين في قضية رؤية الله تعالى على أقوال ثلاثة:
١- أن الله تعالى يرى عيانا في الدنيا و الأخرة.
٢- أن المؤمنين فقط هم الذين يرون ربهم في الجنة عيانا.
٣- أن الله تعالى منزه عن الرؤية العينية مطلقا.
والقول الأول هو قول بعض علماء السنة، فيما مال عمومهم إلى القول الثاني، وأجمع الشيعة و الإباضية على القول الثالث، و وافقهم على ذلك عدد من السنة.

---

١٤٦ تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٣ - ص ٢٦٠ - ٢٦١
١٤٧ الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (٧٣) ص ٢٤
١٤٨ كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج ٢ - ص ١٦٢
١٤٩ الصحاح - الجوهري - ج ٥ - ص ٢٠٤١
١٥٠ معجم مقاييس اللغة - أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا - ج ٥ - ص ٤٤٦

و المرجع في تنزيه ساحة اللّه المقدسة عن الرؤية، هو عدم مشابهة أحد من الخلق له عز و جل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(الشورى/١١).
وفي نفي الرؤية يقول العلامة الطباطبائي رضوان اللّه عليه في تفسيره العظيم (قوله تعالى ﴿إلى ربها ناظرة﴾(القيامة٢٣) فإنه آية متشابهة وبإرجاعها إلى قوله تعالى ﴿ليس كمثله شئ﴾(الشورى١١) وقوله تعالى ﴿لا تدركه الابصار﴾(الانعام١٠٣) يتبين: أن المراد بها نظرة و رؤية من غير سنخ رؤية البصر الحسي. وقد قال تعالى ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى - إلى أن قال - لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾(النجم١٨) فأثبت للقلب رؤية تخصه، وليس هو الفكر، فإن الفكر إنما يتعلق بالتصديق والمركب الذهني، والرؤية إنما تتعلق بالمفرد العيني، فيتبين بذلك أنها توجه من القلب، ليست بالحسية المادية و لا بالعقلية الذهنية.[١٥١]
ثم إن هذا البعد المذكور في الدعاء أيضا ليس حسيا ماديا، وإنما هو بمعنى أنه تعالى أبعد من أن يرى، و أرفع من أن يحده مكان و زمان، إذ أنه سبحانه ليس كمثله شئ.

(وَ قَرُبَ فَشَهِدَ النَّجْوى):

وهذا المعنى مقتبس من القرآن المجيد، إذ يقول سبحانه وتعالى ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(المجادلة/٧) ويقول عز من قائل ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾(المجادلة/١).
وكذلك وصف اللّه تعالى بالقرب، فقد ذكره القرآن الكريم في آيات عدة، منها قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾(ق/١٦) وقد روي أن سائلا سأل النبي الأكرم (ص): أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فنزل قوله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة/١٨٦)[١٥٢]
و يستدل الشيخ الطبرسي أعلا اللّه مقامه بهذه الآية الشريفة على أنه سبحانه لامكان له، إذ لو كان له مكان، لم يكن قريبا من كل من يناجيه.[١٥٣]

---

[١٥١] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٣ - ص ٤٣ - ٤٤
[١٥٢] التبيان - الشيخ الطوسي - ج ٢ - ص ١٢٩
[١٥٣] تفسير مجمع البيان - الشيخ الطبرسي - ج ٢ - ص ١٨

وللعلامة الطباطبائي قدس سره الشريف في هذه الآية الشريف بحث ينبغي الاستفادة منه، إذ يقول في تفسيره القيم: قوله تعالى ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ أحسن بيان لما اشتمل عليه من المضمون وأرق أسلوب وأجمله، فقد وضع أساسه على التكلم وحده دون الغيبة ونحوها، وفيه دلالة على كمال العناية بالأمر، ثم قوله ﴿عبادي﴾ ولم يقل: الناس وما أشبهه، يزيد في هذه العناية، ثم حذف الواسطة في الجواب حيث قال ﴿فإني قريب﴾ ولم يقل: فقل إنه قريب، ثم التأكيد بـ ﴿إن﴾ ثم الإتيان بالصفة دون الفعل، الدال على القرب ليدل على ثبوت القرب ودوامه، ثم الدلالة على تجدد الإجابة واستمرارها حيث أتى بالفعل المضارع ﴿أجيب﴾ الدال عليهما، ثم تقييده الجواب أعني قوله ﴿أجيب دعوة الداع﴾ بقوله ﴿إذا دعان﴾ وهذا القيد لا يزيد على قوله: دعوة الداع المقيد به شيئا بل هو عينه، وفيه دلالة على أن دعوة الداع مجابة من غير شرط وقيد كقوله تعالى ﴿ادعوني أستجب لكم﴾(المؤمن ٦٠).

فهذه سبع نكات في الآية تنبئ بالاهتمام في أمر استجابة الدعاء والعناية بها، مع كون الآية قد كرر فيها - على إيجازها - ضمير المتكلم سبع مرات، وهي الآية الوحيدة في القرآن على هذا الوصف.

فقد تبين: أن قوله تعالى ﴿وإذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ كما يشتمل على الحكم أعني إجابة الدعاء، كذلك يشتمل على علله، فكون الداعين عبادا لله تعالى هو الموجب لقربه منهم، وقربه منهم هو الموجب لإجابته المطلقة لدعائهم، وإطلاق الإجابة يستلزم إطلاق الدعاء، فكل دعاء دعي به فإنه مجيبه.

إلا أن ههنا أمرا وهو أنه تعالى قيد قوله ﴿أجيب دعوة الداع﴾ بقوله ﴿إذا دعان﴾ و هذا القيد غير الزائد على نفس المقيد بشئ، يدل على اشتراط الحقيقة دون التجوز و الشبه، فان قولنا: اصغ إلى قول الناصح إذا نصحك أو أكرم العالم إذا كان عالما يدل على لزوم اتصافه بما يقتضيه حقيقة، فالناصح إذا قصد النصح بقوله، فهو الذي يجب الاصغاء إلى قوله، والعالم إذا تحقق بعلمه و عمل بما علم كان هو الذي يجب إكرامه.

فقوله تعالى ﴿إذا دعان﴾ يدل على أن وعد الإجابة المطلقة، إنما هو إذا كان الداعي داعيا بحسب الحقيقة مريدا بحسب العلم الفطري والغريزي مواطئا لسانه قلبه، فإن حقيقة الدعاء والسؤال هو الذي يحمله القلب ويدعو به لسان الفطرة، دون ما يأتي به اللسان الذي يدور كيفما أدير صدقا أو كذبا جدا أو هزلا حقيقة أو مجازا.

ولذلك ترى أنه تعالى عد ما لا عمل للسان فيه سؤالا، قال تعالى ﴿وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة اللّه لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار﴾(إبراهيم٣٤) فهم فيما لا يحصونها من النعم داعون سائلون ولم يسألوها بلسانهم الظاهر، بل بلسان فقرهم واستحقاقهم، لسانا فطريا وجوديا، وقال تعالى ﴿يسأله من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن﴾(الرحمن٢٩).

فالسؤال الفطري من اللّه سبحانه لا يتخطى الإجابة، فما لا يستجاب من الدعاء ولا يصادف الإجابة، فقد فقَد أحد أمرين وهما اللذان ذكرهما بقوله ﴿دعوة الداع إذا دعان﴾.

فإما أن يكون لم يتحقق هناك دعاء، و إنما التبس الأمر على الداعي التباسا، كأن يدعو الإنسان فيسأل ما لا يكون وهو جاهل بذلك أو ما لا يريده لو انكشف عليه حقيقة الأمر مثل أن يدعو و يسأل شفاء المريض لا إحياء الميت، ولو كان استمكنه ودعا بحياته كما كان يسأله الأنبياء لأعيدت حياته ولكنه على يأس من ذلك، أو يسأل ما لو علم بحقيقته لم يسأله فلا يستجاب له فيه.

وإما أن السؤال متحقق لكن لا من اللّه وحده كمن يسأل اللّه حاجة من حوائجه، وقلبه متعلق بالأسباب العادية، أو بأمور وهمية توهمها كافية في أمره أو مؤثرة في شأنه، فلم يخلص الدعاء للّه سبحانه، فلم يسأل اللّه بالحقيقة، فإن اللّه الذي يجيب الدعوات هو الذي لا شريك له في أمره، لا من يعمل بشركة الأسباب والأوهام.

فهاتان الطائفتان من الدعاة السائلين لم يخلصوا الدعاء بالقلب وإن أخلصوه بلسانهم.[١٥٤]

ويقول الحكيم الرباني سماحة آية اللّه العظمى الشيخ جوادي آملي (أدام اللّه عزه الوارف):

إن اللّه سبحانه قريب من عباده ﴿فإني قريب﴾(هود٦١) ﴿إن ربي قريب من المحسنين﴾(سبأ٥٠) ولا يفصل بين اللّه تعالى وعباده إلا أعمالهم الباطلة (وأن الراحل إليك قريب المسافة، وأنك لا تحتجب عن خلقك إلا أن تحجبهم الأعمال دونك)[١٥٥]

و عنوان (القرب) هذا ليس بلحاظ الزمان أو المكان وأمثال ذلك من الأمور المادية، و لذلك فإن إطلاقه على اللّه تعالى من باب الحقيقة، وليس التمثيل.

---

[١٥٤] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٢ - ص ٣٠ - ٣٣

[١٥٥] مصباح المتهجد ص٥٢٥، مفاتيح الجنان دعاء أبي حمزة الثمالي

فالمعنى الحقيقي للقرب ليس مختصا بالمكان، ليكون استعماله في غيره هذا المورد، من باب الاستعارة.
والتعبير بـ (إني قريب) يدل على قرب اللّه تعالى من السائل والداعي، لا قرب الداعي و السائل من اللّه سبحانه.
والقرب هو من أوصاف اللّه تعالى، بينما الإجابة من أوصاف فعل اللّه سبحانه، وقد أثبتت الآية الشريفة صفته تعالى قبل أن تثبت صفة فعله.
وفيما يلي مراتب قرب الحق تعالى:
١ -اللّه تعالى أقرب إلى الإنسان من الآخرين (و نَحنُ أقرَبُ إلَيهِ مِنكُم ولكِن لاتُبصِرون)(الواقعة٨٥).
٢ -اللّه سبحانه أقرب إلى الإنسان من حبل وريده (ونَحنُ أقرَبُ إلَيهِ مِن حَبلِ الوَريد)(ق١٦).
و ذلك لأن قرب اللّه تعالى إنما هو بلحاظ المكانة لا المكان، وبعبارة أخرى، إن اللّه سبحانه باعتباره المحيط و القيوم على وجود الإنسان، فإنه أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، الذي بانقطاعه تتوقف حياة الإنسان.
٣ -اللّه سبحانه و تعالى أقرب إلى الإنسان من نفس الإنسان (و اعلَموا أنَّ اللّهَ يَحولُ بَينَ المَرءِ و قَلبِهِ)(الأنفال٢٤).
إن أفضل طريق لإثبات القرب المطلق للّه تعالى، من ذات كل شئ و صفته و فعله و أثره، هو الإستناد إلى حقيقة أن اللّه تعالى لا متناهي الوجود.
وعندئذ يصبح فرض عدم كونه تعالى أقرب إلى كل موجود من كل شئ بل و من نفس ذلك الموجود أيضا، مستلزما تناهي الموجود اللامتناهي، وهذا خلف، و هو باطل.[١٥٦]

(تَبارَكَ وَ تَعالى):

فمعنى تبارك بأنه الثابت الذي لم يزل ولا يزال. وأصل الصفة من الثبوت من البرك وهو ثبوت الطائر على الماء. ومنه البركة ثبوت الخير بنمائه. وقيل: معناه تعاظم بالحق من لم يزل ولا يزال، وهو راجع إلى معنى الثابت الدائم. وقيل: المعنى تبارك من ثبوت الأشياء به إذ لولاه لبطل كل شئ لأنه لا يصح شئ سواه إلا مقدوره أو مقدور مقدوره، الذي هو القدرة، لان اللّه تعالى هو الخالق لها. وقيل: إن معناه تبارك لأن

---

[١٥٦] راجع تفسير تسنيم ج٩ ص٣٨٩- ٤١١

جميع البركات منه، إلا أن هذا المعنى مضمن في الصفة غير مصرح به، وإنما المصرح به تعالى باستحقاق التعظيم.[157]

وفي الكافي بإسناده عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: (إن اللّه تبارك وتعالى خلق اسما بالحروف غير متصوت، وباللفظ غير منطق، و بالشخص غير مجسد، وبالتشبيه غير موصوف، وباللون غير مصبوغ، منفي عنه الأقطار مبعد عنه الحدود، محجوب عنه حس كل متوهم، مستتر غير مستور. فجعله كلمة تامة على أربعة أجزاء معا، ليس منها واحد قبل الآخر، فأظهر منها ثلاثة أسماء، لفاقة الخلق إليها، وحجب واحدا منها، وهو الاسم المكنون و المخزون. فهذه الأسماء التي ظهرت، فالظاهر هو: اللّه، تبارك، وتعالى....) إلى آخر الرواية الشريفة.

و يعلق العلامة رضوان اللّه عليه على هذا الحديث الشريف فيقول: و قوله (فالظاهر هو اللّه، تبارك، و تعالى) إشارة إلى الجهات العامة، التي تنتهي إليها جميع الجهات الخاصة من الكمال، ويحتاج الخلق إليها من جميع جهات فاقتها وحاجتها، وهي ثلاث:
جهة استجماع الذات لكل كمال، وهي التي يدل عليها لفظ الجلالة (اللّه).
وجهة ثبوت الكمالات ومنشئية الخيرات والبركات، وهي التي يدل عليه اسم (تبارك).
وجهة انتفاء النقائص وارتفاع الحاجات وهي التي يدل عليه لفظ (تعالى).[158]

---

[157] التبيان - الشيخ الطوسي - ج ١٠ - ص ٥٧
[158] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٨ - ص ٣٦٣ - ٣٦٤

الفصل الحادي عشر / وحدانية اللّه تعالى ترفع المانع من اسباغ الخير والرحمة على الوجود.

ذلك أن فعل الخير والإحسان والإنعام والتفضل.. كل ذلك من الأفعال الممكنة، فوجودها وتحققها في الواقع الخارجي يحاج إلى علي إيجادها.

والعلة التامة كما يقولون ليست إلا وجود الدافع وارتفاع المانع، أي أن تتوفر الإرادة لفعل شئ، وأن ينتفي المانع من تحقيق ذلك الشئ.

وحيث أن اللّه تعالى تقدس عن الحاجة، و أن إرادته هي علة وجود كل شئ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(النحل/٤٠) فلا شئ إذن يحول دون تحقق الأشياء بإرادته، وما ذلك إلا لأنه سبحانه واحد أحد فرد صمد.

وإلا فلو كان له سبحانه شريك في الخلق والأمر ﴿إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(المؤمنون/٩١).

وهذه هي الفكرة التي تتمحور حولها فقرات هذا الفصل من الدعاء الشريف.

(الحَمْدُ للهِ الّذي لَيْسَ لَهُ مُنازِعٌ يُعادِلُهُ):

و يبتدئ الإمام (ع) بالحمد الفصل تلو الآخر، لأن ما يلهج به من صفات اللّه العليا وأسمائه الحسنى في كل فصل، تستوجب الحمد تلو الحمد.

وقد مر بنا في هذا الدعاء الشريف، نفي الشريك عن اللّه تعالى، بكل أقسامه و أنواعه.

و لما لهذه القضية من أهمية فائقة ومدخلية عظيمة وتأثير كبير في سبوغ الخير والبركات على الوجود كله، فإن الإمام (ع) يعود فيمجد وحدانية اللّه تعالى، مرارا وتكرارا.

وفي هذه الفقرة، يؤكد الإمام (ع) على نفيه الاعتقاد بوجود شريك في الملك، ينازع اللّه تعالى في أمره، بناء على أن له حقا معادلا و مساويا في الملك.

(ولا شَبِيهٌ يُشاكِلُهُ):

كما يؤكد (ع) نفيه الاعتقاد بأن للّه شريك التحاذي، من زوجة أو ولد، لأنه سبحانه ليس كمثله شئ، وعلاقة الزوجية والبنوة إنما تتقومان بوجود المشاكلة والمجانسة.

(وَلاظَهِيرٌ يُعاضِدُهُ):

وأخيرا فإنه (ع) ينفي الاعتقاد بأن للهّ شريك يعاضده وينصره على أعدائه، فيستحق بذلك أن يكون له أمر مع أمره تعالى، و نهي خلاف نهيه سبحانه.

(قَهَرَ بِعِزّتِهِ الأَعِزّاءَ):

كل ذلك النفي لجميع أنواع الشرك، إنما يستند إلى إيمان عميق صادق، بأن اللّه سبحانه و تعالى، هو القوي القاهر، الذي دانت له الجبابرة في أوطانها، و الذي أرغم أنف كل عزيز ممتنع، بالغا ما بلغ من العزة و المنعة.

(وَ تَواضَعَ لِعَظَمَتِهِ العُظَماءُ):

بل إن العظماء لم يجدوا شرفا و لا عظمة أعلى من أن يضعوا نير المذلة على رؤوسهم، تواضعا وتذللا للهّ العزيز الجبار، و أن يبادروا بالإقرار له سبحانه بالألوهية و الربوبية.

(فَبَلَغَ بِقُدْرَتِهِ ما يَشاءُ):

وبهذه العظمة وبتلك العزة، التي تأبى الشرك والشريك، يتحقق للهّ تعالى ما يريد، من إسباغ الخير ونشر الرحمة والتفضل والإنعام، على العباد والبلاد.

الفصل الثاني عشر / كرم اللّه سبحانه و جوده، يغلب عصيان العبد و كفره بنعم اللّه وإحسانه.

و مما يظن أن يكون مانعا للخير، عصيان العبد وتجرؤه على المولى تبارك و تعالى، عقابا له على سوء أعماله.

ولذلك نرى الإمام (ع) في هذا الفصل، يتعرض لهذه الجهة، مؤكدا أن اللّه سبحانه بكرمه و رحمته الواسعة، يغض الطرف عن عصيان عباده و اجترائهم عليه، فلا يقابلهم بما هم أهل له، بل يفيض عليهم رحمة و كرما و إحسانا، لعله بذلك يستميل قلوبهم إلى محبته سبحانه.

وقد قرأنا هذا المعنى في فصل سابق من هذا الدعاء الشريف، حين يقول الإمام (ع) (و تتودد إلي فلا أقبل منك).

(الحَمْدُ لله الّذي يُجيبُني حينَ أناديهِ):

وإذ كان اللّه سبحانه متفضلا على عباده بالنعم السوابغ والرفغ و الروافغ، مبتدئا متطولا، فإنه سبحانه قريب، يجيب عبده إذا ناداه، و يلبيه إذا دعاه.

و القرآن الكريم يخبرنا بوعد اللّه تعالى لعباده الداعين إياه والراجين فضله وإحسانه وعفوه ومغفرته ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(غافر/٦٠) و حاشا للّه تعالى أن يطرق عبده بابه، فلا يجيبه، أو يسأله فيخيب رجاءه ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾(آل عمران/٩).

ويجدر بنا أن نستذكر هنا ما قاله العلامة الطباطبائي (طيب اللّه ثراه)عند تفسيره لقوله تعالى ﴿أجيب دعوة الداعي إذا دعان﴾ بأن إجابة الدعاء مشروطة في هذه الآية الشريفة بأمرين:

أحدهما: أن يكون الداعي عارفا بما يريده من اللّه تعالى، فلا يطلب ما يضره أو ما لا ينفعه.

ثانيهما: أن يكون مخلصا في توجهه إلى اللّه تعالى.

(وَيَسْتُرُ عَلَيَّ كُلَّ عَوْرَةٍ وأنا أعْصيهِ):

ثم إن اللّه تعالى من عظيم كرمه وجميل عفوه وغفرانه، يسدل الأستار على ذنوب عباده، حتى كأنه هو سبحانه يستحيي منهم.

والإمام (ع) في هذه الفقرة يشبه الذنوب والمعاصي بالعورات، التي يخجل الإنسان من إبدائها، و يحرص على أن لا تنكشف لأحد من الناس أبدا، خشية الإهانة والإحتقار.

و في مقابل كل هذا الكرم و اللطف الإلهي، لا يصدر من العبد إلا التمادي في الغي و الاجتراء على المعصية، بل و إنه ليتخذ من هذا الستر غطاء و حجابا، ليختفي خلفه ويرتكب المعاصي و يقترف الآثام، من دون أن يأخذه من اللّه خجل أو يشعر بالخوف من غضبه.

(وَيُعَظِّمُ النِّعْمَةَ عَلَيَّ فَلا أُجازِيهِ):

لا بل و إن كرم اللّه تعالى يعظم أكثر من مجرد الستر على ذنب عباده و عصيانه، فيسبغ عليه بأنواع الخيرات و أصناف النعم الجسام.

و العبد العاق مع ذلك لا يرجو لربه وقارا، و لا يقابل إحسانه وتفضله إلا بالإعراض و النكران و الجحود.

والحقيقة هي أن جزاء العبد لأنعم اللّه سبحانه، لا يعود على اللّه تعالى بالنفع، لأنه تعالى يجل عن أن يصل النفع إليه من ذاته، فهو الغني الذي لا تنفع طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه.

و في هذا المعنى يقول تبارك وتعالى ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(إبراهيم/٨) ويقول عز من قائل ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾(النساء/١٣١).

بل إن الشكر على النعمة إنما هو لاستزادة أنعم اللّه تعالى على العباد أنفسهم ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(إبراهيم/٧) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾(لقمان/١٢).

وقد ورد الحث على شكر النعمة، والتصريح بأنها سبب لاستزادة النعم و بقائها واستمرارها، فمن ذلك: قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله): (ما فتح اللّه على عبد باب شكر فخزن عنه باب الزيادة) و عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: (مكتوب في التوراة: اشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك، فإنه لا زوال للنعماء إذا شكرت ولا بقاء لها إذا كفرت، الشكر زيادة في النعم وأمان من الغير) و عنه (ع) قال: (ما أنعم اللّه على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد اللّه ظاهرا بلسانه فتم كلامه حتى يؤمر له بالمزيد)[١٥٩].

---

[١٥٩] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٢ – ح٢و٣و٩ص ٩٤

(فَكَمْ مِنْ مَوْهِبَةٍ هَنِيئَةٍ قَدْ أعْطَانِي):
و من مصاديق تعظيم اللّه تعالى للنعمة على عبده، أنه يغدق عليه بالمواهب الهنية، كل حين و آن.
فالعبد يصبح و يمسي متنعما بعطاء اللّه، متقلبا في أكناف الخير و الرفاه، سالما من كل آفة.
وكل ذلك تفضلا من اللّه تعالى وتعظيما منه للنعمة على عباده، من دون استحقاق منهم و لا استيجاب لهم.

(وَ عَظِيمَةٍ مَخُوفَةٍ قَدْ كَفَانِي):
كما أن من مصاديق ستر اللّه تعالى على ذنوب عباده، أنه لا يأخذهم بألوان العذاب، بل وإنه سبحانه يدفع عنهم كل مخوفة من البلاء، و يؤمنهم من كل شدة و لأواء.
و القرآن الكريم يقرر حقيقة أن الإنسان متى ما هاجمته البلية، فعجز عن دفعها، عج بالدعاء إلى اللّه تعالى، فتداركته رحمة اللّه لتنقذه مما هو فيه ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا. أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً. أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنْ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾(الإسراء٦٧- ٦٩)

(وَ بَهْجَةٍ مونِقَةٍ قَدْ أرَانِي):
وفي عبارة مجملة يصور الإمام (ع) عظيم كرم اللّه تعالى، سواء ما كان منه على صعيد الإنعام، أو على صعيد الوقاية من البلاء.
فالبهجة هي السرور الذي يبدو على الوجه فيرسم عليه نضارة و حيوية واضحة.[١٦٠]
(مونقة) تقول للشئ إذا أعجبك حسنه، أنه مونق.[١٦١]
فالإمام (ع) يتحدث هنا عن أن اللّه تعالى بكرمه و لطفه يبادر عباده بما يدخل عليهم السرور، ويريهم ما يعجبهم حسنه.
وهذا يشمل جلب المنافع إلى العباد، و دفع المضار عنهم، سواء بسواء، فكل ذلك من شأنه أن يعجبهم فيدخل السرور على قلوبهم.

---

[١٦٠] كتاب العين - الفراهيدي ج٣ ص٣٩٤ و الصحاح - الجوهري ج١ ص ٣٠٠
[١٦١] لسان العرب - ابن منظور - ج ١٠ - ص ٩

(فأُثْنِي عَلَيْهِ حامِداً):

كل ذلك التفضل والإنعام من اللّه تعالى، إنما هو تحبب منه سبحانه إلى عباده، وتودد منه عز و جل إليهم، لعلهم يقبلون منه، فيقبلون عليه.

فحرف (الفاء) الذي هو من حروف المعاني، يستعمل للعطف، ويفيد التعقيب والترتيب، و يفيد التعليل أحيانا، كما في قول الشاعر:

رب فتية دعوت إلى ما يورث المجد دائبا فأجابوا[١٦٢]

و (الفاء) هنا جاءت للتعليل، أي أن (أثني عليه حامدا) معلول مترتب على تلك البهجة المونقة و ذلك الستر المرخى و تلك النعم المعظمة، من اللّه تعالى على عباده.

فالإمام (ع) هنا في هذه الفقرة من الدعاء، يدق على وترين، فهو من جهة يحمد اللّه تعالى و يثني عليه و يمجد أياديه الكريمة و إحسانه و امتنانه.

و من الجهة الأخرى يحثنا على حمد اللّه و الثناء عليه، جاعلا ذلك الحمد و الثناء واجبا وجوب المعلول لعلته، إذ أن ذلك التفضل والإنعام من قبل اللّه تعالى ينبغي أن يكون علة لهذا الحمد و الثناء من العباد.

(وَ أَذْكُرُهُ مُسَبِّحاً):

وقد ورد الحث في القرآن الكريم على ذكر اللّه تعالى، واعتباره شكرا وحمدا للّه، ومن ثم فهو منشأ الخير و البركة من اللّه تعالى على عباده، يقول تبارك اسمه ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِي﴾(البقرة/١٥٢) و يقول عز من قائل ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾(البقرة/٢٠٠)، وقد كان فيما أمر اللّه به نبيه موسى الكليم (ع) عندما ناداه ربه بالوادي المقدس ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾(طه/١٤) بل وإن لذكر اللّه مقاما أكبر وأعظم حتى من الصلاة التي هي عمود الدين، يقول تعالى ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾(العنكبوت/٤٥).

وأما التسبيح فهو تنزيه اللّه تعالى عما لا يليق به سبحانه من العجز و الضعف و الحاجة و من كل ما هو قبيح.[١٦٣]

---

[١٦٢] المعجم الوافي ص٢١٦- د.علي توفيق الحمد ويوسف الزعبي

[١٦٣] التبيان - الشيخ الطوسي - ج ٥ - ص ٣٤٣

و التسبيح من أفضل الدعاء، ذلك أن العبد بتسبيحه للّه تعالى، ينزهه عن النقص و الحاجة و الضعف، و في الوقت نفسه يؤكد على وجود النقص والضعف والحاجة في نفسه هو، فيقر لربه بالكمال والتعالي و يقر على نفسه بالفقر والضعف و الهوان.

ومن هنا فقد قيل في تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ. دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(يونس٩-١٠) أن أهل الجنة إذا مر بهم الطير ويشتهونه قالوا (سبحانك اللهم) فيؤتون به، فإذا نالوا منه شهوتهم قالوا (الحمد اللّه رب العالمين)[١٦٤] وعن ابن عباس: كلما اشتهى أهل الجنة شيئا قالوا (سبحانك اللهم) فيجيئهم كلما يشتهون فإذا طعموا قالوا (الحمد للّه رب العالمين)[١٦٥]

و عن أم سلمة قالت: كان رسول اللّه (ص) لا يقوم و لا يقعد و لا يجيء و لا يذهب إلا قال: سبحان اللّه و بحمده استغفر اللّه و أتوب إليه، فسألناه عن ذلك ؟ فقال: إني أمرت بها، ثم قرأ ﴿إذا جاء نصر اللّه﴾.[١٦٦]

كما ورد في خطبة لأمير المؤمنين (ع): والجنة لأهلها مأوى دعويهم فيها أحسن الدعاء ﴿سبحانك اللهم﴾ دعاهم المولى على ما آتاهم ﴿وآخر دعويهم أن الحمد للّه رب العالمين﴾ [١٦٧].

---

[١٦٤] التبيان - الشيخ الطوسي - ج ٥ - ص ٣٤٣
[١٦٥] تفسير غريب القرآن - فخر الدين الطريحي - ص ٢٦
[١٦٦] تفسير نور الثقلين - الشيخ الحويزي - ج ٥ - ص ٦٨٩
[١٦٧] تفسير نور الثقلين - الشيخ الحويزي - ج ٢ - ص ٢٩٥

الفصل الثالث عشر / إن عظيم كرم اللّه و جميل ستره وسبوغ نعمائه و وافر رحمته، كل ذلك يصدر عن ذات اللّه تعالى، و ليس أمرا عارضا عليه سبحانه، و لا خاضعا للظروف و المتغيرات، فهو ثابت لا يتغير، و باق لا يزول.

إن النتيجة الحتمية لوحدانية اللّه تعالى و أحديته، أن تكون صفاته عين ذاته، فهو أرحم الراحمين أبدا في موضع العفو و الرحمة، و هو الكريم الجواد المنان بالعطيات و المتفضل بالإنعام دائما في مواضع الكرم و الجود.

وهذا كما يبينه الإمام (ع) في هذا الدعاء الشريف، منشأ لكل الخيرات و البركات في الوجود كله.

(الحَمْدُ للهِ الَّذِي لا يُهْتَكُ حِجابُهُ):

هذا الحجاب الذي يتكلم عنه الإمام (ع) هنا، هو حجاب العفو و الستر و الرحمة المرخى على العباد كلهم.

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾(النساء/١٤٧).

وهو الذي كتبه اللّه تعالى لعباده على نفسه، كما يقول عز من قائل ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(الأنعام/٥٤)

ونقرأ في الدعاء الوارد على لسان النبي الأكرم (ص) علمه لأمير المؤمنين (ع): (سبحان من لا يعتدي على أهل مملكته، سبحان من لا يأخذ أهل الأرض بألوان العذاب، سبحان الرؤوف الرحيم) [١٦٨]

فهذا هو حجاب الرحمة والكرم والعناية الإلهية، الذي لولاه لما ارتفعت السماوات و لا انبسطت الأرض، و لا جرى الهواء ولا كان الماء، و لما استقام أمر الكائنات كلها.

و قد جرت مشيئة اللّه تعالى أن يصان هذا الحجاب من الهتك و أن يحفظ من التعدي و التجاوز، لينعم العباد بالأمن و يستشعروا الأمان.

و في الحقيقة، فإن هتك حجاب اللّه تعالى أمر محال، لأنه يعني وقوع التبدل والانفعال في ذات اللّه عز و جل، وهذا محال، و كل ما يقتضي المحال فهو محال مثله.

و لذلك يجزم الإمام (ع) و يصرح بإيمان راسخ، بأن حجاب اللّه سبحانه لا يهتك مطلقا، إذ لا سبيل إلى ذلك أبدا.

---

[١٦٨] مستدرك الوسائل - الميرزا النوري - ج ٥ - (٥٣٩١ / ١٢) ص ٧٨

(وَ لا يُغْلَقُ بابُهُ):

فبابه تبارك وتعالى مفتوح للسائلين، و نيله متاح للطالبين، و حلمه معترض لمن ناوأه، و عادته الإحسان إلى المسيئين، فتبارك ربنا ذو الجلال و الإكرام.

إنه باب الرحمة الإلهية، الذي ينشر على الخلائق كلهم، كرما و جودا و مغفرة و رضوانا.

حاشا لوجهه الكريم أن يغلق على عباده أبواب رحمته، وقد دعاهم إلى مائدة بره و إحسانه، فقال تعالى ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾(النساء/٣٢). و لكن ما عذر من أغفل دخول الباب بعد فتحه ؟! أو التمس الهدى من غيره ؟!

(وَ لا يُرَدُّ سائِلُهُ):

وكيف يرد من وفد على أكرم الأكرمين، الذي له ملك السماوات والأرضين ؟! وهل رد السائل إلا انعكاس للخسة والدناءة، أو خضوع للفقر و العوز ؟!

واللّه سبحانه وتعالى هو المنزه عن نقص و المتعالي فوق كل عيب، و القاهر لكل شئ، و هو الغني الحميد.

كلا و حياضك يا ربي مترعة في ضنك المحول، و بابك مفتوح للطلب و الوغول، و أنت غاية المسؤول و نهاية المأمول.

(وَ لا يُخَيِّبُ آمِلُهُ):

إن من عقد الأمل باللّه وحده، إنما يندفع من إيمان صادق باللّه سبحانه، و قد أحسن باللّه ظنه، و اللّه تعالى عند حسن ظن عبده به، وللّه المثل الأعلى، فحاشا له سبحانه أن يخيب حسن ظن عبده به، وقد قال رسول اللّه (ص) يحكي عن ربه: (أنا عند حسن ظن عبدي بي) و ورد عن الإمام الصادق (ع): (حسن الظن أصله من حسن إيمان المرء)[١٦٩]

---

[١٦٩] مستدرك الوسائل - الميرزا النوري - ج ١١ - ص ٢٥١

الفصل الرابع عشر / عناية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين من عباده، و نصرهم له، من أسباب رفع الظلم عن المؤمنين.

فكل ظلم وكل عدوان يقع بين الناس، له وجهان:

الوجه الأول / الظالم الباغي، الذي يمارس العدوان.

الوجه الثاني / المظلوم، الذي يتجرع مرارة الظلم والعدوان.

و ليشرق وجه الحياة بالبهجة المونقة، لا بد من أن تتدخل القدرة الإلهية، متجلية بالرحمة والرأفة من جهة، و بالعزة و القهر من الجهة الأخرى.

ولكي يعم الرخاء و يسود في الناس، لا بد من العمل على الجبهتين معا.

فيد تمسح على جراح المظلومين، وتأخذ بأيديهم إلى الأمان والسعادة.

و اليد الأخرى تقمع الظالمين، و تكبلهم و تردعهم عن البغي و العدوان.

فتدخل الله سبحانه على الصعيدين، في آن واحد، يعني أن يكون تعالى رحيما رؤوفا من جهة، وأن يكون عزيزا شديد العقاب من الجهة الأخرى، هو من التجليات الواقعية لأسماء الله الحسنى، والتي يشير إليها الإمام (ع) في مطلع هذا الدعاء الشريف.

(الحَمْدُ للهِ الَّذِي يُؤْمِنُ الخائِفِينَ):

ونجد هذا المعنى في كتاب الله المجيد، إذ يقول تبارك و تعالى (الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي)(المائدة/٣) ويقول عز من قائل (ثُمَّ أَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ)(التوبة/٢٦) ويقول تعالى (إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ)(الأنفال/١١).

فالخوف حالة طبيعية، تنتاب الإنسان في مواطن الخطر، وبما أن المؤمن يحمل رسالة الله على عاتقه، ليبلغها إلى الناس كافة، فإنه بالتالي يعرض نفسه للخطر في غالب الأحوال.

وهنا تمتد يد الله الرحمة الإلهية لتمسح على قلب العبد المؤمن، فتملأه سكينة وأمنا وإيمانا بأنه لن يصيب الإنسان إلا ما كتب الله له.

ويقول العلامة الطباطبائي أعلا الله مقامه عند تفسيره لقوله تعالى (فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْسًا وَلاَ رَهَقًا)(الجن/١٣): ومن يؤمن بربه، فلا يخاف نقصانا في خير أو

غشيانا من مكروه، حتى يكف عن المبادرة والاستعجال ويتروى في الاقدام عليه، لئلا يقع في بخس أو رهق.[١٧٠]

وأما سماحة آية الله ناصر مكارم الشيرازي (أدام الله عزه) فإنه يقول: وعلى هذا الأساس، فإن وجد في أحد الخوف من غير الله، كان ذلك دليلا على نقصان إيمانه، وتأثره بالوساوس الشيطانية، لأننا نعلم أنه لا ملجأ و لا مؤثر بالذات في هذا الكون العريض سوى الله، الذي ليس لأحد قدرة في مقابل قدرته.

وأساسا لو أن المؤمنين قارنوا وليهم، وهو الله سبحانه، بولي المشركين والمنافقين، الذي هو الشيطان، لعلموا أنهم لا يملكون تجاه الله أية قدرة، ولهذا لا يخافونهم قيد شعرة.

وخلاصة هذا الكلام ونتيجته هي أن الإيمان أينما كان، كانت معه الشجاعة و الشهامة، فهما توأمان لا يفترقان.[١٧١]

ويشهد على صدق هذا المعنى قوله تعالى ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(الأنعام/٨١).

(وَ يُنَجِّي الصَّالِحِينَ):

وهذا المعنى أيضا نجده في كتاب الله العزيز، إذ يقول سبحانه ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾(يونس/١٠٣)، و يقول في قصة ذي النون (ع) إذ اشتد به البلاء ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنبياء٨٧- ٨٨).

وإذا كان هذا وعدا من الله تعالى، و الله لا يخلف الميعاد، فكيف يمكن أن يبقى الصالحون يكابدون الذل و المهانة ويتجرعون كؤوس الآلام، تحت أيدي الجبابرة الظالمين؟!

(وَ يَرْفَعُ الْمُسْتَضْعَفِينَ):

وكلمة (استضعاف) من الفعل الثلاثي المزيد على وزن (استفعال) تأتي بمعنى الاستحقار، فـ(استضعفته) تعني استحقرته لضعفه.[١٧٢]

---

[١٧٠] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٢٠ - ص ٤٥
[١٧١] تفسير الأمثل - الشيخ ناصر مكارم الشيرازي - ج ٣ - ص ١٠
[١٧٢] كتاب (نزهة الطرف شرح بناء الأفعال في علم الصرف) للبيضاني ص٦٤

ولما كان فعل الإستضعاف، يوهم بأن المستضعف حقير، وضيع، دان، فقد جاء تعبير الإمام (ع) في هذه الفقرة، بفعل (يرفع) (يرفع المستضعفين).

وفي التعبير القرآني، ما يؤيد ذلك، إذ يقول تعالى عن فرعون و قد استضعف بني إسرائيل ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾(القصص/٤) ويقول عز من قائل ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ. أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾(الزخرف/٥٢).

إلا أن عناية الله تعالى تحف بالمستضعفين، فهو سبحانه معهم، ينصرهم ويؤيدهم، وقد دلت الآيات الشريفة على هذا المعنى، فقال سبحانه ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾(القصص٥-٦) و قال تعالى ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾(الأعراف/١٣٧) وقال سبحانه ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(الأنفال/٢٦).

(وَ يَضَعُ المُسْتَكْبِرِينَ):

كان الحديث في الفقرات السابقة من هذا الفصل من الدعاء الشريف، يدور حول اليد الرحيمة التي يمسح بها الله سبحانه على جروح المستضعفين و آلامهم.

وفي هذه الفقرة نرى يد القهر و العزة الإلهية، التي تضرب بقوة على طغيان المستكبرين الظالمين.

وقد رأينا أن القرآن الكريم يصف فرعون بأنه ﴿علا في الأرض﴾ وأنه كان ﴿عاليا من المسرفين﴾(الدخان/٣١).

فكان لا بد من إرجاعه إلى حقيقته، وأنه ليس إلا طينا في سلالة من ماء مهين، و أنه هلوع جزوع، لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، فجاء تعبير الإمام (ع) بقوله (يضع المستكبرين).

ويحدثنا القرآن الكريم عن عاقبة المستكبرين، فيقول عن فرعون وجنوده ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾(القصص/٤٢).

فالمستكبرون وإن طال بهم الأمد، يصبحون محل اللعن في الدنيا، ويلقون الخزي و يلحقهم العار، قبل أن يصلوا إلى عذاب الآخرة، حيث تسوء وجوههم وتقبح صورهم وهم يعرضون على النار و يقال لهم ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾(الأحقاف/٢٠).

(وَ يُهْلِكُ مُلوكا وَ يَسْتَخْلِفُ آخَرِين):

فالله سبحانه هو مالك الملك، يؤتي ملكه من يشاء وينزعه عمن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، وهو على كل شئ قدير.

فكم يحمل لنا التاريخ من قصص وأخبار، تحكي عن أناس ملكوا دهرا وعاشوا عمرا، فما لبثوا أن صاروا أثرا بعد عين، و هذه آيات سورة الفجر المباركة تخبرنا عن قوم عاد و ثمود، وعن فرعون ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ. إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ. وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ. الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ. فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ. إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(الفجر/٦-١٤).

وتحكي لنا الآيات الكريمة قصة فرعون واستكباره وعلوه ومن ثم هلاكه ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾(المؤمنون/٤٥-٤٨).

هكذا جرت سنة الله عز و جل، أن ينزل العذاب على كل من ظلم و فسق عن أمره تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾(القصص/٥٨).

وتدور رحى الأيام، فيضع الله تعالى المستكبرين، و يرفع المستضعفين، و يجعلهم ملوكا بعد أن كانوا مملوكين ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾(الأعراف/١٣٧).

الفصل الخامس عشر / من صفات اللّه العليا أنه سبحانه وتعالى (ذو نقمة من المجرمين).

وكما حدثنا الإمام (ع) في الفصل السابق عن صفة اللّه تعالى بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم، فكذلك يحدثنا هنا عن التجلي الآخر لأسماء اللّه سبحانه و تعالى.

فهنا يتجلى اللّه تعالى بكونه (أعظم المتجبرين) لأن هذا من مواضع الكبرياء و العظمة.

وكما قلنا فإن للظلم وجهان، وجه يمثل الفاعل، و الآخر يمثل من يقع عليه الفعل، فمتى وجد الظالم وجد المظلوم.

(الحَمْدُ للهِ قاصِمِ الجَبّارين):

كلمة (قصم) تعني في اللغة العربية دق الشئ و كسره حتى يبين.[١٧٣]

ويخبرنا القرآن الكريم عن قوم عاد وقوم ثمود و عن فرعون ونمرود وعن سائر الطواغيت والجبابرة، بأنهم عاثوا في الأرض فسادا وتجبروا فيها واستكبروا وكذبوا بآيات اللّه، فانظر كيف أخذهم اللّه أخذ عزيز مقتدر.

إن التعبير بكلمة (الجبارين) الذي هو على وزن (فعّال) جمع تكسير و يفيد الكثرة، يوحي بكثير من الظلم و العدوان والطغيان، وتجاوز الحرمات وارتكاب الآثام.

و كما يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي: الجبار: العاتي على ربه، القتال لرعيته، الذي لا يقبل موعظة أحد.[١٧٤]

ولذلك جاء التعبير بكلمة (قاصم) بما تحمل من أشد معاني الإنتقام و أبشعها، ليتناسب مع كلمة (الجبارين).

وكما أن (الجبار) لا يخفي شيئا من سوء أعماله، بل هو يسعى إلى إظهار جرائمه و قبائحه، ليرهب الناس و يتجبر بذلك عليهم، فكذلك كان يجب للعقاب أن يكون ظاهرا بينا لا يخفى على أحد من الناس.

(مُبيرِ الظّالمين):

لا شك في أن الظلم قبيح جدا، واللّه لا يحب الظالمين، وقد توعد عليه العقاب في الدنيا و في الآخرة.

---

[١٧٣] كتاب العين – الفراهيدي ج ٥ ص٧٠والصحاح - الجوهري ج ٥ ص٢٠١٣

[١٧٤] كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج ٦ - ص ١١٧

بل إن القرآن الكريم يعتبر الشرك إمعان في الظلم، فيقول على لسان لقمان الحكيم (ع) ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(لقمان/١٣).

إلا أن الظلم، كما يتبين من هذه الآية الشريفة، ذو مراتب ودرجات، فهو يتراوح بين الشدة والضعف، و إن كان كله قبيحا شائنا، و لا يجوز ارتكاب حتى أدنى درجة منه.

و تقول معاجم اللغة أن الظلم هو أخذ حق الآخرين[١٧٥]، وأصله وضع الشئ في غير موضعه.[١٧٦]

و يضع صاحب الفروق اللغوية بين أيدينا، سلما نقيس به درجة قبح الظلم بالقياس مع الأفعال القبيحة الأخرى، فيقول في الفرق بين الجور والظلم: أننا نقول ظلمني بدرهم ولا نقول جار علي بدرهم، فالظلم نقصان في الحق، و الجور عدول عن الحق، ونقيض الظلم هو الانصاف، و أما نقيض الجور فهو العدل.

ويقول في مقايسة الظلم بالبغي أن الظلم هو أخذ حق الغير، وأما البغي فهو شدة الطلب لما ليس بحق بالتغليب.

ويقول في الغشم بأنه عموم الظلم، ولذلك توصف به الولاة، فيقال للوالي الظالم أنه غاشم.

وأخيرا يقول في مقايسة الظلم بالهضم، بأن الهضم نقصان بعض الحق، والظلم يكون في البعض و الكل.[١٧٧]

ثم إن الظلم في الحقيقة ليس إلا سلاح العاجز، و حيلة الضعيف، ليصل إلى مآربه و يحقق أهدافه الدنيئة، وهذا ما يبينه لنا الإمام المعصوم (ع) في الدعاء الذي يرويه الشيخ الصدوق (.. و إنما يحتاج إلى الظلم الضعيف..)[١٧٨]

وهنا يتبين لنا السر في تعبير الإمام (ع) هنا في هذا الدعاء الشريف بقوله (مبير الظالمين).

إذ أن كلمة (مبير) مشتقة من (بور) التي هي بمعنى الهلاك و الفساد و الكساد.

فالإمام (ع) يقول أن اللّه تعالى بعظمته وعزته، يبطل كيد الظالمين، ويحبط مساعيهم، فتعود كل أعمالهم الدنيئة المتلبسة بالظلم، خائبة كاسدة، لا تنفعهم ولا توصلهم إلى تحقيق ما يريدون من الإستعلاء على الناس.[١٧٩]

---

[١٧٥] كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج ٨ - ص ١٦٣

[١٧٦] الصحاح - الجوهري - ج ٥ - ص ١٩٧٧

[١٧٧] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (٦٧٥) (١٣٦٨) (١٥٤٦) (٢٢٥٢)

[١٧٨] من لا يحضره الفقيه - الشيخ الصدوق - ج ١ - ص ٤٩١

(مُدرِكِ الهاربِينَ):

و أين المهرب يا إلهي من حكومتك، و كل ما في الوجود ملكك و في قبضتك، و لا منجا و لا ملجأ منك إلا إليك.

و لقد حاول ابن نبي اللّه نوح (ع) أن يهرب من عدل اللّه سبحانه، ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾(هود/٤٣).

وأراد فرعون أن يتحايل على اللّه تعالى، والقرآن الكريم يفضح مكره ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾(يونس٩٠-٩٢).

إن القرآن المجيد يضع لنا قاعدة عامة لا استثناء فيها ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾(النساء/٧٨) ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(البقرة/١٤٨).

(نَكالِ الظّالمِينَ):

يقول صاحب معجم مقاييس اللغة: النون والكاف واللام أصل صحيح يدل على منع وامتناع. وإليه يرجع فروعه.[١٨٠]

و (النكال) اسم لما جعلته نكالا لغيره، إذا بلغه، أو رآه خاف أن يعمل عمله، فالنكل ضرب من اللجم والقيود.[١٨١]

وهكذا يصبح حرمان اللّه تعالى للظالمين من بلوغ مآربهم الخبيثة وتحقيق أهدافهم الدنيئة، ثم عدم قدرة الظالمين على الفرار من حكومة اللّه تعالى، والهروب من عدله – يصبح كل ذلك – مانعا يقيد كل من تسول له نفسه بالظلم والطغيان، و رادعا لكل من يهم بالبغي و العدوان.

و بذلك يمحو اللّه تعالى الظلم من جذوره، و يقتلعه من أساسه، فلا يعود ينمو من جديد.

---

[١٧٩] كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج ٨ - ص ٢٨٥

[١٨٠] كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج ٥ - ص ٣٧١

[١٨١] معجم مقاييس اللغة - أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا - ج ٥ - ص ٤٧٣

وهذا في الحقيقة عنصر إضافي، جعله اللّه تعالى للناس، إلى جانب الرسالات السماوية والكتب والأنبياء والهداة عليهم السلام، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد.
ولكنه كغيره من عناصر الهداية، متوقف في تأثيره على تقبل الإنسان له، واعتبارهم بما يؤول إليه مصير الظلم والعدوان، و ما أكثر العبر و لا من معتبر ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾(النازعات٢٥-٢٦).

(صَرِيخ المُسْتَصرِخِين):

تقول معاجم اللغة العربية أن كلمة (صريخ) من الأضداد فهي تعني المغيث كما تعني المستغيث.[١٨٢]
و (المستصرخ) هو المستغيث.[١٨٣]
و بقرينة وجود كلمة (المستصرخين) يتحدد أن المعنى المراد من كلمة (صريخ) هنا هو المغيث.
فاللّه تعالى يدرك عباده و ينجيهم، إذا ما استغاثوا به وطلبوا نجدته، ولكن الإنسان الظلوم يعود بعد ذلك إلى غيه وشركه و ظلمه ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ. قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾(الأنعام٦٣-٦٤).
و قد خلدت صفحات التاريخ مواطن عديدة، مد فيها اللّه سبحانه يد العون لعباده المستضعفين، ليخلصهم من عدوان الظالمين المستكبرين ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾(إبراهيم/٦).
وكذلك يكون اللّه تعالى عند حاجة عبده إليه، في البأساء والضراء و حين البأس ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾(الأنفال/٩).

---

[١٨٢] كتاب العين - الفراهيدي ج ٤ ص١٨٥و الصحاح - الجوهري ج ١ ص٤٢٦
[١٨٣] كتاب العين - الفراهيدي ج ٤ ص١٨٥

(مَوْضِع حاجاتِ الطَّالِبِينَ):

فلكل كائن حاجة و طلبة، سواء أكان كائنا حيا أم جامدا، إذ أن لكل شئ ما به قوامه من جنسه و فصله، وبقاء هذا القوام حاجة ماسة لكل كائن، و من دونه ينتهي وجود ذلك الكائن ويؤول إلى العدم.

فمثلا نعلم أن الماء مكون من ذرتين من الهيدروجين وذرة من الأكسجين، فإذا زال أحد هذين العنصرين، فإن الماء ينعدم، فالماء إذن يحتاج إلى تركب هذين العنصرين بالنسبة المعينة.

وهكذا النبات والحيوان وجميع الكائنات، كلها تحتاج إلى عناصر وجودها و بقائها.

و اللهّ تعالى هو الذي خلق كل شئ، فأوجد له ما به قوام وجوده و بقائه، وهذا ما يبينه موسى (ع) لفرعون ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه/٥٠).

وهنا يؤكد الإمام (ع) أن المؤمن لا يطلب حاجة إلا من اللهّ تعالى وحده لا شريك له، لأنه سبحانه و تعالى هو (موضع حاجات الطالبين).

وهذا المعنى نجده أيضا في الدعاء الذي يرويه أبو بصير عن الإمام الصادق (ع) في شهر رمضان المبارك (اللهم إني بك ومنك أطلب حاجتي، و من طلب حاجته إلى الناس فاني لا أطلب حاجتي إلا منك، وحدك لا شريك لك..)[١٨٤]

وقد يتوهم البعض أن هذا يعني أن طلب الحوائج من الناس أو مراجعة أهل الاختصاص، كالطبيب والمهندس والفني وغيرهم، شرك باللهّ سبحانه، أو على أقل تقدير هو عدم توكل و اعتماد على اللهّ تعالى !!

ولكن القرآن الكريم صريح في تفنيد هذا الوهم، إذ يقول سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(المائدة/٣٥) فاللهّ تعالى يعتبر أن من تقوى العبد أن يبتغي إليه الوسيلة.

و في آية أخرى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾(النساء/٦٤).

و يستدل بهذه الآية المباركة على جواز التوسل بالنبي الأكرم (ص)، وينسحب هذا الحكم على التوسل بالأئمة المعصومين (ع) و الأولياء و الصالحين.

فإذا كان القرآن الكريم يدعونا إلى اتخاذ الوسائل لطلب المغفرة من اللهّ تعالى، فجواز اتخاذ الوسائل في غير هذا المورد أولى و أرجح.

---

[١٨٤] وسائل الشيعة (آل البيت) - الحر العاملي - ج ١٠ - ص ٣٢٥

والحقيقة هي أن اتخاذ هذه الوسائل ليس في عرض عبادة اللّه تعالى، ليكون شركا مع اللّه سبحانه، وإنما هو في طول توحيد اللّه وعبادته سبحانه.

وبعبارة أوضح: إن الرجوع إلى هذه الوسائل إنما هو بأمر اللّه تعالى و إذنه سبحانه، و لذلك فهو عبادة محضة وخالصة للّه وحده لا شريك له.

و مثاله في القرآن الكريم، سجود الملائكة (ع) لآدم (ع)، يقول سبحانه ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾(الكهف/٥٠) و في آية أخرى تصرح بكفر إبليس إذ لم يسجد لآدم (ع) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(البقرة/٣٤).

فالسجود لغير اللّه كفر، إلا أن اللّه تعالى حكم على إبليس بالكفر لعدم سجوده لآدم، ذلك لأن السجود كان بأمر اللّه تعالى، ومخالفة أمر اللّه كفر، فكان عدم السجود لآدم (ع) كفر صريح لا لبس فيه.

وهكذا اتخاذ الوسائل والرجوع إلى أهل الاختصاص في مختلف الشؤون، إنما هو أمر من اللّه تعالى، الذي أبى أن يجري الأمور إلا بأسبابها.

فإذا مرض الإنسان، فإن اللّه تعالى وإن كان قادرا على أن يشفيه دون أن يحرك ساكنا، ولكنه سبحانه أبى أن يجري الأمور إلا بأسبابها، ومن أسباب الشفاء، مراجعة الطبيب والخضوع للعلاج، و في الحالتين يصدق قوله اللّه تعالى ﴿وَ إِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(الشعراء/٨٠).

و الآية السابقة لهذه الآية تشهد على ذلك، إذ يقول عز وجل ﴿وَ الَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَ يَسْقِينِ﴾(الشعراء/٧٩) فنحن نشهد بأبصارنا ونعلم بوجداننا أن الإنسان يطعم نفسه أو يطعمه شخص يلي أمره إذا كان عاجزا.

فالآيتان تشيران إلى أن السبب الحقيقي في الشفاء والإطعام هو اللّه تعالى، وإن جرى ذلك على يد بعض خلقه، كما هو الحال في قبض الأرواح، فتارة تقول الآية الكريمة ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الزمر/٤٢) و تارة أخرى تقول ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾(السجدة/١١) و تارة ثالثة ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾(الأنعام/٦١) فالمتوفي الحقيقي هو اللّه سبحانه وتعالى، وإن أجرى ذلك على يد ملك الموت أو غيره من الملائكة.

و نخلص إلى القول بأن اتخاذ الوسائل ومراجعة أهل الاختصاص في مختلف الشؤون، إذا كان بناء على اعتقاد بأن اللّه تعالى هو العلة الوحيدة والحقيقية لكل شئ في الوجود، فإنه يكون رجوعا إلى اللّه تعالى و طلبا منه سبحانه وحده لا شريك له.

(مُعْتَمَدِ المُؤْمِنِينَ):

فالمؤمن ينظر في عواقب الأمور، ويدرس ملابسات قضيته، فإذا رسى تدبيره على أمر معين، أمضاه بكل اقتدار و ثبات، معتمدا على تأييد اللّه سبحانه و نصره له، وقد حث القرآن الكريم على ذلك فقال ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(آل عمران/١٥٩).

وهذا الذي قلناه قبل قليل من أن الإيمان باللّه تعالى لا يتعارض مع اتخاذ الوسائل، و تدبير الأمور، بل إنه ينسجم مع ذلك أتم انسجام.

فالمؤمن يمتاز على سائر الناس بأنه يضع كل رجائه و ثقته باللّه سبحانه ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(النساء/١٠٤).

الفصل السادس عشر / عظمة اللّه تعالى سبب لجريان الأمور على النحو الأحسن في الكون كله.

ذلك أن اللّه تعالى الذي أحسن كل شئ خلقه، و الذي أوحى إلى كل مخلوق أمره و أعطاه ما به قوامه ثم هداه، أراد بحكمته أن تعم رحمته على الوجود كله، إذ أنه سبحانه كتب على نفسه الرحمة، و للرحمة خلق الكون و ما فيه.

ولكن طبائع الأشياء وعجزها الذاتي الكامن فيها، وضعفها و قصورها، الذي هو جزء من ذواتها، فلا ينفك عنها أبدا. هذا كله قد يحدو بها نحو التخلف عن السير على النهج الذي أمرها اللّه به، و الوقوع في مخالفة أمره سبحانه.

وإذ كان هذا يعرضها لغضب جبار السماوات و الأرض، ويرحمها من رحمته و لطفه تعالى، فقد آثرت الكائنات كلها أن تستجيب لأمر اللّه طائعة خاضعة ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(فصلت١١-١٢) ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾(الرعد/١٣).

ومن اللافت للنظر أن القرآن الكريم في كثير من السور الشريفة، يمهد لدعوة الإنسان إلى الخضوع لأمر اللّه واتباع نهجه الذي ارتضاه له، بسرد مجمل تارة و مفصل أخرى، عن تسبيح الكائنات من أجرام سماوية و بحار و جبال، للّه سبحانه وتعالى.

ففي سورة فصلت المباركة، وبعد هذه الآيات التي تتحدث عن بدء خلق السموات والأرض، يقول تعالى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ. إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾(فصلت١٣-١٤).

و تستهل سورة الجمعة ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(الجمعة١-٢).

وتفتتح سورة التغابن ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(التغابن١-٢).

وفي ذلك إشارة واضحة أن و دعوة صريحة للإنسان أن يختار ما اختاره الله لجميع خلقه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(المائدة/٣).

فالكائنات كلها تعبد الله سبحانه طائعة، كما يؤكد القرآن الكريم، فما بال الإنسان لا يكون كذلك، و هو سيد الكائنات و خليفة الله في أرضه، فينبغي أن يكون سباقا إلى الحق و الصواب، و إلا فإنه لن يكون جديرا بمقام الخلافة.

(الحَمدُ للهِ الَّذي مِنْ خَشْيَتِهِ تَرْعَدُ السَّماءُ وَ سُكّانُها):

و لكل شئ في الوجود، طريقته الخاصة به لعبادة الله واتباع أمره، وهذا ما يعبر عنه الله تبارك و تعالى في كتابه المجيد إذ يقول ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(الإسراء/٤٤).

فحركة الشمس و القمر و جريان الرياح و قيام السماوات وانبساط الأرض، و دمدمة الرعد و إنارة البرق، و تحقيق كل شئ لما هو مخلوق لأجله، كإرواء الماء للعطش، و إحراق النار للأشياء، و ما إلى ذلك، هذه كلها عبادة الكائنات لله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(النور/٤١).

فالإمام (ع) يتحدث عن مدى تغلغل الخوف في عمق السماوات و جميع المخلوقات التي تسكنها، مما نعرفه كالطيور التي تسكن في جو السماء، و ما لا نعرفه من مخلوقات السماء، فكلمة (ترعد) تعني أنها تضطرب و ترجرج، كما يقول علماء اللغة.[١٨٥]

وهذا الخوف هو العامل المؤثر الذي يجعل الكائنات كلها مؤتمرة خاضعة لله عز و جل.

وأعتقد أن استعمال الإمام (ع) لكلمة (ترعد) في التعبير عن خوف السماء وخشيتها، إنما هو لصدور صوت الرعد منها، واقتران ظاهرة الرعد بالسماء في الأذهان.

---

[١٨٥] كتاب العين - الفراهيدي ج ٢ ص٣٣ والصحاح - الجوهري ج ٢ ص٤٧٥ ومعجم مقاييس اللغة - أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا ج ٢ ص٤١١

(وَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَ عُمَّارُها):

وعندما يتحدث الإمام (ع) عن خوف الأرض وخشيتها، فإنه يقول (ترجف) إشارة إلى الزلازل التي تهتز لها الأرض.

وكما أن السماء و سكانها، ينزهون اللّه تعالى ويعظمونه ويأتمرون بأمره، خوفا و فرقا من غضبه و عقابه تعالى، فكذلك تسبح الأرض و من عليها، و تمجد اللّه سبحانه، وتخضع لأمره وحكمه.

(وتَمُوجُ البِحارُ ومَنْ يَسْبَحُ فِي غَمَراتِها):

وكذلك تتناغم البحار و من فيها من المخلوقات، مع هذا التسبيح الكوني، الذي تعزف فيه الكائنات ألحان الخضوع والخشوع لهيبة اللّه و كبريائه.

و في تعبير الإمام (ع) عن خوف الكائنات كلها، بهذا التنوع في المظهر، فالسماء ترعد، والأرض ترجف، والبحار تموج.. يشير إلى ما قلناه من أن عبادة كل كائن بحسبه، و لكل موجود طريقته التي يعبد بها اللّه سبحانه.

والدافع الوحيد الذي يحرك كل الكائنات، العظيم منها والحقير، نحو عبادة اللّه تعالى، وحده لا شريك له، هو الخوف والخشية والخضوع لهيبة اللّه تعالى.

ولنلاحظ أن الإمام (ع) لم يستعمل كلمة (الخوف) بل قال عليه السلام (من خشيته)، والفرق بينهما كما يقول العسكري استخلاصا لما يقوله الشيخ الطوسي قدس سره (الخشية حالة تحصل عند الشعور بعظمة الخالق و هيبته و خوف الحجب عنه، و هذه حالة لا تحصل إلا لمن اطلع على حال الكبرياء و ذاق لذة القرب، و لذا قال تعالى ﴿إنما يخشى اللّه من عباده العلماء﴾).[١٨٦]

---

[١٨٦] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (٨٥٠) ص ٢١٨

الفصل السابع عشر / إن غنى الخالق و افتقار المخلوق، يمثلان طرفي المعادلة، التي بموجبها يعم الخير أرجاء الكون كله.
فما من صعيد في الوجود إلا و يتجلى فيه غنى اللّه سبحانه، و عدم احتياجه إلى شئ أبدا، و في المقابل يتبدى فقر المخلوق واحتياجه إلى كل شئ.
و تكون النتيجة أن يسبغ ذلك الخالق الغني الرحيم الكريم القادر على كل شئ، أنواع النعم و صنوف الهبات والعطايا على جميع خلقه.

(الحَمْدُ للهِ الَّذي هَدانا لِهذا):
هذه الفقرة مقتبسة من القرآن الكريم بحرفها و معناها، فهي آية في كتاب اللّه تعالى ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(الأعراف/٤٣).
و يرى العلامة الطباطبائي قدس سره الشريف، أن توصيف اللّه سبحانه وتحميده عز و جل ، ليس بالقضية الهينة، التي يمكن أن يصيبها كل من أراد، وإنما هو اصطفاء من اللّه سبحانه لخاصة عباده، الذين يرتضيهم لتحميده، فيطهرهم من كل دنس و اعتقاد باطل وعمل سئ، فصح منهم التحميد ويقع توصيفهم للّه سبحانه موقعه، قال اللّه تبارك وتعالى ﴿سبحان اللّه عما يصفون إلا عباد اللّه المخلصين﴾(الصافات١٦٠).[١٨٧]
فالإمام (عليه السلام) يحمد اللّه تعالى أن أعانه وهداه إلى حمده وشكره والثناء عليه سبحانه و تعالى.
والقرآن الكريم يحكي لنا في قصة نبي اللّه سليمان (ع) أنه سأل اللّه تعالى أن يهديه إلى شكره سبحانه، يقول عز من قائل ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾(النمل/١٩).
ونجد هذا المعنى في مناجاة الشاكرين الوارد عن الإمام زين العابدين وسيد الساجدين (ع) (جللتني نعمُك من أنوار الإيمان حللا، وضربت علي لطائفُ برك من العز كللا وقلدتني مننُك قلائد لا تحل، وطوقتني أطواقا لا تفل، فآلاؤك جمة ضعف لساني عن إحصائها، ونعماؤك كثيرة قصر فهمي عن إدراكها فضلا عن استقصائها.

---
[١٨٧] راجع تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٨ - ص ١١٦

فكيف لي بتحصيل الشكر وشكري إياك يفتقر إلى شكر. فكلما قلت لك الحمد، وجب علي لذلك أن أقول لك الحمد)[١٨٨]

(وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ):

وهذه الفقرة تتمة للفقرة الأولى، كما وردت في الآية المباركة وهي كما يقول العلامة الطباطبائي قدس سره الشريف إشارة إلى اختصاص الهداية به تعالى فليس إلى الانسان من الأمر شيء.[١٨٩]

و كثيرا ما ينسب القرآن الكريم الهداية إلى اللّه سبحانه، بل ويصرفها حتى عن أنبيائه الكرام (ع).

فالهدف المعلن لبعثة الأنبياء و المرسلين (ع) هو هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور و إرشادهم إلى صراط العزيز الحميد، يقول سبحانه ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الشورى/٥٢).

و لكننا نجد أيضا آيات كثيرة تخالف ظاهرا هذا المعنى، فهي تجرد النبي الأكرم (ص) من دور الهداية ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾(البقرة/٢٧٢) ويقول عز من قائل ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾(القصص/٥٦).

وفي الجمع بين هذه الآيات المتعارضة في ظاهرها نرجع إلى المفسرين الأعلام، لنقف على الحقيقة.

يقول العلامة الطباطبائي قدس سره: (والآيات كما ترى تنسب الهداية إلى القرآن وإلى الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم في عين أنها ترجعها إلى اللّه سبحانه فهو الهادي حقيقة وغيره سبب ظاهري مسخر لإحياء أمر الهداية).[١٩٠]

ويقول في موضع آخر (فإن الآية انما تنفي أصالته صلى اللّه عليه وآله وسلم في الهداية واستقلاله فيها من غير أن تنفي عنه مطلق الهداية).[١٩١]

ويقول سماحة آية اللّه العظمى الشيخ مكارم أدام اللّه عزه: (إذن، وبناء على ما تقدم، ليس المقصود من الهداية " إراءة الطريق ". لأن إراءة الطريق هي من وظيفة النبي (ص)، وتشمل جميع الناس دون استثناء. بل المقصود من الهداية هنا هو "

---

[١٨٨] الصحيفة السجادية ــ مناجاة الشاكرين.
[١٨٩] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٨ - ص ١١٦
[١٩٠] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٥ - ص ٢٤٥
[١٩١] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ١٢ - ص ٧

الإيصال للمطلوب والهدف ". والإيصال إلى المطلوب وإلى الهدف هو بيد الله وحده، الذي يغرس الإيمان في القلوب، وليس هذا العمل اعتباطا ودون حساب، فهو تعالى ينظر إلى القلوب المهيأة والمستعدة ليهبها نور السماء).[١٩٢]

ونقرأ في تفسير تسنيم: أن النبي الأكرم (ص) مكلف بالهداية التشريعية التي بمعنى التلاوة، و التعليم، والتزكية، و الدعوة إلى الله تعالى، و إجراء الواجبات الإلهية، والحدود الشرعية، وقد أدى صلى الله عليه وآله وسلم دوره هذا باقتدار تام.

وأما الهداية الباطنية، والتي يصطلح عليها بالهداية التكوينية، فهي ليست من وظائفه (ص)، بل هي خارجة عن اختياره.

ومن هنا فإن الله تعالى يقول في كتابه الحكيم ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(يونس٩٩).

فلو أن الله تعالى أراد أن يؤمن الناس كلهم، لما أمكن إلا أن يكونوا مؤمنين، لأن إرادة الله التكوينية غير قابلة للتخلف.

و لكن إرادة الله تعالى قضت بإيمان الناس أحرارا من غير إجبار ومن ثم فإن النبي الأكرم (ص) أيضا لا يستطيع تكوينا أن يكره الناس على الإيمان.[١٩٣]

(الحَمْدُ لله الَّذي يَخْلُقُ وَلَمْ يُخْلَقْ):

ابتداء من نقطة الصفر، نجد الغنى والفقر، واضحان جليان، فالله تعالى لا يحتاج إلى خالق، بينما يحتاج غيره إلى من يخلقه، فكان أن تفضل الله سبحانه على كل شئ بالخلق والإيجاد، وإلا لما وجد من المخلوقين شئ أبدا.

إن القدرة على الخلق، تمتاز بقيمة كبيرة في القرآن الكريم، فهي تصلح لأن تكون فيصلا بين الإله و غيره، و مائزا بين الرب و المربوب، كما في قوله تعالى ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(الأعراف/١٩١).

و يجعلها القرآن الكريم في كثير من آياته حدا وسطا في القياس البرهاني المؤدي إلى وجوب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، كما يقول سبحانه ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(الأعراف/٥٤) فالأمر لله وحده لأنه هو وحده الخالق.

---

[١٩٢] تفسير الأمثل - الشيخ ناصر مكارم الشيرازي - ج ١٢ - ص ٢٦٠

[١٩٣] تفسير تسنيم ج١٢ ص٤٧٩

و لا شك في أن من يخلق أفضل و أعلى من لا يخلق ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾(النحل/١٧).

ونقول استطرادا بأن هذه الفقرة تستبطن في داخلها الإشارة إلى برهان الإمكان، الذي يستدل به على وجود اللّه تعالى. و تقريره على النحو التالي:

يقول الشيخ مكارم (دامت بركاته) في تفسيره لقوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(فاطر/١٥): إن جميع الموجودات التي نراها في هذا العالم كانت كلها ذات يوم " عدما "، ثم اكتست بلباس الوجود، أو بتعبير أدق: كان يوم لم تكن شيئا فيه، ثم صارت وجودا، وهذا بحد ذاته دليل على أنها معلولة في وجودها لوجود آخر، وليس لها وجود من ذاتها.

ونعلم بأن أي وجود معلول، مرتبط وقائم بعلته وكله احتياج، وإذا كانت تلك العلة أيضا معلولة لعلة أخرى فإنها بدورها ستكون محتاجة، ولو تسلسل هذا الأمر إلى ما لا نهاية فسوف تكون الحصيلة مجموعة من الموجودات المحتاجة الفقيرة، وبديهي أن مجموعة كهذه لن يكون لها وجود أبدا، لأن منتهى الاحتياج احتياج، ومنتهى الفقر فقر وما لا نهاية له من الأصفار لا يمكن أن يحصل منه أي عدد، كما أنه ما لا نهاية له من المرتبطات بغيرها لا تنتج أي حالة استقلال.[194]

فالأمام (ع) هنا صريح بأن مبدأ الوجود و منشأه هو اللّه سبحانه وتعالى، الذي إليه تنتهي كل الموجودات الممكنة.

(وَ يرزُقُ وَ لا يُرزَقُ):

وكذلك نالت قضية الرزق أيضا قسطا وافرا من اهتمام القرآن الكريم، باعتبار أن مصدر الرزق بكل أنواعه و لجميع الخلائق هو اللّه سبحانه و تعالى، فهو وحده القادر على ذلك، لأنه هو وحده المالك لكل شئ، فهو الغني الحميد، ثم هو وحده العالم بما يحتاج إليه كل مخلوق على حدة، فلا يعطي أحدا شيئا يضره أو لا ينفعه.

ومن الآيات القرآنية الشريفة ما هو ناظر إلى توحيد اللّه تعالى، فيعتبر كون الرزق من عند اللّه وحده دليلا على وجوب عبادته وحده، ونفي الشركاء عنه سبحانه ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة/٢٢) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾(النحل/٧٣) ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ

---

[194] تفسير الأمثل - الشيخ ناصر مكارم الشيرازي - ج ١٤ - ص ٥٦

مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(العنكبوت/١٧).

ومن الآيات الحكيمة ما ينظر إلى مشيئته سبحانه وأنه إنما يرزق عباده، متفضلا منعما، من غير استحقاق لأحد عليه سبحانه ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(البقرة/٢١٢).

و منها ما يشير إلى حكمة الله تعالى و علمه بخلقه، فيرزقهم بما ينفعهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾(الإسراء/٣٠) ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾(الشورى/٢٧).

و منها ما يؤكد على قدرة الله تعالى على ذلك ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾(الشورى/١٩).

وقد سبق و أن قلنا بأن (الرزق) عام يشمل كل ما يؤتاه الإنسان، من طعام وشراب ومال وزوجة وولد وعلم وإيمان...

(وَ يُطْعِمُ وَ لا يُطْعَمُ):

وقد وردت هذه العبارة في آية من القرآن الحكيم، إذ يقول سبحانه ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(الأنعام/١٤).

ويقول العلامة الطباطبائي (طيب الله ثراه) في بيان تخصيص الإطعام بالذكر من دون سائر النعم الإلهية في هذه الآية المباركة: أن اختصاص الإطعام من بين نعمه تعالى على كثرتها بالذكر، إنما العناية فيه كون الإطعام بحسب النظر الساذج أوضح حوائج الحيوان العائش و منه الانسان.[١٩٥]

وتجدر الإشارة إلى أن ذكر (الإطعام) بعد ذكر (الرزق) هنا في هذا الدعاء الشريف، إنما هو من باب ذكر الخاص بعد العام، لعناية خاصة بالإطعام، باعتبار أن التغذي من أوسع وأظهر حوائج الإنسان و غيره من الكائنات الحية.

و في ذلك تناسب مع محور هذا الفصل، الذي يعنى ببيان غنى الخالق و فقر المخلوق، كما قلنا.

---

[١٩٥] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ٧ - ص ٣٢

(وَ يُمِيتُ الأَحْيَاءَ):

وهذه ثالثة الأثافي في قضية غنى الخالق و فقر الرب. فبعد أن ذكر الإمام (ع) قدرة اللّه تعالى على إيجاد الخلق، و ذكر بعد ذلك قدرته سبحانه على الرزق، هنا أتى على ذكر قدرته عز وجل على الإماتة و الإحياء.

وهذه الثلاثة قد ذكرت في القرآن الكريم أيضا وبهذا الترتيب فقال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الروم/٤٠). إنه اللّه سبحانه الذي يقدر على كل ذلك، وحده لا شريك له.

وترتب هذه الأمور الثلاثة، ملحوظ فيه ترتبها الزمني. فالكائنات تبدأ في أول أمرها بالإيجاد والخلق، ثم تحتاج إلى البقاء و الاستمرار، ثم ينتابها الفناء و الزوال.

و إذ كانت المخلوقات كلها لا تملك الوجود بذاتها، و إنما تتنعم به هبة من اللّه تعالى، فهي لا تملك أن تدفع عن نفسها الموت و الفناء، متى ما أراد لها اللّه تعالى أن تموت.

(وَ يُحْيِي المَوْتَى):

و لكم شكك الكفار و الجهال، في إمكانية رجوع الموتى بعد اندثار أجسادهم و اهتراء عظامهم ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾(الإسراء/٤٩).

فجاء الرد القرآني حاسما لا يدع للشك مجالا ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا. أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾(الإسراء-٥٠-٥١).

فلا كلام و لا نقاش في قدرة اللّه تعالى على إحياء الموتى، فلو كانوا حجارة أو حديدا أو أي شئ آخر لبعثهم اللّه تعالى أحياء كما كانوا.

لأن اللّه تعالى الذي خلقهم أول مرة من غير صورة أو مثال، قادر على إعادة خلقهم مرات و مرات، و إنما جعل لذلك و قتا معدودا بحكمته و إرادته سبحانه و تعالى.

والقرآن الكريم يعرض قضية الإماتة و الإحياء في صور عدة، فتارة يقدمها على أنها تجل لولاية اللّه تعالى ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الشورى/٩).

وتارة أخرى يقدمها في سياق المحاججة على أنه الإله الخالق الذي لا ينبغي عبادة غيره ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(البقرة/٢٨)

و في سياق ثالث يعتبرها عقيدة توجب الطمأنينة في قلوب المؤمنين بها وتدفعهم إلى التسليم لقضاء اللّه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا

لأخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحي ويميت والله بما تعملون بصير﴾(آل عمران/١٥٦).

(و هو حي لا يموت):

فهو عز و جل إنما يحيي الموتى و يميت الأحياء، لأنه سبحانه ذاتي الوجود، خالق الموت و الحياة ﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور﴾(الملك١-٢).

و هذا التعبير مقتبس من القرآن الكريم، إذ يقول تعالى ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا﴾(الفرقان/٥٨).

فهي حقيقة يقررها القرآن المجيد في قوله سبحانه ﴿ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾(القصص/٨٨).

(بيده الخير):

وقد وردت في القرآن الكريم بهذا المعنى آية واحدة تأمر النبي الأكرم (ص) أن يناجي الله تعالى ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾(آل عمران/٢٦).

و إذ كان الخلق و الرزق و الإحياء و الإماتة، كل ذلك بيد الله سبحانه و تعالى، و تحت سلطانه، أمكن للجاهل أن يتوهم بأن الله تعالى قد يحرم البعض من تلك النعم الجسيمة، فسارع الإمام (ع) إلى التأكيد بحقيقة إيمانه بأن الله عز وجل هو منشأ الخير و البركة في الوجود كله.

يقول سماحة آية الله جوادي آملي (حفظه الله ورعاه) أن كل ما يأتي من عند الله فهو خير محض، لأن ما عند الله تعالى لا يمكن أن يكون مشوبا بالشر أبدا.[١٩٦]

و قد انقسم الحكماء في تعريف الشر على قولين:

بعض يقول بأن الشر أمر عدمي، بمعنى أنه عدم الخير، فالمرض مثلا هو عدم العافية، والفقر هو عدم الغنى.. والعدم لا يحتاج إلى موجد لأنه ليس موجودا، وهذا يعني أن الشر لا ينسب إلى الله تعالى، أي أن الله تعالى لم يخلق الشر، فلا يقال بأن هذا الشر من الله تعالى.

---

[١٩٦] تفسير تسنيم ج٤(عربي) ص٧٣٤

والبعض الآخر يقول بأن الشر أمر نسبي، فلدغة العقرب التي هي شر للملدوغ، هو من الجهة الأخرى خير للعقرب، لأنه يحقق بها كماله.

وهذا يعني أن نسبة الشر إلى اللّه تعالى إنما تصح بهذا اللحاظ، فهي لوازم تفاوت الماهيات بين الأشياء.

وخلاصة القول بأن اللّه تعالى لم يخلق الشر و ما عنده سبحانه ليس إلا الخير المحض، و إنما قد يبدو في صورة الشر في بعض الأحيان، و ما ذلك إلا لاختلاف طبائع الأشياء، فالماء يظهر قوته و غلبته بإطفاء النار، فهو مظهر خير للماء، ولكنه مظهر شر للنار، فهي تموت وتفنى بفعل الماء

(وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ):

لا يحده شئ، و لا يمنعه شئ، و لا يعييه شئ، سبحانه وتعالى، هو القاهر فوق عباده و هو الحكيم الخبير.

والقرآن الكريم يحكي لنا عن قدرة اللّه تعالى، و يصورها لنا على مختلف الأصعدة:

فهو القادر على إحياء الموتى ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(البقرة/٢٥٩).

وهو القادر الذي بيده الملك و العزة ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(آل عمران/٢٦).

وهو القادر على كشف البأساء و الضراء ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الأنعام/١٧).

وهو القادر الذي أحاط علمه بكل شئ كما يقول سبحانه ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(آل عمران/٢٩)

وهو القادر الذي يبعث الناس ليوم الحساب ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(النحل/٧٧).

وهو القادر الذي له ملك كل شئ ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(المائدة/١٢٠).

الفصل الثامن عشر / التقرب إلى الله تعالى بأفضل خلقه. قبل عرض المسألة العظيمة، إذ لا إنكار على أن الله تعالى يحب ما خلق أمورا، و لا يحب أمورا أخرى، بل و يمقت بعضا منها.

و قد صرحت الآيات الشريفة، ببعض مواضع حب الله تعالى، فمنها قوله سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(البقرة/١٩٥).

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(البقرة/٢٢٢).

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾(آل عمران/٧٦).

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(آل عمران/١٣٤).

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾(آل عمران/١٤٦).

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(آل عمران/١٥٩).

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(المائدة/٤٢).

كما صرحت الآيات المباركة ببعض مواضع عدم حب الله تعالى، و منها:

﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾(البقرة/٢٧٦).

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾(آل عمران/٣٢).

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾(النساء/٣٦).

﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾(النساء/١٠٧).

﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾(البقرة/٢٠٥).

﴿وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(البقرة/١٩٠).

﴿وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾(آل عمران/٥٧).

و أما مواضع مقت الله سبحانه، فمنها:

﴿وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلاً﴾(النساء/٢٢).

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا﴾(فاطر/٣٩).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾(غافر/١٠).

﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾(غافر/٣٥).

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾(الصف/٣).

ثم إن اللهّ سبحانه قد دلنا بكرمه ولطفه، على سبيل الفوز بحبه تبارك اسمه، فقال تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(المائدة/٥٤)
﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(آل عمران/٣١).
كما بين لنا سبحانه أن له من عباده صفوة اجتباهم واختارهم على العالمين، و خصهم بمنزلة القرب منه، و دعا سائر عباده إلى اتخاذهم وسيلة إليه سبحانه، فقال تعالى:
﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(آل عمران/٣٣).
﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾(النساء/٦٤).
وبهذا الاستعراض القرآني، نصل إلى أن اللهّ تعالى، الذي هو قريب من عباده، يستجيب دعاءهم و يسمع نداءهم، يريد أن يتقرب إليه عبده بما يحبه رب العزة و الجلال، لذلك قال سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(المائدة/٣٥) و أمر المذنبين إذا أرادوا التوبة إلى اللهّ تعالى، أن يأتوه من باب نبي الرحمة الكريم على اللهّ تعالى، و وعدهم بأن يقبل اللهّ توبتهم ويغفر لهم ذنوبهم، كرامة لنبيه (ص).
ونؤسس للمسألة فنقول: إن جعل اللهّ تعالى الأنبياء والمرسلين والأئمة الطاهرين، صلوات اللهّ وسلامه عليهم أجمعين، وسائل إليه، و أبوابا لرحمته و كرامته، إنما هو لإعلاء شأنهم و بيان قربهم من اللهّ سبحانه، و عظيم منزلتهم عنده.
فإذا عرف الناس علو شأنهم صلوات اللهّ عليهم، مالوا إلى اتباعهم و السير على نهجهم.
فإذا فعلوا ذلك، فازوا بحب اللهّ و رضوانه سبحانه، يقول تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(آل عمران/٣١).

(اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ):

فكان البدء بدعاء لا يرد، بل هو سبب في استجابة الدعاء كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأربعمائة قال: صلوا على محمد وآل محمد فإن اللّه تعالى يقبل دعاءكم عند ذكر محمد (ص).[197]

بل وإن الدعاء لا يصل إلى أعتاب القدس إلا بالصلاة على النبي وآله، فعن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال (لا يزال الدعاء محجوبا عن السماء حتى يصلي على محمد و آل محمد عليهم السلام).[198]

ويقول العلامة الطباطبائي (أعلا اللّه مقامه)، في بيان معنى الصلاة على النبي وآله: (أن أصل الصلاة الإنعطاف، فصلاته تعالى إنعطافه عليه بالرحمة إنعطافا مطلقا لم يقيد في الآية بشئ دون شئ، وكذلك صلاة الملائكة عليه إنعطاف عليه بالتزكية والإستغفار، و هي من المؤمنين الدعاء بالرحمة).[199]

وقد ورد الأمر بالصلاة على النبي الأكرم (ص) في القرآن الكريم، في آية صريحة، إذ يقول سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(الأحزاب/٥٦).

و يذكر سماحة آية اللّه العظمى الشيخ مكارم روايات عدة وردت في كتب الفريقين، حول الصلاة على النبي الأكرم (ص) فيقول: فقد روي في " الدر المنثور " عن صحيح البخاري و مسلم وسنن أبي داود و الترمذي و النسائي و ابن ماجة و ابن مردويه و رواة آخرين عن كعب بن عجرة: أن رجلا أتى إلى النبي (صلى اللّه عليه وآله) فقال: أما السلام عليك فقد علمناه فكيف الصلاة عليك ؟ فقال النبي (صلى اللّه عليه وآله): (قل اللهم صل على محمد و على آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد).

وقد أورد صاحب تفسير الدر المنثور ثمانية عشر حديثا آخر إضافة إلى هذا الحديث، صرحت جميعا بوجوب ذكر " آل محمد " عند الصلوات.

و روى ابن حجر في الصواعق: أن النبي (ص) قال: (لا تصلوا علي الصلاة البتراء، فقالوا: و ما الصلاة البتراء ؟

---

[197] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ١٦ - ص ٣٤٣ - ٣٤٤

[198] الأمالي للطوسي - ج٢ ص٢٥٣

[199] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ١٦ - ص ٣٣٨

قال: تقولون: اللهم صل على محمد و تمسكون، بل قولوا: اللهم صل على على محمد و آل محمد)[٢٠٠]

(عَبْدِكَ):
أن يوصف الإنسان بالعبودية، فذلك من أسوأ الصفات وأخسها.
إلا أن يكون تعبيرا عن العبودية لله تعالى، فإنها عندئذ تصبح من أروع الصفات و أعلاها.
ولذلك فإن الله سبحانه عندما أراد أن يظهر كرامة النبي الأكرم (ص) عليه و قرب منزلته منه، وقد عرج به إلى سمائه، وأدناه منه، حتى كان قاب قوسين أو أدنى، هناك وفي ذلك العلو و الرفعة، قلد نبيه الأكرم (ص) وسام العبودية، و منحه لقب العبد ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾(النجم/١٠).
ومن هنا فإن الإمام (ع) يصف النبي الأكرم (ص) أول ما يصفه، بالعبودية، مقدما لهذه الصفة على سائر الصفات الكريمة.
و يتراءى لي أن الإمام (ع) تعمد ترتيب هذه الصفات الكريمة وفق الأفضلية، فكل صفة متقدمة بالذكر أعلى وأسمى من الصفة التي تليها، بل و تقوم عليها.
و هنا ينبغي أن نلفت النظر إلى أن العبودية صفة الكائنات كلها، كبيرها و صغيرها، عظيمها و حقيرها، على حد السواء ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَانِ عَبْدًا﴾(مريم/٩٣).
فتوصيف النبي الأكرم (ص) بالعبودية، و هو في تلك المنزلة من القرب (فكان قاب قوسين أو أدنى) إنما هو بالمعنى الأخص للعبودية، و هي المقام الأعلى و الأسمى الذي يمكن أن يصل إليه أحد من عباد الله سبحانه و تعالى.
و بهذا المعنى يتبين أن مرتبة العبودية هذه، أعلى من سائر المراتب و المقامات التي بلغها حتى الأنبياء و المرسلون.
بل وإن النبي الأكرم (ص) كان متصفا بسائر صفاته الكريمة قبل أن يتقلد وسام العبودية لله عز و جل، فكان رسولا قبل أن يكون عبدا.

---

[٢٠٠] تفسير الأمثل - الشيخ ناصر مكارم الشيرازي - ج ١٣ - ص ٣٤٢

(وَ رَسُولِكَ):
و هذه الصفة لنبي اللّه (ص) كادت أن تصبح علما عليه (ص) لكثرة ما خوطب بها، من قبل اللّه تعالى و من قبل الناس.
والفرق بين (النبوة) و (الرسالة) كما يبينه لنا صاحب الفروق اللغوية، فيقول: الفرق بين النبي و الرسول: أن النبي لا يكون إلا صاحب معجزة وقد يكون الرسول رسولا لغير اللّه تعالى فلا يكون صاحب معجزة.
والإنباء عن الشئ قد يكون من غير تحميل النبأ، والإرسال لا يكون إلا بتحميل.
و النبوة يغلب عليها الإضافة إلى النبي فيقال نبوة النبي لأنه يستحق منها الصفة التي هي على طريقة الفاعل، والرسالة تضاف إلى اللّه لأنه المرسل بها ولهذا قال برسالتي ولم يقل بنبوتي.
والرسالة جملة من البيان يحملها القائم بها ليؤديها إلى غيره، والنبوة تكليف القيام بالرسالة فيجوز إبلاغ الرسالات ولا يجوز إبلاغ النبوات.
وقيل: الرسول أخص من النبي لأن كل رسول نبي من غير عكس.
وقيل: الرسول من بعثه اللّه بشريعة جديدة يدعو الناس إليها، والنبي: من بعثه لتقرير شريعة سابقة كأنبياء بني إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام. ويدل عليه أنه عليه السلام سئل عن الأنبياء فقال: مئة ألف وأربعة وعشرون ألفا. فقيل: فكم الرسل منهم ؟ فقال: ثلاث مئة و ثلاثة عشر.
و عن زرارة قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن قوله اللّه تعالى: ﴿وكان رسولا نبيا﴾ ما الرسول ؟ وما النبي ؟.
قال: النبي: الذي يرى في منامه و يسمع الصوت و لا يعاين الملك، و الرسول: الذي يسمع الصوت و يرى في المنام و يعاين الملك.[٢٠١]
وبناء على ما قلناه من ترتب الصفات و الكمالات، فقد كان النبي الأكرم (ص) أمينا قبل أن يكون رسولا.

(وَ أَمِينِكَ):
و إذ قد علم اللّه سبحانه منه (ص) الأمانة، التي ليس نظير في الوجود كله، حمله أمانته العظيمة، التي أبت أن تحملها السماوات و الأرض و الجبال، على عظيم قوتها وضخامة حجمها. وأشفقن منها.

---

[٢٠١] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (٢١٣٧) (٢١٣٨) ص٥٣٠

فاختار اللّه سبحانه لهذه الأمانة العظيمة، أنبياءه و رسله الكرام ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(الأنعام/١٢٤).

فالنبي الأكرم (ص) كان منتخبا من قبل اللّه عز وجل اصطفاه و اختاره قبل أن يحمله أمانته، فيجعله أمينا على رسالته إلى عباده.

(وَ صَفِيِّكَ):

والقرآن الكريم يحدثنا عن اصطفاء اللّه سبحانه لبعض عباده الكرام، و تخصيصهم بالنبوة و الرسالة، وإيتائهم فضله، برحمته و حكمته ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(آل عمران/٣٣) و ﴿قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(الأعراف/١٤٤) ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(آل عمران/٧٤).

وليس لأحد أن يعترض على اصطفاء اللّه سبحانه لمن يشاء من عباده ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ. أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾(الزخرف٣١-٣٢) ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ. يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾(الحج٧٥-٧٦).

و من هنا نقول بأن اللّه عز و جل أحب أنبياءه و رسله الكرام صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين، لما وجد فيهم من الكمالات و الصفات العالية، التي امتازوا بها على العالمين فاصطفاهم على سائر عباده، فأتمنهم على رسالاته.

و يمكن استنباط هذا المعنى من قوله تعالى ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(البقرة/١٢٤)

فبعد أن تعرض إبراهيم (ع) للعظيم من الإبتلاء، فانكشف معدنه الثمين، وصبره وإيمانه العميق باللّه عز و جل، رفع اللّه سبحانه منزلته و جعله للناس إماما.

و يتأكد هذا المعنى بقوله عز من قائل ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(السجدة/٢٤).

(وَ حَبِيبِكَ):

و بهذه الصفة يختم الإمام (ع) شوطا من ذكر الصفات العالية التي يتصف بها النبي الأكرم (ص).

فهو (ع) في هذا الشوط يستعرض الصفات التي تنسب النبي الحبيب (ص) إلى اللّه تعالى، لا إلى ما ينسب إلى اللّه عز وجل، كما سيأتينا بعد قليل.
ولا شك أن الانتساب إلى اللّه تعالى بصورة مباشرة أعظم من الإنتساب إليه مع الواسطة، ولذلك قدم الإمام (ع) في هذا الدعاء الشريف، الصفات السامية التي تنسب النبي الأكرم (ص) إلى اللّه عز و جل بصورة مباشرة.
و نلاحظ أن القرآن الكريم لم يصف النبي الأكرم (ص) بأنه حبيب اللّه سبحانه، و لعل ذلك يوحي بأن مقام (الحبيب) مستدرك بالصفات الكريمة التي ذكرتها الآيات الشريفة لسائر الأنبياء والرسل، والتي تستبطن هذا المقام له (ص).
و قد تكون الحكمة في ذلك أن القرآن الكريم، أراد تجنب إثارة الطعن من قبل المشركين و المشككين في كل زمان، فيقولوا بأن النبي الأكرم (ص) يمتدح نفسه و يمجد ذاته !!
فالقرآن الكريم يصف الأنبياء والمرسلين (ع) بصفات حميدة كريمة، في كثير من آياته المباركة، منها:
﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(الشعراء/١٠٧)، و قد وردت هذه الآية الشريفة في وصف نوح و هود و صالح و لوط و شعيب وموسى عليهم السلام.
﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(آل عمران/٣٣).
﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾(مريم٥١-٥٢).
﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا﴾(مريم/٥٤).
﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا. وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾(مريم٥٦-٥٧).
﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا. وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾(مريم٤٩-٥٠).
و لكن القرآن الكريم في وصفه النبي الأكرم (ص) الذي هو سيد رسل اللّه و خاتم أنبيائه، نراه يسلك طريقا آخر، فهو يصفه (ص) بأكرم الصفات فيما يتعلق بعلاقته مع الناس ومن ذلك قوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(التوبة/١٢٨) و يقول سبحانه ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾(آل عمران/١٥٩).
وبصورة إجمالية فإن اللّه سبحانه يمتدح أخلاق نبيه الأكرم (ص) فيصفه بقوله عز من قائل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم/٤).

فأما إذا أرادت الآيات الشريفة أن تصف النبي الأكرم (ص) في ما بينه و بين اللّه سبحانه، فإنها تكتفي بالقول بأنه (ص) رسول اللّه و خاتم النبيين ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾(الأحزاب/٤٠). و أنه صلوات اللّه عليه يدعو إلى اللّه سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾(الأحزاب/٤٦).

و أفضل ما وصف اللّه سبحانه و تعالى به النبي الأكرم (ص) في القرآن الحكيم هو أنه (عبده).

إلا أن القرآن الكريم لم يغفل أن يبين أن طريق محبة اللّه تبارك و تعالى، و الفوز بالمغفرة، لا يمكن إلا أن يمر من خلال اتباع النبي الأكرم (ص) و العمل بطاعته (ص) ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(آل عمران/٣١).

(وَ خِيَرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ):

و بهذه الفقرة يبدأ الشوط الثاني من ذكر الصفات العالية للنبي الأكرم (ص).

و أولها أنه (ص) أفضل خلق اللّه تعالى على الإطلاق، ولذلك فهو الذي اختاره اللّه سبحانه لخاتم رسالته وجعله سيد أنبيائه وصفوة خلقه.

و القرآن الكريم يصرح بأن اللّه سبحانه و تعالى ميز بعض خلقه على بعضهم، فاختار منهم بمشيئته و حكمته، من حباه بالخصوصية و شرف المنزلة.

فقد خص اللّه تعالى من بين سائر الأشهر أربعة سماها بالحرم ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾(التوبة/٣٦)

كما شرف تعالى أرضا بعينها على سائر الأراضي ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾(طه/١٢).

و خص يوم الجمعة من سائر الأيام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(الجمعة/٩).

وشرف ليلة على سائر الليالي ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾(الدخان/٣).

واصطفى أفرادا بأشخاصهم ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(آل عمران٣٣-٣٤).

واختار موسى (ع) على قومه ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾(طه/١٣).

فالقاعدة الكلية هي ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(القصص/٦٨).
وهذا يقودنا إلى فهم قول الإمام (ع) في هذه الفقرة من الدعاء الشريف (خيرتك من خلقك) في وصف النبي الأكرم صلى اللهّ عليه وآله و سلم.
وبينما كانت صفة (صفيك) ناظرة إلى ذات النبي الأكرم (ص) من دون النظر إلى سائر ما خلق اللهّ تعالى.
تأتي عبارة (خيرتك من خلقك) لتعقد مقارنة بين النبي الأكرم (ص) و سائر الخلق، و تحكم بأنه (ص) أفضل ما خلق اللهّ سبحانه، من الأولين و الآخرين.
فهو صلى اللهّ عليه و آله و سلم بكونه خيرة اللهّ من خلقه، صار حبيب اللهّ و صفيه.

(وَ حافِظَ سِرِّكَ):
إنه سر اللهّ تعالى، و من ثم فلا يمكننا أن نقف عليه أو نعرفه إلا بالرجوع إلى من أودع هذا السر العظيم، و هم أهل بيت النبوة صلوات اللهّ وسلامه عليهم.
وقد ورد عن أهل بيت العصمة والطهارة (ع) أحاديث كثيرة تشير إلى ذلك السر، منها:
ورد في كتاب كمال الدين و تمام النعمة بإسناده إلى ابن عباس قال: قال رسول اللهّ (ص): إن علي بن أبي طالب (ع) إمام أمتي و خليفتي عليها من بعدى، ومن ولده القائم المنتظر الذي يملأ اللهّ به الأرض عدلا و قسطا كما ملئت جورا و ظلما، و الذي بعثني بالحق بشيرا ونذيرا، إن الثابتين على القول به في زمان غيبته لأعز من الكبريت الأحمر.
فقام إليه جابر بن عبد اللهّ الأنصاري فقال: يا رسول اللهّ وللقائم من ولدك غيبة ؟
قال (ص): أي وربي و ليمحص اللهّ الذين آمنوا و يمحق الكافرين، يا جابر إن هذا الأمر من اللهّ، وسر من سر اللهّ، مطوي عن عباد اللهّ، فإياك والشك فيه، فإن الشك في أمر اللهّ عز وجل كفر.[٢٠٢]
و عن أبي جعفر عليه السلام قال: (نحن شجرة النبوة و بيت الرحمة ومفاتيح الحكمة ومعدن العلم وموضع الرسالة ومختلف الملائكة وموضع سر اللهّ..)[٢٠٣]

---

[٢٠٢] ص٥٣٠ تفسير نور الثقلين - الشيخ الحويزي - ج ١ - ص ٣٩٥
[٢٠٣] بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار - ص ٧٧

و عن أبي الجارود عن أبي جعفر (ع) قال: (إن رسول اللهّ (ص) دعا عليا (ع) في المرض الذي توفي فيه فقال: (يا علي أدن مني حتى أسر إليك ما أسر اللهّ إلي وأئتمنك على ما ائتمنني اللهّ عليه) ففعل ذلك رسول اللهّ (ص) بعلي (ع) وفعله علي (ع) بالحسن و فعله الحسن بالحسين و فعله الحسين بأبي و فعله أبي بي)[٢٠٤]

و عن خيثمة قال: قال لي أبو عبد اللهّ عليه السلام: (يا خيثمة نحن شجرة النبوة، وبيت الرحمة، ومفاتيح الحكمة، ومعدن العلم، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، و موضع سر اللهّ...)[٢٠٥]

ويروي المفضل بن عمر قال: قال أبو عبد اللهّ (ع): (من دان اللهّ بغير سماع عن صادق ألزمه اللهّ إلى العناء، و من ادعى سماعا من غير الباب الذي فتحه اللهّ فهو مشرك و ذلك الباب المأمون على سر اللهّ المكنون)[٢٠٦]

و عن محمد بن عبد الخالق و أبي بصير قال: قال أبو عبد اللهّ عليه السلام: (يا أبا محمد إن عندنا و اللهّ سرا من سر اللهّ، وعلما من علم اللهّ، واللهّ ما يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن امتحن اللهّ قلبه للايمان، واللهّ ما كلف اللهّ ذلك أحدا غيرنا، ولا استعبد بذلك أحدا غيرنا.

وإن عندنا سرا من سر اللهّ وعلما من علم اللهّ، أمرنا اللهّ بتبليغه، فبلغنا عن اللهّ عز و جل ما أمرنا بتبليغه..).[٢٠٧]

عن أمير المؤمنين (عليه السلام)، قال: أنا حجة اللهّ، وأنا خليفة اللهّ، وأنا صراط اللهّ، وأنا باب اللهّ، وأنا خازن علم اللهّ وأنا المؤتمن على سر اللهّ، و أنا إمام البرية بعد خير الخليقة محمد نبي الرحمة (ص)[٢٠٨]

و يروي الشيخ الصدوق عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في القدر أنه (سلام اللهّ عليه) قال: ألا إن القدر سر من سر اللهّ وستر من ستر اللهّ، وحرز من حرز اللهّ، مرفوع في حجاب اللهّ، مطوي عن خلق اللهّ مختوم بخاتم اللهّ، سابق في علم اللهّ، وضع اللهّ عن العباد علمه و رفعه فوق شهاداتهم، لأنهم لا ينالونه بحقيقته الربانية، ولا بقدرته الصمدانية ولا بعظمته النورانية، و لا بعزته الوحدانية، لأنه بحر زاخر مواج خالص للهّ تعالى، عمقه ما بين السماء و الأرض، عرضه ما بين المشرق و المغرب، أسود كالليل

---

[٢٠٤] بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار - ص٣٩٧
[٢٠٥] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٢٢١
[٢٠٦] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٣٧٧
[٢٠٧] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٤٠٢
[٢٠٨] الأمالي - الشيخ الصدوق - ص ٨٨

الدامس، كثير الحيات والحيتان، يعلو مرة و يسفل أخرى، في قعره شمس تضئ لا ينبغي أن يطلع إليها إلا الواحد الفرد، فمن تطلع عليها فقد ضاد اللّه في حكمه، و نازعه في سلطانه، و كشف عن سره و ستره، و باء بغضب من اللّه، و مأواه جهنم و بئس المصير.[٢٠٩]

و قد ورد في الزيارة الجامعة الكبيرة (السلام على محال معرفة اللّه ومساكن بركة اللّه ومعادن حكمة اللّه وحفظة سر اللّه و حملة كتاب اللّه و أوصياء نبي اللّه، و ذرية رسول اللّه، صلى عليه و آله و سلم، و رحمة اللّه و بركاته).[٢١٠]

كما و يذكر الأجلاء من المفسرين في جملة الأقوال التي تفسر الأحرف المقطعة التي تفتتح بها بعض السور القرآنية المباركة، أنها سر من أسرار اللّه تعالى.

هذا غيض من فيض ما يمكننا أن نطلع عليه من ذلك السر المكنون، الذي أودعه اللّه سبحانه وتعالى عند خاصة أوليائه و ما خفي علينا أعظم و أكبر.

و أقول بأن كون النبي الأكرم (ص) حافظا لسر اللّه تعالى، له معنى في غاية العمق.
فالحفظ نقيض النسيان، و هو من تعاهد الشئ في كل حين فإذا أردنا أن نتلمس هذا المعنى في الوجود المبارك للنبي الأكرم (ص)، نجده (ص) المصداق الأجلى و النوذج الأكمل في الوجود كله، للمذكر باللّه تعالى، فهو كما وصفه تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾(الأحزاب٤٥-٤٦).

فهو (ص)، حافظ لسر اللّه تعالى بتمام وجوده المبارك و بكل كيانه المقدس. و بذلك يكون النبي الأكرم (ص) أمين اللّه تعالى في أرضه ومؤتمنه على سره.

(وَ مُبَلِّغ رِسالاتِكِ):

إن تبليغ رسالات اللّه سبحانه و تعالى هي مهمة الأنبياء (عليهم السلام) فكل رسول كريم يأتي قومه برسالة من اللّه تعالى، فيبلغها إليهم، و يدعوهم إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له.

و آيات القرآن المجيد ناطقة بذلك، إذ يقول سبحانه ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا. إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا. لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾(الجن٢٦-٢٨) ويقول عز من قائل ﴿قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي

[٢٠٩] الاعتقادات في دين الإمامية - الشيخ الصدوق - ص ٣٤ - ٣٥
[٢١٠] عيون أخبار الرضا (ع) - الشيخ الصدوق - ج ١ - ص٣٠٥

ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(الأعراف٦١-٦٢).

بل إن القرآن صريح بأن دور الرسل ينتهي عند إبلاغ رسالات الله سبحانه إلى الناس ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾(الرعد/٤٠) ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾(النحل/٣٥) ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾(التغابن/١٢).

وبما أن طريق إبلاغ رسالات السماء محفوف بكثير من الأهوال و التحديات، مما يتطلب تسديدا من الله تعالى وتأييدا منه سبحانه، فقد وعد الله به رسله ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(المائدة/٦٧).

وإذ كان النبي الأكرم (ص) حبيب الله تعالى و صفيه و أمينه و رسوله، فقد صح أن يكون قد بلغ رسالات ربه، على أتم وجه و أفضل صورة.

و يعلمنا الإمام زين العابدين (ع) أن نبتهل إلى الله تعالى ليجزي عنا نبينا الأكرم (ص) أفضل الجزاء على ما بلغ فينا من رسالات الله سبحانه، فيقول عليه السلام في آخر مقطع من دعائه (ع) عند ختم القرآن: (وصل اللهم على محمد وآله صلاة تبلغه بها أفضل ما يأمل من خيرك وفضلك وكرامتك، إنك ذو رحمة واسعة وفضل كريم. اللهم اجزه بما بلغ من رسالاتك، وأدى من آياتك، ونصح لعبادك، وجاهد في سبيلك، أفضل ما جزيت أحدا من ملائكتك المقربين، وأنبيائك المرسلين المصطفين، والسلام عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين ورحمة الله وبركاته)[211]

(أَفْضَلَ وَ أَحْسَنَ، وَ أَجْمَلَ وَ أَكْمَلَ، وَ أَزْكَى وَ أَنْمَى، وَ أَطْيَبَ وَأَطْهَرَ، وَ أَسْنَى وَ أَكْثَرَ):

ما هو الجزاء الذي يبتهل الإمام (ع) في هذا الدعاء إلى الله تعالى أن يعطيه لنبيه الأكرم (ص).

إنها الصلاة عليه (ص)، و كل صلوات الله سبحانه على أي من عباده عظيمة جليلة. إلا أن هذه الصلاة التي يسأل الإمام ربه أن يصلي بها على نبينا الأكرم (ص)، صلاة خاصة، ليست كأي صلاة أخرى.

---

[211] الصحيفة السجادية (ابطحي) - الإمام زين العابدين (ع) - ص ١٩٨ - ١٩٩

إنها صلاة من اللّه سبحانه، تتميز على كل صلاة منه تعالى، في جميع أبعادها وآثارها، ظاهرا و باطنا.
فهي متميزة في زيادة كميتها (أفضل)، كما هي في زيادة كيفيتها (أحسن).
و تتميز في جمال مظهرها (أجمل) كما هي في كمال محتواها (أكمل).
و تتميز في رشدها الذاتي الداخلي (أزكى) وكذلك في رشدها العارض الخارجي (أنمى).
و تتميز في نقائها الظاهري (أطيب) فضلا عن نقائها الباطني (أطهر).
و تتميز في ظهورها بالغلبة (أسنى) و كذلك في ظهورها بالكثرة (أكثر).
كل هذا التميز، و في جميع هذه الأصعدة، بل وأكثر من ذلك، لتكون صلاة تفوق مجموع الصلاة و البركات و الترحم و التحنن و التسليم، الذي آتاه اللّه سبحانه للخواص الكرام من خلقه، وبعبارة مختصرة، هي صلاة تنطوي على كل ما أكرم اللّه سبحانه به أحدا من خلقه، و تفوق كل كرامة آتاها سبحانه أحدا من صفوته و خاصته من خلقه.

(ما صَلَّيْتَ وَ بارَكْتَ وَ تَرَحَّمْتَ وَ تَحَنَّنْتَ وَ سَلَّمْتَ):

و القرآن المجيد يخبرنا بأن اللّه سبحانه و تعالى قد صلى و بارك وترحم و تحنن و سلم على من شاء من عباده، فالآيات الكريمة ناطقة بذلك، و منها:

﴿أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ﴾(البقرة/١٥٧).

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾(هود/٧٣).

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾(الأحزاب/٤٣).

﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾(الصافات/٧٩)

﴿سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾(الصافات/١٠٩)

﴿سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾(الصافات/١٢٠)

﴿سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾(الصافات/١٣٠)

﴿وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾(الصافات/١٨١).

﴿قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾(النمل/٥٩)

﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾(الصافات/١١٣).

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾(مريم/٣١).

﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾(مريم/١٣).

وردت في تفسير نور الثقلين رواية عن الكافي الشريف تبين معنى (حنانا): عن أبي حمزة عن أبي جعفر (ع) قال: قلت: فما عنى بقوله في يحيى ﴿وحنانا من لدنا وزكاة﴾ قال: تحنن الله، قلت: فما بلغ من تحنن الله عليه ؟ قال: كان إذا قال: يا رب، قال الله عز وجل: لبيك يا يحيى.[٢١٢]

(عَلى أَحَدٍ مِنْ عِبادِكَ وَ أَنْبِيائِكَ وَ رُسُلِكَ وَ صَفْوَتِكَ وَ أَهْلِ الْكَرامَةِ عَلَيْكَ مِنْ خَلْقِكَ):

و كلمة (عباد) هنا بمعناها العام، فهي تشمل جميع الخلق كما قال تعالى ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الأنعام/٨٨) وقال على لسان عيسى بن مريم (ع) ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(المائدة/١١٨).

فإذا تبين لنا معنى كلمة (عبادك) هنا، عرفنا السر في ترتيبها في العبارة، فهي مرتبة عامة تقل شأنا بلا شك عن مرتبة (النبوة) التي بدورها مرتبة دون (الرسالة).

و أما مرتبة (الصفوة) فيمكن أن يكون المقصود بها هنا الخيرة من الرسل، لا من جميع الخلق، فالصفوة بذلك هم أفضل الرسل، كما يقول تعالى ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾(البقرة/٢٥٣).

و هكذا يأتي مقام (أهل الكرامة على الله) ليشير إلى الصفوة الصافية، والنخبة العالية من خواص خلق الله سبحانه، فهم في أعلى سلم الكرامة على الله تعالى.

وبذلك نصل إلى أن الإمام (ع) يسأل الله تعالى أن يجعل نبينا الأكرم (ص) في أعلى قمة هرم أهل الكرامة على الله تعالى.

(اللهم وَ صَلِّ عَلى عَلِيٍّ):

إذا أردنا أن نعرف عليا (ع) فإن الباب الوحيد الذي ينبغي أن نطرقه لنسأل عنه (ع) هو باب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأن حقيقة علي (عليه السلام) سر من أسرار الله، لا يعرفها إلا الله و رسوله.

---

[٢١٢] تفسير نور الثقلين - الشيخ الحويزي - ج ٣ - ص ٣٢٧

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث طويل يقول فيه (يا علي من قتلك فقد قتلني ومن أبغضك فقد أبغضني، ومن سبك فقد سبني، لأنك مني كنفسي، روحك من روحي و طينتك من طينتي).[٢١٣]

وعن أبي ذر: أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول في علي: (أنت أول من آمن بي، و أنت أول من يصافحني يوم القيامة، و أنت الصديق الأكبر، و أنت الفاروق تفرق بين الحق و الباطل، و أنت يعسوب المؤمنين)

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: صلت الملائكة علي و على علي سبع سنين، و ذلك أنه لم يرفع إلى السماء شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله إلا مني و من علي).[٢١٤]

و قال (ص): (علي مع الحق والحق مع علي يدور حيثما دار)[٢١٥]

(أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ):

يقول الشيخ الطبرسي طيب الله ثراه: (و لقبه أمير المؤمنين خصه النبي صلى الله عليه وآله وسلم به لما قال: (سلموا على علي بإمرة المؤمنين).

في إشارة لما أورده الكليني في الكافي الشريف، و الشيخ المفيد في إرشاده، في سياق خطبة الغدير، التي نصب رسول الله (ص) فيها عليا (ع) وصيا له و خليفة من بعده.

ولم يجوز أصحابنا رضي الله عنهم أن يطلق هذا اللفظ لغيره من الأئمة عليهم السلام وقالوا: إنه انفرد بهذا التلقيب فلا يجوز أن يشاركه في ذلك غيره.[٢١٦]

و نجد هنا أيضا الدقة و العناية الفائقة من قبل الإمام (ع) في هذا الدعاء الشريف، في ترتيب العبارات والصفات العالية للإمام علي (ع)، تماما كما رأينا ذلك في ترتيب صفات النبي الأكرم (ص) من قبل.

فيبدأ (ع) بذكر اسمه المبارك (علي) صلوات الله وسلامه عليه، ثم يثني عليه السلام بذكر ألقابه الشريفة (أمير المؤمنين) و (الوصي).

---

[٢١٣] تفسير نور الثقلين - الشيخ الحويزي - ج ١ - ص ٣٤٩

[٢١٤] إعلام الورى بأعلام الهدى - الشيخ الطبرسي - ج ١ - ص ٣٦٠

[٢١٥] إعلام الورى بأعلام الهدى - الشيخ الطبرسي - ج ١ - ص ٣١٦

[٢١٦] إعلام الورى بأعلام الهدى - الشيخ الطبرسي - ج ١ - ص ٣٠٧

(وَ وَصِيِّ رَسُولِ رَبِّ العالَمِينَ):
يورد العلامة الطباطبائي (رضوان الله عليه) عند تفسيره لقوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾(الشعراء/٢١٤) وفي علل الشرائع بإسناده عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: لما نزلت ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ أي رهطك المخلصين دعا رسول الله (ص) بني عبد المطلب و هم إذ ذاك أربعون رجلا يزيدون ر جلا و ينقصون رجلا فقال: أيكم يكون أخي و وارثي و وزيري و وصيي وخليفتي فيكم بعدي، فعرض عليهم ذلك رجلا رجلا كلهم يأبى ذلك حتى أتى علي فقلت: أنا يا رسول الله. فقال: يا بني عبد المطلب هذا وارثي و وزيري و خليفتي فيكم بعدي فقام القوم يضحك بعضهم إلى بعض و يقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع و تطيع لهذا الغلام.[٢١٧]

(عَبْدِكَ):
وبعد أن ذكر الإمام (ع) ألقاب الإمام علي (ع). شرع في ذكر صفاته العالية.
ومن صفاته (ع) ما هو ناظر إلى رب العزة و الجلال، و منها ما هو ناظر إلى النبي الأكرم (ص)، و منها ما هو ناظر إلى سائر الأشياء، الدنيوية منها و الأخروية.
و أول الصفات أعلاها و أسماها، و من المقطوع به أن لا صفة أعلى من صفة (العبودية لله عز و جل) فهي الشرف كل الشرف، و هي العزة كل العزة.
و كما كان أعظم صفات الرسول الأكرم (ص) أنه (عبد الله تعالى) فكذلك كانت هذه أعظم صفات من هو منه كنفسه (ص).

(وَ وَلِيِّكَ):
و تلي (العبودية لله) صفة (الولاية الله تعالى)، و هي صفة لا ينالها إلا المتقون، كما يقول عز من قائل ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الأنفال/٣٤).
والولي هو الناصر[٢١٨] والقريب[٢١٩] و يقول صاحب الفروق اللغوية أن الولي هو الذي يقدم النصرة لمحبة المنصور لا للرياء والسمعة.[٢٢٠]

---

[٢١٧] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ١٥ - ص ٣٣٦
[٢١٨] الصحاح - الجوهري - ج ٦ - ص ٢٥٢٩
[٢١٩] معجم مقاييس اللغة - أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا - ج ٦ - ص ١٤١
[٢٢٠] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (٢٣٣٥) ص ٥٧٧

(وَ أَخِيـ رَسُولِكـَ):

ثم يأتي الدور على ذكر الصفات الناظرة إلى أشرف الخلق، نبينا الأكرم (ص)، فهو (ع) أخو رسول اللهّ (ص).

وقد صح عنه عليه السلام أنه كان يقول (أنا عبد اللهّ و أخو رسوله، لا يقولها بعدي إلا كذاب).

وقد آخى رسول اللهّ (ص) بين أصحابه و بين الأنصار والمهاجرين، فبدأ بعلي بن أبي طالب (ع) فأخذ بيده و قال: (هذا أخي في الدنيا و الآخرة).[٢٢١]

وهذه الأخوة وإن كانت مدعمة بقرابة الدم بين الرسول الأكرم (ص) وبين الإمام علي (ع)، إلا أن حقيقة هذه الأخوة تستند إلى ما بينهما من تجانس في القرب من اللهّ تعالى.

فهذا كتاب اللهّ الحكيم ينكر أن يكون ذلك الولد العاق الكافر أهلا لنبي اللهّ نوح (ع) ﴿قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ﴾(هود/٤٦).

(وَ حُجَّتِكـَ عَلىـ خَلْقِكـَ):

و قد تظافرت الروايات الشريفة واستفاضت، في الدلالة على هذا المعنى، و منها:

١/ عن بريد العجلي قال: سألت أبا عبد اللهّ عليه السلام، عن قول اللهّ عز وجل ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس﴾ قال: نحن الأمة الوسطى ونحن شهداء اللهّ على خلقه وحججه في أرضه.

٢/ عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال: واللهّ ما ترك اللهّ أرضا منذ قبض آدم عليه السلام إلا وفيها إمام يهتدي به إلى اللهّ وهو حجته على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجة للهّ على عباده.

٣/ عن أبي علي بن راشد قال: قال أبو الحسن عليه السلام إن الأرض لا تخلو من حجة، و أنا و اللهّ ذلك الحجة.

٤/ عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: إن اللهّ تبارك و تعالى طهرنا وعصمنا و جعلنا شهداء على خلقه، وحجته في أرضه، و جعلنا مع القرآن وجعل القرآن معنا، لا نفارقه ولا يفارقنا[٢٢٢]

---

[٢٢١] إعلام الورى بأعلام الهدى - الشيخ الطبرسي - ج ١ - ص ٣٦٣

[٢٢٢] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ – ص ١٧٨- ١٩١

(وَ آيَتِكَ الكُبْرى):

ومن خلال التعرف على معنى (الحجة) و (الآية) نستطيع أن نحكم بأن الحجة أقوى من الآية، إذ أن الحجة هي إرجاع الفرع إلى الأصل، و تأثيرها في النفس كتأثير البرهان، و أما الآية فهي علامة على الشئ، و ليس لها تأثير على النفس، يقول سبحانه ﴿وَ كَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَ هُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾(يوسف/١٠٥).

و القرآن الكريم يحدثنا عن كثير من آيات الآفاق و الأنفس:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأنعام/٩٩).

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾(الأنعام/٩٨).

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة/١٦٤).

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾(آل عمران/٩٦).

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ﴾(آل عمران/٩٧).

و قد دلت الروايات الشريفة على أن أمير المؤمنين (ع) هو أعظم آيات اللّه سبحانه، و قد كان أمير المؤمنين صلوات اللّه عليه يقول: (ما للّه عز وجل آية هي أكبر مني ولا للّه من نبأ أعظم مني).[٢٢٣]

(وَ النَّبَأ العَظيم):

و هذه الصفة لها منشأ يعود إلى كتاب اللّه المجيد، و ذلك في قوله تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ. عَنْ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾(النبأ١-٢).

---

[٢٢٣] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٢٠٧

من خطب أمير المؤمنين (ع) (خطبة الوسيلة): (ألا وإني فيكم أيها الناس كهارون في آل فرعون وكباب حطة في بني إسرائيل وكسفينة نوح في قوم نوح، إني النبأ العظيم والصديق الأكبر وعن قليل ستعلمون ما توعدون).[٢٢٤]
عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن آبائه عن الحسين بن علي (ع) قال قال رسول الله (ص) لعلي (ع) يا علي أنت حجة الله وأنت باب الله وأنت الطريق إلى الله وأنت النبأ العظيم وأنت الصراط المستقيم وأنت المثل الاعلى.[٢٢٥]

(وَ صَلِّ عَلَى الصِّدِّيقَةِ الطَّاهِرَةِ فاطِمَةَ):

يقول أبو البقاء في كلياته، أن العلم إذا أريد به التعظيم فهو اللقب، و إذا أريد به التعريف فهو الإسم، ففي التسمية إيضاح، وفي الكنية تكرم، وفي التلقيب ضرب من الوصفية.[٢٢٦]
و الأصل في اللغة تقديم الإسم على اللقب، كما يقول ابن مالك في ألفيته:
(واسما أتى وكنية ولقبا
واخرن ذا إن سواه صحبا)[٢٢٧]
و يشرح ابن عقيل هذه العبارة فيقول: (و أشار بقوله "وأخرن ذا - إلخ " إلى أن اللقب إذا صحب الإسم وجب تأخيره، كـ (زيد أنف الناقة) ولا يجوز تقديمه على الإسم، فلا تقول: " أنف الناقة زيد " إلا قليلا).[٢٢٨] و يقول أبو البقاء: قد يقدمون اللقب على الاسم، و يجرون الاسم عليه بدلا أو عطف بيان.[٢٢٩]
فمن هذه الموارد القليلة التي يجوز فيها تقديم اللقب على الإسم: قصد التعظيم.
فعندما نقول (السجاد علي و الباقر محمد و الصادق جعفر والكاظم موسى.. عليهم السلام) فإننا نريد أن نلفت ذهن السامع إلى بعض خصوصيات هؤلاء الأئمة الكرام (ع)، وفي ذلك مزيد احترام و تعظيم لهم، سلام الله عليهم.
ثم إن لقب (الصديقة) و (الطاهرة) قد صارا علمين على السيدة فاطمة، لكثرة ما أطلقا عليها سلام الله عليها، تمييزا لها على سائر النساء.

---

[٢٢٤] الكافي - الشيخ الكليني - ج ٨ - ص ١٨
[٢٢٥] عيون أخبار الرضا (ع) - الشيخ الصدوق - ج ١ - ص ٩
[٢٢٦] الكليات لأبي البقاء ٣|١٩٢ - ١٩٣
[٢٢٧] النحو الوافي ٢٤٨/١
[٢٢٨] شرح ابن عقيل - ابن عقيل الهمداني - ج ١ - ص ١١٩
[٢٢٩] الكليات لأبي البقاء ٣|١٩٢ - ١٩٣

وهذا إنما هو من باب (المنقول) وهو ما سبق له استعمال في غير العلمية، والنقل إما من صفة كحارث، أو من مصدر كفضل.[٢٣٠]

و تقديم الصفة أو اللقب على الإسم، يوحي بالحصر، واختصاص ذلك المسمى بهذه الصفة أكثر من غيره، ذلك أن الإسم إذا جاء قبل اللقب، فإن اللقب يكون صفة، وأما إذا جاء بعده صار الإسم بدلا عن اللقب.

(فاطمة) هذا الإسم المبارك، الذي اشتقه اللّه سبحانه لها من اسمه تعالى (فاطر)، والذي يحكي عن أن اللّه تعالى قد فطم محبيها (ع) من النار يوم القيامة.

و قد ورد في كتاب الكافي الشريف عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما ولدت فاطمة عليها السلام أوحى اللّه إلى ملك فأنطلق به لسان محمد صلى اللّه عليه وآله فسماها فاطمة.[٢٣١] و عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: سمعته يقول: لولا أن اللّه تبارك وتعالى خلق أمير المؤمنين عليه السلام لفاطمة، ما كان لها كفو على ظهر الأرض من آدم ومن دونه.[٢٣٢]

وينقل الشيخ الطبرسي عن أمالي الصدوق رواية عن الصادق (ع) أنه قال: (لفاطمة (ع) تسعة أسماء عند اللّه عز وجل: فاطمة، و الصديقة، والمباركة، و الطاهرة، و الزكية، و الراضية، و المرضية، والمحدثة و الزهراء).[٢٣٣]

كما ينقل عن عيون أخبار الرضا (ع): أن النبي قال: (إنما سميت ابنتي فاطمة لأن اللّه سبحانه فطمها وفطم من أحبها من النار).[٢٣٤]

و عن صحيح مسلم وسنن الترمذي ومسند أحمد ومستدرك الحاكم، قول النبي (ص) فيها: (إنها بضعة مني يؤذيني ما آذاها) وهذا مما يدل على عصمتها (ع).[٢٣٥]

و ينقل عن أمالي الصدوق وعن عيون أخبار الرضا (ع) قوله صلى اللّه عليه وآله وسلم: (إن اللّه يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها).[٢٣٦]

و ينقل عن سنن أبي داود و عن صحيح الترمذي وسنن البيهقي، رواية عن أم المؤمنين عائشة: أن فاطمة عليها السلام كانت إذا دخلت على رسول اللّه (ص) قام لها من مجلسه و قبل رأسها و أجلسها مجلسه.[٢٣٧]

---

[٢٣٠] شرح ابن عقيل - ابن عقيل الهمداني - ج ١ - ص ١٢٥
[٢٣١] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٤٦٠
[٢٣٢] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٤٦١
[٢٣٣] إعلام الورى بأعلام الهدى - الشيخ الطبرسي - ج ١ - ص ٢٩٠ - ٢٩١
[٢٣٤] المصدر نفسه
[٢٣٥] إعلام الورى بأعلام الهدى - الشيخ الطبرسي - ج ١ - ص ٢٩٤
[٢٣٦] المصدر نفسه
[٢٣٧] إعلام الورى بأعلام الهدى - الشيخ الطبرسي - ج ١ - ص ٢٩٦

(سَيِّدَةِ نِساءِ العالَمِينَ):

يقول الشيخ الصدوق: و أما فاطمة صلوات اللّه عليها فاعتقادنا فيها أنها سيدة نساء العالمين من الأولين والأخيرين.[٢٣٨] وقد جاء في معاني الأخبار عن المفضل بن عمر قال: قلت لأبي عبد اللّه عليه السلام: أخبرني عن قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله في فاطمة (أنها سيدة نساء العالمين) أهي سيدة نساء عالمها ؟

فقال (ع): ذاك لمريم كانت سيدة نساء عالمها، وفاطمة سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين.[٢٣٩]

وقد وردت هذه الصفة للسيدة الزهراء (ع) في أكثر من نص مقدس عن أهل البيت العصمة والطهارة (ع)، ومن ذلك:

لما قبضت فاطمة عليها السلام دفنها أمير المؤمنين سرا وعفا على موضع قبرها، ثم قام فحول وجهه إلى قبر رسول اللّه (ص) فقال: (السلام عليك يا رسول اللّه عني و السلام عليك عن ابنتك و زائرتك والبائتة في الثرى ببقعتك و المختار اللّه لها سرعة اللحاق بك، قل يا رسول اللّه عن صفيتك صبري و عفا عن سيدة نساء العالمين تجلدي).[٢٤٠]

و في زيارة الإمام الحسن المجتبى (ع) كما ورد في كامل الزيارات (السلام عليك يا وارث أمير المؤمنين علي ولي اللّه، السلام عليك يا وارث فاطمة سيدة نساء العالمين....)[٢٤١]

ويروي الشيخ الصدوق في أماليه: قال أمير المؤمنين (عليه السلام) ذات يوم على منبر الكوفة: أنا سيد الوصيين، ووصي سيد النبيين، أنا إمام المسلمين، و قائد المتقين، ومولى المؤمنين، و زوج سيدة نساء العالمين.[٢٤٢]

(وَ صَلِّ عَلى سِبْطَيِ الرَّحْمَةِ):

أكثر ما يستعمل السبط في ولد البنت و منه قيل للحسن والحسين (ع) أنهما سبطا رسول اللّه (ص).[٢٤٣]

---

[٢٣٨] الاعتقادات في دين الإمامية - الشيخ الصدوق - ص ١٠٥
[٢٣٩] معاني الأخبار - الشيخ الصدوق - ص ١٠٧
[٢٤٠] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٤٥٨ - ٤٥٩
[٢٤١] كامل الزيارات - جعفر بن محمد بن قولويه - ص ٥١٧
[٢٤٢] الأمالي - الشيخ الصدوق - ص ٧٧
[٢٤٣] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري - (١٠٧٧) ص ٢٧١

و كلمة (السبط) تعني الامتداد و الطول كما تقول كتب اللغة[٢٤٤] ففي كونهما (ع) سبطا رسول اللّه (ص) إشارة إلى امتداد نسل رسول اللّه (ص) بهما (ع)، فكانت تسميتهما بذلك مطابقة لمفاد سورة الكوثر المباركة.

(وَ إمامَيـ الهُدىـ):

و لقد استفاض قول رسول اللّه (ص): (ابناي هذان إمامان قاما أو قعدا).[٢٤٥]
و هذه العبارة ناظرة إلى دعاء إبراهيم الخليل (ع) في قوله تعالى ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(البقرة/١٢٤) كما أنها مصداق قوله سبحانه ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(الأنبياء/٧٣).

(الحَسَنِ وَ الحُسَيْنِ):

يروي الشيخ الطوسي أن السيدة الزهراء (ع) أتت بابنيها الحسن والحسين عليهما السلام إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في شكواه التي توفي فيها فقالت: (يا رسول اللّه، هذان إبناك فورثهما شيئا). فقال: (أما الحسن فإن له هيبتي وسؤددي، وأما الحسين فإن له جودي وشجاعتي).[٢٤٦]
و ينقل ما رواه محمد بن إسحاق قال: ما بلغ أحد من الشرف بعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ما بلغ الحسن بن علي، كان يبسط له على باب داره فإذا خرج وجلس انقطع الطريق فما مر أحد من خلق اللّه إجلالا له، فإذا علم قام ودخل بيته فمر الناس، ولقد رأيته في طريق مكة نزل عن راحلته فمشى فما من خلق اللّه أحد إلا نزل ومشى، حتى رأيت سعد ابن أبي وقاص قد نزل ومشى إلى جنبه.
و روي عن أنس بن مالك أنه قال: لم يكن أحد أشبه برسول اللّه (ص) من الحسن بن علي عليهما السلام.[٢٤٧]
عن يعلى بن مرة قال: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يقول: (حسين مني وأنا من حسين، أحب اللّه من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط).[٢٤٨]

---

[٢٤٤] معجم مقاييس اللغة - أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا - ج ٣ - ص ١٢٨
[٢٤٥] إعلام الورى بأعلام الهدى - الشيخ الطبرسي - ج ١ - ص ٤٠٧
[٢٤٦] إعلام الورى بأعلام الهدى - الشيخ الطبرسي - ج ١ - ص ٤١٢
[٢٤٧] إعلام الورى بأعلام الهدى - الشيخ الطبرسي - ج ١ - ص ٢٩٠ - ٢٩١
[٢٤٨] إعلام الورى بأعلام الهدى - الشيخ الطبرسي - ج ١ - ص ٤٢٥

و كان النبي صلى اللهّ عليه وآله وسلم يصلي فجاء الحسن والحسين يركبان ظهره، فلم انصرف وضعهما في حجره وجعل يقبل هذا مرة وهذا مرة، فقال قوم: أتحبهما يا رسول اللهّ ؟ فقال: (ما لي لا أحب ريحانتي من الدنيا).

و روى سلمان الفارسي قال: سمعت رسول اللهّ صلى اللهّ عليه وآله وسلم وهو يقول: (الحسن والحسين ابني من أحبهما أحبني، ومن أحبني أحبه اللهّ، ومن أحبه اللهّ أدخله الجنة، ومن أبغضهما أبغضني، ومن أبغضني أبغضه اللهّ ومن أبغضه اللهّ أدخله النار على وجهه). [٢٤٩]

(سَيِّدَيْ شَبابِ أَهْلِ الجَنَّة):

وقد طار قول رسول اللهّ (ص) في الآفاق: (الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة). [٢٥٠]

والحقيقة أن هذا التعبير كناية عن كونهما (سلام اللهّ عليهما) سيدا أهل الجنة كلهم، لأن أهل الجنة كلهم شباب كما ورد ذلك عن رسول اللهّ (ص).

قال (صلى اللهّ عليه وآله) للعجوز الأشجعية: (يا أشجعية، لا تدخل العجوز الجنة) فرآها بلال باكية، فوصفها للنبي (ص)، فقال (ص): (الأسود كذلك) فجلسا يبكيان، فرآهما العباس فذكرهما له فقال (صلى اللهّ عليه وآله): (والشيخ كذلك).

ثم دعاهم وطيب قلوبهم، وقال: (ينشئهم اللهّ كأحسن ما كانوا) وذكر أنهم يدخلون الجنة شبانا منورين، وقال (صلى اللهّ عليه وآله): (إن أهل الجنة جرد مرد مكحلون). [٢٥١]

(وَ صَلِّ عَلى أَئِمَّةِ المُسْلِمِين):

وكما قلنا من قبل هم استجابة اللهّ تعالى لدعاء نبيه الخليل إبراهيم (ع) في قوله تعالى ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(البقرة/١٢٤).

ذلك أن اللهّ تعالى إما أن يستجيب دعاء نبيه الكريم (ع) فيجعل الإمامة في ذريته، أو يرد دعاءه، وحاشا للهّ أن يخيب خليله إبراهيم (ع)، فمثل إبراهيم (ع) لا يرد خائبا.

فإن استجاب اللهّ هذا الدعاء، فإما أن يجعل الإمامة فيهم بغض النظر عن إيمانهم و التزامهم بعبادة اللهّ، أو أن يميز بينهم، فيعطيها للطيب و يمنعها من الخبيث.

---

[٢٤٩] إعلام الورى بأعلام الهدى - الشيخ الطبرسي - ج ١ - ص ٤٣٢

[٢٥٠] إعلام الورى بأعلام الهدى - الشيخ الطبرسي - ج ١ - ص ٤١٢

[٢٥١] مستدرك الوسائل - الميرزا النوري - ج ٨ - (٩٨٢٦) ص٤١١

و الطيب فيهم، إما أن يكون ظالما لنفسه عاصيا لله في فترة من فترات عمره، و جهة من جهات حياته، أو أن يكون نقيا طاهرا خالصا مخلصا لله تعالى في كل حركاته وسكناته، و في جميع أقواله و أفعاله.
و عندما نقرأ قوله تعالى ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ يتبين لنا أن الله تعالى قد استجاب بكرمه ولطفه دعاء خليله إبراهيم (ع) فخص غير الظالمين منهم بالإمامة، و هذا دليل على عصمة الأئمة صلوات الله و سلامه عليهم.
وقول الإمام (ع) (أئمة المسلمين) لا يعني أنهم ليسوا أئمة لغيرهم، وإن حرم الآخرون أنفسهم من فيض هداهم وبحر نداهم (ع)، بالإنكار و الجحود و الإعراض.
ذلك أن كل الرسالات السماوية في حقيقتها ليست إلى الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ. فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(آل عمران١٩-٢٠).

(عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ):

يذكر الشيخ المفيد (طيب الله ثراه) جملة من الأقوال والروايات عن بعض كبار علماء المسلمين، في فضل الإمام زين العابدين (ع)، منها:
عن عبدالله بن موسى عن أبيه عن جده، قال: كانت أم فاطمة بنت الحسين عليه السلام تأمرني أن أجلس إلى خالي علي بن الحسين عليهما السلام، فما جلست إليه قط إلا قمت بخير قد أفدته، إما خشية لله تحدث في قلبي لما أرى من خشيته لله، أو علم قد استفدته منه.
و روى محمد بن الحسين قال: حدثنا عبدالله بن محمد القرشي قال: كان علي بن الحسين (عليهما السلام) إذا توضأ اصفر لونه. فيقول له أهله: ماهذا الذي يغشاك؟ فيقول: أتدرون لمن أتأهب للقيام بين يديه.[٢٥٢]

(وَ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ):

ورد في كتاب الإرشاد، في فضل الإمام الباقر (ع) روايات وأقوال لكبار علماء الأمة، منها:

---

[٢٥٢] الإرشاد إلى معرفة حجج الله على العباد – الشيخ المفيد – ج٢ باب٧

عن ابن عطاء المكي قال: ما رأيت العلماء عند أحد قط أصغر منهم عند أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام، و لقد رأيت الحكم بن عتيبة مع جلالته في القوم بين يديه كأنه صبي بين يدي معلمه.
وكان جابر بن يزيد الجعفي إذا روى عن محمد بن علي عليهما السلام شيئا، قال: حدثني وصي الاوصياء و وارث علوم الأنبياء، محمد بن علي بن الحسين عليهم السلام.[٢٥٣]

(وَ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ):

روى علي بن الحكم عن طاهر صاحب ابي جعفر عليه السلام قال: كنت عنده فأقبل جعفر عليه السلام، فقال أبو جعفر عليه السلام: هذا خير البرية.
وكان عليه السلام يقول: إن حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، وحديث علي أمير المؤمنين حديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وحديث رسول اللّه قول اللّه عزوجل.
و روى أبو حمزة الثمالي عن أبي عبد اللّه جعفر بن محمد عليهما السلام قال: سمعته يقول: ألواح موسى عليه السلام عندنا، وعصا موسى عليه السلام عندنا، و نحن ورثة النبيين.
و عن هشام بن سالم عن أبي عبداللّه جعفر بن محمد عليهما السلام قال: لما حضرت أبي الوفاة قال: يا جعفر أوصيك بأصحابي خيرا. قلت: جعلت فداك، واللّه لأدعنهم و الرجل منهم يكون في المصر فلا يسأل أحدا.[٢٥٤] أي أنه صلوات اللّه وسلامه عليهم يغذيهم بالعلم و الحكمة، حتى يصلوا إلى درجة يستغنوا فيها عن سؤال غيرهم.

(وَ مُوسى بْنِ جَعْفَرٍ):

جاء في كتاب الإرشاد للشيخ المفيد، أنه كان من دعاء الإمام الكاظم عليه السلام (عظم الذنب من عبدك فليحسن العفو من عندك) و كان يبكي من خشية اللّه حتى تخضل لحيته بالدموع.

---

[٢٥٣] الإرشاد إلى معرفة حجج الله على العباد – الشيخ المفيد – ج٢ باب٩
[٢٥٤] الإرشاد إلى معرفة حجج الله على العباد – الشيخ المفيد – ج٢ باب١٢

وكان أوصل الناس لأهله و رحمه، وكان يتفقد فقراء المدينة في الليل، فيحمل الزنبيل فيه العين و الورق و الأدقة و التمور فيوصل إليهم ذلك، و لا يعلمون من أي جهة هو.[٢٥٥]

(وَ عَلِيِّ بْنِ مُوسى):
يقول إبراهيم بن العباس: ما رأيت الرضا عليه السلام سئل عن شئ قط إلا علمه، ولا رأيت أعلم منه بما كان في الزمان إلى وقته وعصره، وكان المأمون يمتحنه بالسؤال عن كل شئ فيجيب عنه، وكان كلامه كله وجوابه وتمثله انتزاعات من القرآن.
وكان يختمه في كل ثلاث ويقول: " لو أني أردت أن أختمه في أقرب من ثلاث لختمت، ولكني ما مررت بآية قط إلا فكرت فيها وفي أي شئ أنزلت وفي أي وقت، فلذلك صرت أختمه في كل ثلاث ".
و في رواية أخرى عنه أنه قال: ما رأيت ولا سمعت بأحد أفضل من أبي الحسن الرضا، وشاهدت منه ما لم أشاهده من أحد، وما رأيته جفا أحدا بكلامه قط، ولا رأيته قطع على أحد كلامه حتى يفرغ منه، وما رد أحدا عن حاجة يقدر عليها، ولا مد رجليه بين يدي جليس له قط، ولا اتكأ بين يدي جليس له قط، ولا رأيته يشتم أحدا من مواليه ومماليكه، وما رأيته تفل قط، ولا رأيته يقهقه في ضحكه بل كان ضحكه التبسم.
وكان إذا خلا ونصبت مائدته أجلس على مائدته مماليكه ومواليه حتى البواب والسائس.
وكان قليل النوم بالليل، كثير السهر، يحيي أكثر لياليه من أولها إلى الصبح، وكان كثير الصوم، ولا يفوته صيام ثلاثة أيام في الشهر، ويقول (ذلك صوم الدهر) وكان كثير المعروف والصدقة في السر، وأكثر ذلك يكون منه في الليالي المظلمة، فمن زعم أنه رأى مثله في فضله فلا تصدقوه.[٢٥٦]

(وَ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ):
عن صفوان بن يحيى قال: قلت للرضا عليه السلام: قد كنا نسألك قبل أن يهب اللّه لك أبا جعفر، فكنت تقول: يهب اللّه لى غلاما. فقد وهبه اللّه لك و أقر عيوننا به، فلا أرانا اللّه يومك وإن كان كون فإلى من ؟

---

[٢٥٥] الإرشاد إلى معرفة حجج الله على العباد – الشيخ المفيد – ج٢ باب١٧
[٢٥٦] إعلام الورى بأعلام الهدى - الشيخ الطبرسي - ج ٢ - ص ٦٣ - ٦٤

فأشار بيده إلى أبي جعفر و هو قائم بين يديه، فقلت له: جعلت فداك هذا ابن ثلاث سنين ؟

قال: و ما يضره من ذلك ؟ قد قام عيسى بالحجة و هو ابن أقل من ثلاث سنين.[٢٥٧]

(وَ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ):

روي عن محمد بن الحسن بن الأشتر العلوي قال: كنت مع أبي بباب المتوكل، وأنا صبي، في جمع الناس، ما بين طالبي إلى عباسي إلى جندي إلى غير ذلك، وكان إذا جاء أبو الحسن (عليه السلام) ترجل الناس كلهم حتى يدخل.

فقال بعضهم لبعض: لم نترجل لهذا الغلام و ما هو بأشرفنا ولا بأكبرنا ولا بأسننا ولا بأعلمنا ؟

فقالوا: والله لا ترجلنا له.

فقال لهم أبو هاشم: والله لترجلن له صغارا وذلة إذا رأيتموه.

فما هو إلا أن أقبل و بصروا به، فترجل له الناس كلهم فقال لهم أبو هاشم: أليس زعمتم أنكم لا تترجلون له ؟ فقالوا: والله ما ملكنا أنفسنا حتى ترجلنا.[٢٥٨]

(وَ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ):

الخرائج: عن بذل مولى أبي محمد عليه السلام قال: رأيت من رأس أبي محمد (ع) نورا ساطعا إلى السماء وهو نائم.[٢٥٩]

جلس أبو محمد (ع) عند علي بن أوتاش وكان شديد العداوة لآل محمد عليهم السلام غليظا على آل أبي طالب، وقيل له إفعل به و إفعل.

قال: فما أقام إلا يوما حتى وضع خده له، و كان لا يرفع بصره إليه إجلالا و إعظاما و خرج من عنده و هو أحسن الناس بصيرة و أحسنهم قولا فيه.

ودخل صالح بن علي وغيره من المنحرفين عن هذه الناحية على صالح بن وصيف عندما حبس أبو محمد عليه السلام فقال له: ضيق عليه ولا توسع !

فقال لهم صالح: ما أصنع به، وقد وكلت به رجلين شر من قدرت عليه، فقد صارا من العبادة والصلاة إلى أمر عظيم. ثم أمر بإحضار الموكلين، فقال لهما: ويحكما ما شأنكما في أمر هذا الرجل ؟

---

[٢٥٧] الإرشاد إلى معرفة حجج الله على العباد – الشيخ المفيد – ج٢ باب ٢٤
[٢٥٨] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٥٠ - ص ١٣٧
[٢٥٩] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٥٠ - ص ٢٧٢

فقالا له: ما نقول في رجل يصوم نهاره، ويقوم ليله كله، لا يتكلم ولا يتشاغل بغير العبادة، فإذا نظر إلينا ارتعدت فرائصنا وداخلنا مالا نملكه من أنفسنا، فلما سمع ذلك العباسيون انصرفوا خاسئين.[٢٦٠]

(وَ الخَلَفِ الهادِيِ المَهْدِيِ):

عن جابر الأنصاري أنه سأل النبي (ص) هل ينتفع الشيعة بالقائم عليه السلام في غيبته ؟

فقال صلى اللهّ عليه وآله: إي والذي بعثني بالنبوة إنهم لينتفعون به، ويستضيئون بنور ولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس و إن جللها السحاب[٢٦١]

عن أبي عبد اللهّ (عليه السلام) قال: للقائم غيبتان، يشهد في إحداهما المواسم، يرى الناس ولا يرونه.[٢٦٢]

التفت رسول اللهّ (ص) إلى علي (ع): فقال: ألا أبشرك ألا أخبرك يا علي ؟ قال: بلى يا رسول اللهّ فقال: كان جبرئيل عندي آنفا وخبرني أن القائم الذي يخرج في آخر الزمان يملأ الأرض عدلا كما ملئت ظلما وجورا من ذريتك من ولد الحسين (ع) فقال علي (ع): يا رسول اللهّ ما أصابنا خير قط من اللهّ إلا على يديك.[٢٦٣]

عن أبي سعيد الخدري عن النبي (ص) أنه قال المهدي منا أهل البيت رجل من أمتي أشم الانف يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا.[٢٦٤]

قال رسول اللهّ صلى اللهّ عليه وآله: لو لم يبق من الدنيا إلا ليلة لملك فيها رجل من أهل بيتي.[٢٦٥]

عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: إن العلم بكتاب اللهّ عز وجل وسنة نبيه (صلى اللهّ عليه وآله وسلم) ينبت في قلب مهدينا كما ينبت الزرع عن أحسن نباته، فمن بقي منكم حتى يلقاه فليقل حين يراه: السلام عليكم يا أهل بيت الرحمة والنبوة، ومعدن العلم وموضع الرسالة وروي أن التسليم على القائم عليه السلام أن يقال: السلام عليك يا بقية اللهّ في أرضه).[٢٦٦]

---

[٢٦٠] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٥٠ - ص ٣٠٧
[٢٦١] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٥٢ - ص ٩٣
[٢٦٢] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٣٣٩
[٢٦٣] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٥١ - ص ٧٧
[٢٦٤] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٥١ - ص ٨٠
[٢٦٥] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٥١ - ص ٨٣
[٢٦٦] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٥١ - ص ٣٦

(حُجَجِكَ عَلى عِبادِكَ):

قال أمير المؤمنين (ع): (فبعث فيهم رسله و واتر إليهم أنبيائه ليستأدوهم ميثاق فطرته، و يذكروهم منسي نعمته، و يحتجوا عليهم بالتبليغ، و يثيروا لهم دفائن العقول، و يروهم آيات القدرة من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، و معايش تحييهم، و آجال تفنيهم وأوصاب تهرمهم، و احداث تتابع عليهم، و لم يخل اللّه سبحانه خلقه من نبي مرسل أو كتاب منزل، أو حجة لازمة أو محجة قائمة، رسل لا تقصر بهم قلة عددهم و لا كثرة المكذبين لهم، من سابق سمى له من بعده، أو غابر عرفه من قبله، على ذلك نسلت القرون و مضت الدهور).[٢٦٧]

عن هشام بن الحكم، عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال للزنديق الذي سأله من أين أثبت الأنبياء والرسل ؟ قال: إنه لما أثبتنا أن لنا خالقا صانعا متعاليا عنا وعن جميع ما خلق وكان ذلك الصانع حكيما متعاليا لم يجز أن يشاهده خلقه، ولا يلامسوه، فيباشرهم ويباشروه، ويحاجهم ويحاجوه، ثبت أن له سفراء في خلقه، يعبرون عنه إلى خلقه وعباده، ويدلونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفى تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبرون عنه جل وعز، وهم الأنبياء عليهم السلام وصفوته من خلقه، حكماء مؤدبين بالحكمة، مبعوثين بها، غير مشاركين للناس في شئ من أحوالهم مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة، ثم ثبت ذلك في كل دهر و زمان مما أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل و البراهين، لكيلا تخلو أرض اللّه من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته وجواز عدالته.[٢٦٨]

عن إسحاق بن عمار، عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: سمعته يقول: إن الأرض لا تخلو إلا و فيها إمام، كيما إن زاد المؤمنون شيئا ردهم، و إن نقصوا شيئا أتمه لهم.[٢٦٩]

عن أبي عبد اللّه (ع) قال: ما زالت الأرض إلا و للّه فيها الحجة يعرف الحلال والحرام ويدعو الناس إلى سبيل اللّه.

و قال أبو الحسن عليه السلام: (إن الأرض لا تخلو من حجة وأنا و اللّه ذلك الحجة).[٢٧٠]

فهم الذين يظهرون الحق على العباد، و بهم يظفر الدين على خصومه، إذ أنهم هم الطريق القويم الموصل إلى اللّه تعالى، والجادة التي لا يضل من لزمها.

---

[٢٦٧] تفسير نور الثقلين - الشيخ الحويزي - ج ١ - ص ٥٧٦

[٢٦٨] الكافي - الشيخ الكليني ج ١ (باب الاضطرار إلى الحجة) ص ١٦٨

[٢٦٩] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ١٧٨

[٢٧٠] المصدر نفسه

بل إنهم هم البرهان على وجود الله تعالى، و المظهرون لأمره سبحانه، والأدلاء على صراطه تبارك اسمه.
و كما يقول صاحب الفروق اللغوية أن البرهان هو الحجة القاطعة المفيدة للعلم.
ولا شك أن دلالة البرهان ليست وضعية اعتبارية، أي أنها ليست بفعل فاعل، و إنما هي ذاتية حقيقية.[٢٧١]

(وَ أُمَنائِكَ فِي بِلادِكِ):
عن أبي حمزة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أتبقى الأرض بغير إمام ؟ قال: لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت.
و عن أبي جعفر عليه السلام قال: لو أن الإمام رفع من الأرض ساعة لماجت بأهلها، كما يموج البحر بأهله.[٢٧٢]
و بما أنهم صلوات الله وسلامه عليهم الإمتداد الطبيعي والرسالي للنبي الأكرم (ص) فهم أمان للأرض كما كان (ص) أمانا للعباد و البلاد ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(الأنفال/٣٣).
قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأهل الأرض).[٢٧٣]

(صَلاةً كَثِيرَةً دائِمَةً):
فالداعي يسأل الله سبحانه أن ينزل رحمته و كرامته على الأئمة المعصومين من أهل البيت (ع)، صلاة ممتدة من الجهتين، من جهة الكمية، و من جهة الزمان، فهي لا تنتهي أبدا.
فلا هي عرضة للنفاد، لأنها ليست قليلة، فتنتهي. و لا هي عرضة للفناء، لأنها ليست محدودة بزمان دون غيره، فتنقطع، بل هي كثيرة دائمة.

---

[٢٧١] الفروق اللغوية - أبو هلال العسكري – (٣٨٨) (٣٨٩) ص٩٧
[٢٧٢] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ١٧٩
[٢٧٣] تفسير نور الثقلين - الشيخ الحويزي - ج ١ - ص ٥٠١

الفصل التاسع عشر / طلب المسألة العظيمة و هي الدعاء لبقية الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف).

وبعد كل هذا الحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى، وابتغاء الوسيلة إليه، بذكر صفوة الله و أهل الكرامة عليه من خلقه، و الصلاة عليهم... يصل الإمام (ع) إلى مسألته التي يؤكد (سلام الله عليه) بأنه حاجته إليها عظيمة، وأنها عنده كثير.

هذه المسألة هي التي يتمحور حولها هذا الدعاء الشريف كله، فهي عز المنى، و غاية الطلب، و نهاية الأمل، لأن بها تتحقق للإنسان سعادة الدنيا و الأخرة.

(اللّهُمّ وَ صَلِّ عَلَى وَلِيِّ أَمْرِكَ):

إن تخصيص الإمام المهدي الموجود الموعود (أرواحنا لتراب مقدمه الفداء) بالصلوات، و قد ذكر في بوصفه الشريف في الفصل السابق من هذا الدعاء المبارك، ينطق بما قلناه من محورية الدعاء لبقية الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) في هذا الدعاء المبارك.

فالصلاة عليه في الفصل السابق كان من باب اتخاذ الوسيلة إلى الله تعالى، والتقرب إليه بمحمد و أهل بيته الطاهرين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وأما هنا فهو المسألة العظيمة التي قدم لها الإمام (ع) كل ذلك الحمد و الثناء على الله تعالى و الصلاة على النبي وآله الكرام.

وهذه الصفة العظمية مستندة إلى قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(النساء/٥٩)

وقد جاء في كتاب كمال الدين و تمام النعمة عن ابي بصير عن ابي جعفر عليه السلام في قول الله عزوجل: ﴿يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الأمر منكم﴾ قال: الأئمة من ولد علي وفاطمة عليهما السلام إلى أن تقوم الساعة.[٢٧٤]

وعن جابر بن عبدالله الانصاري قال: لما أنزل الله عزوجل على نبيه محمد صلى الله عليه وآله ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ قلت يا رسول الله عرفنا الله ورسوله فمن أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك ؟

فقال عليه السلام: هم خلفائي يا جابر و أئمة المسلمين من بعدى، أولهم علي بن ابي طالب، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم على بن الحسين، ثم محمد بن على المعروف في التوراة

---

[٢٧٤] تفسير نور الثقلين - الشيخ الحويزي - ج ١ - ص ٤٩٩

بالباقر وستدركه يا جابر فإذا لقيته فاقرأه مني السلام، ثم الصادق جعفر بن محمد، ثم موسى بن جعفر، ثم علي بن موسى، ثم محمد بن علي، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن علي، ثم سميي وكنيي حجة اللّه في أرضه وبقيته في عباده ابن الحسن بن علي، ذاك الذي يفتح اللّه (تعالى ذكره) على يديه مشارق الأرض و مغاربها، ذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلا من امتحن اللّه قلبه للإيمان.[٢٧٥]

(القائِم المُؤَمَّل):

الحقيقة التي لا مراء فيها، هي أن الإمام المعصوم من أهل بيت النبوة و الرسالة، إمام مفترض الطاعة على العباد، له مقامه المحمود عند اللّه تعالى، فهو باب اللّه الذي منه يؤتى وعروته الوثقى التي من تمسك بها نجا و هو سفينة النجاة ومصباح الهدى، فالناس يستضيئون بنوره، و يستصبحون بضوء صباحه، وينتفعون بعلمه و هداه، كما ينتفع الناس بالشمس و إن جللها السحاب.

ولا يخدش في ذلك المقام الرفيع، عدم تصدي الإمام (ع) لمهام الإمامة الظاهرية، و عدم رؤيتنا لقيامه بأعباء الخلافة فإن ذلك إنما هو لقصر نظرنا و ضيق أفقنا.

وحيث أن الإمام المهدي الموجود الموعود (صلوات اللّه وسلامه عليه، و عجل فرجه الشريف) قد اختار له اللّه تعالى الغيبة عن أبصارنا، و الخفاء عن إدراكاتنا الحسية، إلا أن يشاء اللّه سبحانه و تعالى.

فقد يتوهم الجاهل بأنه (عجل اللّه فرجه الشريف) ليس إماما الآن و بالفعل، و إنما هو إمام بالقوة، فمتى ما قام بأعباء الإمامة صار إماما فعلا.

ولدفع هذه الشبهة الواهنة، و درء هذا التوهم الباطل، يؤكد الإمام (ع) هنا بأنه (القائم) عليه السلام، قياما حقيقيا و بالفعل و الممارسة.

وإذ آمنا بأنه (عليه آلاف التحية والثناء) قائم بالفعل، فهذا يعني أننا نؤمن بوجوده (ع)، لأن القيام فرع الوجود.

ويجد بالذكر هنا أن سماحة آية اللّه العظمى الحكيم الرباني الشيخ جوادي آملي (أدام اللّه ظله الوارف) يحرص على أن يصف الإمام المهدي (عج) بأنه الموجود الموعود.

---

[٢٧٥] تفسير نور الثقلين - الشيخ الحويزي - ج ١ - ص ٤٩٩

و عندئذ فقط يصح عقد الأمل بظهوره، إذ لا أمل في ظهور المعدوم، و إنما ينبغي أولا و جوده، ثم بعد ذلك ينعقد الأمل بظهوره و مجيئه، فبين المعدوم والظهور بون كبير يمنع تعلق الأمل به.

و لذا يردف الإمام (ع) صفة (القائم) بصفة (المؤمل) تأكيدا على و جوده الفعلي و قيامه الحقيقي، فالأمل متعلق بظهوره لا بوجوده (عجل اللّه فرجه الشريف).

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله: أفضل العبادة انتظار الفرج.

عن علي بن أبي طالب عليهم السلام في حديث طويل في وصية النبي صلى اللّه عليه وآله يذكر فيها أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله قال له: يا علي و اعلم أن أعجب الناس إيمانا و أعظمهم يقينا قوم يكونون في آخر الزمان لم يلحقوا النبي، و حجبتهم الحجة، فآمنوا بسواد على بياض.[٢٧٦]

عن عبد العظيم بن عبد اللّه الحسني رضي اللّه عنه قال: حدثني صفوان ابن يحيى، عن إبراهيم بن أبي زياد، عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي خالد الكابلي قال: دخلت على سيدي علي بن الحسين زين العابدين عليهما السلام فقلت له: يا ابن رسول اللّه أخبرني بالذين فرض اللّه عز وجل طاعتهم ومودتهم، وأوجب على عباده الاقتداء بهم بعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله ؟

فقال لي: يا أبا خالد إن أهل زمان غيبته القائلين بإمامته والمنتظرين لظهوره أفضل من أهل كل زمان، لان اللّه تبارك وتعالى أعطاهم من العقول والأفهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله بالسيف، أولئك المخلصون حقا وشيعتنا صدقا، والدعاة إلى دين اللّه عز وجل سرا وجهرا.[٢٧٧]

عن عمرو بن ثابت قال: قال علي بن الحسين سيد العابدين عليهما السلام: من ثبت على موالاتنا في غيبة قائمنا أعطاه اللّه عز وجل أجر ألف شهيد من شهداء بدر واحد.[٢٧٨]

عن أبي الحسن عن آبائه عليهم السلام أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله قال: أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج من اللّه عز وجل.[٢٧٩]

---

[٢٧٦] كمال الدين وتمام النعمة - الشيخ الصدوق - ص ٢٨٧
[٢٧٧] كمال الدين وتمام النعمة - الشيخ الصدوق - ص ٣١٩
[٢٧٨] كمال الدين وتمام النعمة - الشيخ الصدوق - ص ٣٢٣
[٢٧٩] كمال الدين وتمام النعمة - الشيخ الصدوق - ص ٦٤٤

و هذا الأمل نجده واضحا قويا في كتاب الله المجيد، تصوغه لنا الآيات الكريمة في صورة وعد من الله عز و جل ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾(القصص/٥).

ذلك أن وراثة الصالحين للأرض هو من صميم رحمة الله تعالى للعباد، و التي تمثلت في إرسال الأنبياء والرسل (ع)، وتجلت بأبهى صورها في ختم النبوات والرسالات السماوية، ببعثة نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وآله و سلم، يقول تبارك و تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ. إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ. وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(الأنبياء ١٠٥-١٠٧).

فأنى لهذا الأمل بظهور الحجة المهدي الموجود الموعود، أن يكون ضعيفا أو مهزوزا، و قد تكفل بتحقيقه رب العزة والجلال سبحانه و تعالى، و من أصدق من الله قيلا !!

(وَ العَدْلِ المُنْتَظَر):

لا شك في أن إقامة العدل هو من أعظم أهداف رسالات السماء، يقول سبحانه ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحديد/٢٥) و القسط كما تقول معاجم اللغة هو العدل.[٢٨٠]

وقد أمر الله تعالى بالعدل كما أمر الصلاة، و ألزم به كما ألزم بالعبادة و الدعاء ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾(الأعراف/٢٩).

و أناط به جميع الأمور المعيشية والحياتية للإنسان من نكاح و كسب مال، و إصلاح بين الناس، بل و حتى الحرب والسلم جعله يدور مدار القسط و العدل ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾(النساء/٣) ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(الحجرات/٩) و كذلك الحكم بين الناس ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(النساء/٥٨).

---

[٢٨٠] كتاب العين - الفراهيدي ج ٥ ص٧١ و الصحاح - الجوهري ج ٣ ص١١٥٢

بل و نهى اللّه تبارك و تعالى عن الجور و الإنحراف عن جادة العدل، حتى مع الأعداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المائدة/٨) معتبرا الخروج عن العدل اتباعا للهوى ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾(الشورى/١٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(النساء/١٣٥).

فهو صلوات اللّه وسلامه عليه، الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا بعدما ملئت ظلما و جورا، كما دلت عليه الروايات المستفيضة والمشهورة عن النبي الأكرم (ص) وأهل بيت العصمة والطهارة (ع)، ومنها:

ما يرويه الشيخ الكليني (طيب اللّه ثراه) عن أبي حمزة قال دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: أنت صاحب هذا الامر ؟ فقال: لا، فقلت: فولدك ؟ فقال: لا، فقلت: فولد ولدك هو ؟ قال: لا، فقلت: فولد ولد ولدك ؟ فقال: لا قلت: من هو ؟ قال: الذي يملاها عدلا كما ملئت ظلما وجورا على فترة من الأئمة، كما أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله بعث على فترة من الرسل.[٢٨١]

وفي عيون أخبار الرضا (ع) عن علي عليه السلام، قال: قال النبي (ص): لا تذهب الدنيا حتى يقوم رجل من ولد الحسين يملاها عدلا كما ملئت ظلما وجورا.[٢٨٢]

و عن الصادق جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله: المهدي من ولدي، اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، أشبه الناس بي خلقا وخلقا تكون له غيبة وحيرة حتى تضل الخلق عن أديانهم، فعند ذلك يقبل كالشهاب الثاقب فيملأها قسطا و عدلا كما ملئت ظلما و جورا.[٢٨٣]

(وَ حُفَّهُ بِمَلَائِكَتِكَ الْمُقَرَّبِينَ):

حري بنا طلبا لتمام الفائدة، أن نطلع على ما حققه العلامة الطباطبائي (قدس سره الشريف) تحت عنوان (كلام في الملائكة)، إذ يقول: تكرر ذكر الملائكة في القرآن

---

[٢٨١] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٣٤١

[٢٨٢] عيون أخبار الرضا (ع) - الشيخ الصدوق - ج ١ - ص ٧١

[٢٨٣] كمال الدين وتمام النعمة - الشيخ الصدوق - ص ٢٨٧

الكريم، و لم يذكر منهم بالتسمية إلا جبريل وميكال، و ما عداهما مذكور بالوصف كملك الموت والكرام الكاتبين والسفرة الكرام البررة والرقيب والعتيد وغير ذلك.

والذي ذكره اللهّ سبحانه في كلامه - وتشايعه الأحاديث السابقة - من صفاتهم وأعمالهم هو:

أولا / أنهم موجودات مكرمون هم وسائط بينه تعالى وبين العالم المشهود فما من حادثة أو واقعة صغيرة أو كبيرة إلا وللملائكة فيها شأن وعليها ملك موكل أو ملائكة موكلون بحسب ما فيها من الجهة أو الجهات، وليس لهم في ذلك شأن إلا إجراء الأمر الإلهي في مجراه أو تقريره في مستقره كما قال تعالى(لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون)(الأنبياء٢٧)

و ثانيا / أنهم لا يعصون اللهّ فيما أمرهم به فليست لهم نفسية مستقلة ذات إرادات مستقلة تريد شيئا غير ما أراد اللهّ سبحانه فلا يستقلون بعمل ولا يغيرون أمرا حملهم اللهّ إياه بتحريف أو زيادة أو نقصان قال تعالى ﴿لا يعصون اللهّ ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾(التحريم٦).

و ثالثا / أن الملائكة على كثرتهم على مراتب مختلفة علوا ودنوا فبعضهم فوق بعض وبعضهم دون بعض فمنهم آمر مطاع ومنهم مأمور مطيع لامره، والامر منهم آمر بأمر اللهّ حامل له إلى المأمور والمأمور مأمور بأمر اللهّ مطيع له. فليس لهم من أنفسهم شئ البتة قال تعالى ﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾(الصافات١٦٤) وقال ﴿مطاع ثم أمين﴾(التكوير٢١)، وقال ﴿قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق﴾(سبأ٢٣).

و رابعا: أنهم غير مغلوبين، لأنهم إنما يعملون بأمر اللهّ وإرادته ﴿وما كان اللهّ ليعجزه من شئ في السماوات ولا في الأرض﴾(فاطر٤٤)، وقد قال اللهّ ﴿واللهّ غالب على أمره﴾(يوسف٢١) وقال ﴿إن اللهّ بالغ أمره﴾(الطلاق٣). و من هنا يظهر أن الملائكة موجودات منزهة في وجودهم عن المادة الجسمانية التي هي في معرض الزوال و الفساد و التغير و من شأنها الاستكمال التدريجي الذي تتوجه به إلى غايتها، و ربما صادفت الموانع والآفات فحرمت الغاية و بطلت دون البلوغ إليها.[٢٨٤]

و لقد ذكر القرآن الكريم مواطن حف اللهّ تعالى نبيه الأكرم (ص) بملائكته، و أيده بهم ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة/٤٠)

---

[٢٨٤] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ١٧ - ص ١٢ - ١٣

بل و قد من فضل اللّه سبحانه ولطفه أن استجاب لاستغاثة المؤمنين حين ألم بهم الضعف ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(الأنفال٩-١٠).

وفي ذلك دلالة واضحة على أن من سنن اللّه تعالى أن ينصر أولياءه و يعلي كلمته في كل الأدوار و العصور، وهذا المعنى هو تصرح به الآية الشريفة ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾(غافر/٥١).

و كلمة (حف) تعني إحاطة الشئ بالشئ، و الطواف حوله و العكوف عليه[٢٨٥] و فيها شئ من التعظيم و الحفاظ والحماية و الرعاية إضافة إلى معنى الإحاطة.

فهو طلب و تضرع إلى اللّه سبحانه أن يكلف بلطفه عددا لا يعلمه إلا اللّه من خواص الملائكة، ليكونوا حافين ملازمين للإمام المهدي المنتظر (عجل اللّه فرجه الشريف)، يخدمونه و يوقرونه و يأتمرون بأمره، و يحامون عنه و يحفظونه من الأعداء و من كل سوء و بلاء.

و قد وردت عبارة (الملائكة المقربون) مرة واحدة في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾(النساء/١٧٢).

(وَ أيِّدهُ بِرُوحِ القُدُسِ):

إن الطمع الذي هو قبيح، يصبح من الفضائل و المكارم إذا كان على باب الرب الجواد الكريم المنان بالعطيات.

و من هنا فلا يقف التضرع إلى اللّه في المسألة عند حد تكليف الملائكة المقربين بأن يحفوا ببقية اللّه في أرضه صلوات اللّه وسلامه عليه، بل يزيد الإلحاح و تكثر الطلبات.

و هنا نجد الدعاء صريحا بالطلب من اللّه تعالى أن ينصر الحجة (عج) و يؤيده بأفضل ملائكته (روح القدس).

و يخبرنا القرآن الكريم أن اللّه تعالى يؤيد بروح القدس خاصة أنبياءه و أولياءه ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ

---

[٢٨٥] معجم مقاييس اللغة - أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا - ج ٢ - ص ١٤

بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(المائدة/١١٠) و في هذه الآية المباركة إشارة إلى أن الخوارق والمعجزات التي جرت على يد المسيح عيسى (ع) إنما هي من آثار تأييد الله عز و جل له (ع) بروح القدس.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾(البقرة/٢٥٣) و هنا يتبين لنا أن التأييد بروح القدس هو من أبرز علامات تفضيل المسيح عيسى (ع) الذي هو من الخمسة أنبياء أولي العزم.

بل و إن الله تبارك و تعالى قد خص روح القدس بإنزال القرآن العظيم على نبينا الأكرم محمد (ص) ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(النحل/١٠٢).

عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سألته عن علم الإمام بما في أقطار الأرض و هو في بيته مرخي عليه ستره ؟

فقال: يا مفضل ان الله تبارك و تعالى جعل في النبي صلى الله عليه وآله وسلم خمسة أرواح: روح الحياة فبه دب و درج، و روح القوة فبه نهض و جاهد، و روح الشهوة فبه أكل وشرب و أتى النساء من الحلال، و روح الايمان فبه آمن و عدل، و روح القدس فبه حمل النبوة. فإذا قبض النبي صلى الله عليه وآله وسلم انتقل روح القدس فصار إلى الإمام. و روح القدس لا ينام و لا يغفل، و لا يلهو و لا يزهو و لا يلعب، والأربعة الأرواح تنام و تغفل، و تلهو و تزهو، و روح القدس كان يرى به.[٢٨٦]

يقول سماحة آية الله العظمى الشيخ جوادي آملي (دامت بركاته) في تفسيره القيم (إن إضافة كلمة (روح) إلى كلمة (القدس) هو من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة مثل (حاتم الجود)، و عليه، فإن معنى (روح القدس) هو الروح المقدسة، المنزهة من كل نقص و عيب، و المبرئة لغيرها من النواقص و العيوب.

و يحتمل أيضا أن يكون (روح القدس) تعبيرا آخر عن (روح الله) الذي استفاضت الأدعية والروايات الشريفة في إطلاقه على المسيح عيسى (ع).

بمعنى أن المراد من (القدس) هو رب العزة و الجلالة، فهي الروح المقدسة المنزهة عن النواقص و العيوب.[٢٨٧]

---

[٢٨٦] تفسير نور الثقلين - الشيخ الحويزي - ج ١ - ص ٩٨

[٢٨٧] تفسير تسنيم ج٥ ص٤٤٧

(يا ربِّ العالمين):
يورد الحكيم الرباني الشيخ جوادي آملي (أدام اللّه عزه) في تفسيره الكبير، روايتين تلقيان الكثير من الضوء على عظيم شأن دعاء اللّه سبحانه وتعالى باسم الربوبية، والروايتان هما: روي أن موسى (عليه السلام) قال مرة: يا رب. فأجابه اللّه تعالى: لبيك يا موسى. فعجب موسى (عليه السلام) من ذلك ؛ فقال: يا رب أهذا لي خاصة ؟ فقال: لا و لكن لكل من يدعوني بالربوبية.
و عن الصادق (عليه السلام): من أحزنه أمر فقال: ربنا ربنا خمس مرات، نجاه اللّه تعالى مما يخاف و أعطاه ما أراد.[٢٨٨]
وفي المحاسن عن أبي بصير، عن أبي عبد اللّه (ع)، قال: إن الرجل منكم ليقف عند ذكر الجنة و النار ثم يقول: " أي رب، أي رب، أي رب " ثلاثا، فإذا قالها نودي من فوق رأسه: سل ما حاجتك.[٢٨٩]

(اللّهمّ اجْعَلْهُ الدّاعِيَ إلى كِتابِك):
كتاب اللّه تعالى هو دينه، الذي جاء الأنبياء و الرسل الكرام (ع) يدعون إليه، و الذي يعرض عنه أصحاب الشهوات والأهواء خوفا على مصالحهم الدنيوية ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ. وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ..﴾(البقرة ١٠١-١٠٢).
والدعوة إلى كتاب اللّه تعالى ليست بالمهمة السهلة، التي يمكن لأي أحد من الناس أن يؤديها، و إنما هي رسالة ينتخب اللّه سبحانه لأدائها خاصة أوليائه، و اللّه أعلم حيث يجعل رسالته.
لأن الدعوة إلى كتاب اللّه، تستلزم العلم أولا بكتاب اللّه، وليس ذلك إلى عند الصفوة من الناس، و هم وحدهم القادرون و المؤهلون للشهادة على حقانية رسل اللّه عليهم السلام ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾(الرعد/٤٣).
قال عليه السلام: (إن أولياء اللّه هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها، واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس بعاجلها، فأماتوا منها ما خشوا أن يميتهم، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم، و رأوا استكثار غيرهم منها استقلالا.

---

[٢٨٨] تفسير تسنيم، ج١٦ ص٧١٢
[٢٨٩] المحاسن - أحمد بن محمد بن خالد البرقي - ج ١ - ص ٣٥

ودركهم لها فوتا. أعداء ما سالم الناس، وسلم ما عادى الناس. بهم علم الكتاب و به علموا. و بهم قام الكتاب و به قاموا. لا يرون مرجوا فوق ما يرجون، و لا مخوفا فوق ما يخافون).[٢٩٠]

عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال (قال الذي عنده علم من الكتاب انا اتيك به قبل ان يرتد إليك طرفك) قال ففرج أبو عبد اللّه عليه السلام بين أصابعه فوضعها على صدره ثم قال: واللّه عندنا علم الكتاب كله.[٢٩١]

و عن أبي سعيد الخدري، قال: سألت رسول اللّه (ص) عن قول اللّه جل ثناؤه (قال الذي عنده علم من الكتاب) قال: ذاك وصي أخي سليمان بن داود. فقلت له: يا رسول اللّه، فقول اللّه عز وجل: (قل كفى باللّه شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب)، قال: ذاك أخي علي بن أبي طالب.[٢٩٢]

و في هذه العبارة الكريمة (اللهم اجعله الداعي إلى كتابك) تصريح بأن الداعي إلى كتاب اللّه لا يكون بارتجال من عند نفسه، و إنما يكون بجعل من اللّه تعالى، كما قال سبحانه ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(الأنبياء/٧٣).

و يحدثنا القرآن الكريم عن ثناء اللّه سبحانه على مؤمن آل فرعون إذ جاء يدعو إلى كتاب اللّه تعالى و اتباع الرسل ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ. اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ. وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ. إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ. قِيلَ ادْخُلْ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾(يس ٢٠-٢٧).

و في الحقيقة فإن هذه الفقرة و مثيلاته، إنما هي تقرير بأن الأمر واقع على هذا النحو بمشيئة اللّه تبارك اسمه.

فهي شكر و حمد للّه تعالى على تفضله بأن جعل الإمام المهدي الموجود الموعود (صلوات اللّه وسلامه عليه) الداعي إلى كتاب اللّه تعالى، و إن كانت العبارة في صيغة طلب.

---

[٢٩٠] نهج البلاغة - خطب الإمام علي (ع) - ج ٤ - (٤٣٢) ص ١٠١

[٢٩١] بصائر الدرجات - محمد بن الحسن الصفار - ص ٢٣٢ - ٢٣٣

[٢٩٢] الأمالي - الشيخ الصدوق - ص ٦٥٩

كما أنها من جهة أخرى تضرع إلى اللّه تعالى بإنجاز الأمر على هذا النحو الذي قد قرره في كتابه سبحانه من قبل أن يخلق السموات و الأرض.
وكما يقول العلامة الطباطبائي (أعلا اللّه مقامه): فطلب كل حق أوجبه اللّه تعالى على نفسه منه، كسؤال المغفرة للتائب، هو في الحقيقة رجوع إليه لاستنجاز ما وعده، وإظهار اشتياق للفوز بكرامته.
وكذا لا يستلزم التفضل منه تعالى كون الفعل جائز الصدور غير واجبه، فكل عطية من عطاياه تفضل، سواء كانت واجبة الصدور أم لم تكن، إذ لو كان فعل من أفعاله واجب الصدور عنه، لم يكن إيجابه عليه بتأثير من غيره فيه وقهره عليه، إذ هو المؤثر في كل شئ لا يؤثر فيه غيره، بل كان ذلك بإيجاب منه تعالى على نفسه، و يؤل معناه إلى قضائه تعالى فعل شئ من الأفعال وإفاضة عطية من العطايا قضاء حتم، فيكون سبحانه إنما يفعله بمشية من نفسه، منزها عن إلزام الغير إياه عليه، متفضلا به، فالفعل تفضل منه وإن كان واجب الصدور، و أما لو لم يكن الفعل واجب الصدور فكونه تفضلا أوضح.[٢٩٣]

(وَ القائِمَ بِدِينِكَ):

و القائم في الملك و نحوه: الحافظ. و كل من كان على الحق فهو القائم المسك به.[٢٩٤]
وإذ وعد اللّه تعالى أن يحفظ دينه، وأن يظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وبشر عباده بأن الأرض للّه يورثها عباده الصالحين، و توعد الغاصبين من بني إسرائيل بالذلة والصغار والخزي والعار ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾(الإسراء/٧).
كل ذلك إنما هو بالمهدي الموجود الموعود (عجل اللّه تعالى فرجه الشريف) إذ جعله الحافظ لدينه، و الممسك به.
وقد امتلأت الكتب الروائية بالحديث عن إحقاقه (صلوات اللّه وسلامه عليه) الحق وإظهاره لدين اللّه و تطهيره الأرض من الكفرة الجاحدين، فمن تلك الروايات الشريفة:
روى أبو بصير، عن أبي عبد اللّه، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول اللّه (ص): (المهدي من ولدي اسمه اسمي، وكنيته كنيتي، أشبه الناس بي خلقا وخلقا،

---

[٢٩٣] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ١٧ - ص ٣١١ - ٣١٢
[٢٩٤] كتاب العين - الخليل الفراهيدي - ج ٥ - ص ٢٣٣

تكون له غيبة وحيرة حتى يضل الخلق عن أديانهم، فعند ذلك يقبل كالشهاب الثاقب فيملأها عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما).
و عن أبي جعفر الباقر، عن أبيه، عن اباته عليهم السلام قال: (قال رسول اللهّ (ص): المهدي من ولدي، تكون له غيبة وحيرة تضل فيها الأمم، يأتي بذخيرة الأنبياء، فيملأها عدلا وقسطا كما ملئت ظلما وجورا).
و عن الرضا عليه السلام، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليهم السلام أنه قال: (التاسع من ولدك يا حسين هو القائم بالحق، والمظهر للدين، والباسط للعدل.
قال الحسين عليه السلام: فقلت له: وإن ذلك لكائن ؟
فقال: إي والذي بعث محمدا بالنبوة، واصطفاه على جميع البرية، ولكن بعد غيبة و حيرة، لا يثبت فيهما على دينه إلا المخلصون، المباشرون لروح اليقين، الذين أخذ اللهّ ميثاقهم بولايتنا، وكتب في قلوبهم الايمان، وأيدهم بروح منه).
و عن زرارة بن أعين قال: سمعت أبا عبد اللهّ عليه السلام يقول: " إن للقائم غيبة قبل أن يقوم ". إلى أن يقول:
قال زرارة: فقلت: جعلت فداك، فإن أدركت ذلك الزمان فأي شئ أعمل ؟ قال: (يا زرارة، إن أدركت ذلك الزمان فأدم هذا الدعاء: اللهم عرفني نفسك، فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف نبيك، اللهم عرفني رسولك، فإنك إن لم تعرفني رسولك لم أعرف حجتك، اللهم عرفني حجتك فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني).
و هو الذي ينادي مناد من السماء يسمعه جميع أهل الأرض بالدعاء إليه يقول: ألا ان حجة اللهّ قد ظهر عند بيت اللهّ فاتبعوه فإن الحق معه وفيه،
يا أبا القاسم، ما منا إلا قائم بأمر اللهّ و هاد إلى دين اللهّ، ولكن القائم منا هو الذي يطهر اللهّ عز و جل الأرض به من أهل الكفر و الجحود، و يملأها عدلا و قسطا.[٢٩٥]

(اسْتَخْلِفْهُ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِه):

القرآن الكريم يخبرنا بأن أول خليفة للهّ تعالى في الأرض هو أبونا آدم عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة٣٠).

---

[٢٩٥] إعلام الورى بأعلام الهدى - الشيخ الطبرسي - ج ٢ - ص ٢٢٦-٢٤٧

و الأنبياء و الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، كلهم خلفاء الله في أرضه، و قد نص القرآن على استخلاف داود (ع) ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾(ص/٢٦).

وقد ورد عن أهل بيت العصمة (ع) روايات تبين أن الخلفاء هم الأئمة المعصومون (ع)، منها:

عن الجعفري قال سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: الأئمة خلفاء الله عز وجل في أرضه.

و عن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله جل جلاله: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ قال: هم الأئمة.[296]

(مَكِّنْ لَهُ دِينَهُ الَّذِي ارْتَضَيْتَهُ لَهُ):

وهذه الفقرة مع سابقتها والفقرة التالية، كلها مقتبسة من قوله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾(النور/٥٥).

ولقد مكن الله تعالى نبيه يوسف (ع) من قبل ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾(يوسف/٥٦) وكذلك مكن ذي القرنين (ع) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا. إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾(الكهف٨٣-٨٤).

و التمكين من الله سبحانه إنما هو مقدمة لإقامة دينه وإحياء أمره ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾(الحج/٤١).

و قوله (ع) (الذي ارتضيته له) إشارة إلى قول الحق سبحانه وتعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(المائدة/٣).

---

[296] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ١٩٣

فالله عز و جل قد دعا عباده إلى الإسلام، و لم يقبل منهم غيره ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(آل عمران/٨٥).

(أَبْدِلهُ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِ أَمْنا):

الخوف كما تقول معاجم اللغة يتعلق بالعاقبة النتيجة التي ينتهي إليها فعل ما يخاف منه أو تركه، فمثلا يقال (المؤمن يخاف سوء أعماله) أي أنه يخاف نتائجها التي تعود عليه بالوبال يوم الحساب.

ومن ثم فإن الخوف في ذاته صفة إيجابية، لأنه يدفع بالإنسان إلى التدبر في عواقب أموره، و يمنعه من اقتحام المهالك.

و العاقل إذا سعى إلى أمر، فإنه يحذر كل ما من شأنه أن يفسد عليه مساعيه، و يعوقه عن الوصول إلى مبتغاه، فهو يخاف من الفشل في ما يسعى إليه.

و إذ كان أنبياء الله تعالى و أولياؤه سادة العقلاء و أرجحهم عقلا و فضلا، فإنهم أحرص الناس على إنجاح مساعيهم وتأدية أدوارهم بأكبر درجة من الموفقية.

فهذا نبي الله موسى الكليم (عليه السلام) يخبرنا القرآن الكريم عن خوفه ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾(الشعراء/١٠-١٢).

فكليم الله موسى (ع) يفصح لربه الكريم عن خوفه من أن يكذبه القوم الذين يرسله الله سبحانه و تعالى لهدايتهم، ومن ثم تكون النتيجة دخولهم جهنم و بئس المصير.

وقد روي أن رسول الله (ص) نزل حتى لحد سعد بن معاذ وسوى اللبن عليه، وجعل يقول: ناولني حجرا، ناولني ترابا رطبا، يسد به ما بين اللبن، فلما أن فرغ وحثا التراب عليه وسوى قبره قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (إني لأعلم أنه سيبلى ويصل إليه البلاء ولكن الله يحب عبدا إذا عمل عملا أحكمه).[٢٩٧]

وفي ضوء هذا البيان، يتضح لنا معنى أن يكون الإمام صاحب العصر والزمان (أرواحنا لتراب مقدمه الفداء) يمسي و يصبح خائفا.

فالمهمة التي ادخره الله تعالى لها ليست قليلة الشأن، وأثرها على الناس كافة، ليس مما يستهان به.

---

[٢٩٧] وسائل الشيعة (آل البيت) - الحر العاملي - ج ٢ - ص ٨٨٤

فهو المدخر لتجديد الفرائض والسنن، و هو المتخير لإعادة الملة والشريعة، وهو المؤمل لإحياء الكتاب وحدوده.

هو المنتظر الذي يملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت ظلما وجورا، وهو الطالب بذحول الأنبياء وأبناء الأنبياء، وهو الطالب بدم المقتول بكربلاء.

فحقيق به (عجل اللّه فرجه الشريف) أن يخاف خذلان الناصر، و قلة الصديق وكثرة العدو و شدة الفتن التي تصرف الناس عن الحق و الهدى.

وهو صلوات اللّه و سلامه عليه يعلم يقينا بأن اللّه تعالى أبى أن يجري الأمور إلا بأسبابها، و يعلم بأن اللّه تعالى لا يؤتي نصره إلا من كان أهلا له، وهذا ما تصرح به آيات الذكر الحكيم ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾(محمد/٧) و أما الذين يتولون عن نصر اللّه سبحانه فإن اللّه تعالى غني عنهم ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(محمد/٣٨).

فلا بد من وجود الناصر المؤمن الصادق، الذي يؤازر الإمام المنتظر (عجل اللّه فرجه الشريف)، و إلا فإن الغيبة ستطول و تمتد حتى ﴿يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(المائدة/٥٤).

فهو صلوات اللّه وسلامه عليه يخاف على الناس من طول الإنتظار أن يضلوا ويتيهوا عن دين اللّه تعالى، فلقد وردت عن أهل البيت صلوات اللّه و سلامه عليهم أجمعين في هذا روايات كثيرة، منها:

عن يمان التمار قال: كنا عند أبي عبد اللّه عليه السلام جلوسا فقال لنا: إن لصاحب هذا الامر غيبة، المتمسك فيها بدينه كالخارط للقتاد.

و عن المفضل بن عمر قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: إياكم والتنويه أما واللّه ليغيبن إمامكم سنينا من دهركم ولتمحصن حتى يقال: مات قتل، هلك، بأي واد سلك ؟ ولتدمعن عليه عيون المؤمنين، ولتكفأن كما تكفأ السفن في أمواج البحر فلا ينجو إلا من أخذ اللّه ميثاقه، وكتب في قلبه الايمان، وأيده بروح منه، ولترفعن اثنتا عشرة راية مشتبهة، لا يدرى أي من أي.

قال: فبكيت ثم قلت: فكيف نصنع ؟ قال: فنظر إلى شمس داخلة في الصفة، فقال: يا أبا عبد اللّه ترى هذه الشمس قلت نعم، فقال: واللّه لأمرنا أبين من هذه الشمس.

و عن ابن أبي يعفور قال سمعت أبا عبد اللّه (ع) يقول: ويل لطغاة العرب، من أمر قد اقترب، قلت: جعلت فداك كم مع القائم من العرب ؟ قال: نفر يسير، قلت: واللّه إن من

يصف هذا الامر منهم لكثير، قال: لا بد للناس من أن يمحصوا ويميزوا ويغربلوا و يستخرج في الغربال خلق كثير.[٢٩٨]

إن إبدال الخوف بالأمن، لا يتحقق إلا أن يعجل الله تعالى لوليه الفرج و ينزل عليه النصر، كما وعده، فعندئذ يدخل هو سلام الله عليه و أنصاره المسجد آمنين محلقين رؤوسهم لا يخافون.

وهذا يستلزم، كما قد بينا، أن يعد أنصاره العدة، ويسطروا ملاحم النصر لله عز و جل، فإذا رأى الله تعالى منهم الثبات والنصر أنزل عليهم نصره، فأظهر لهم الإمام صاحب العصر والزمان صلوات الله وسلامه عليه، وبذلك يبدل الله سبحانه وتعالى خوف وليه الحجة ابن الحسن (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أمنا و سكينة و يقر عينه بنصر الله سبحانه له و إظهار الدين على يديه.

(يَعْبُدُكَ لا يُشْرِكُ بِكَ شَيْئاً):

و هذا هو الذي يصف به الله سبحانه أولياءه في كتابه المجيد ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾(الحج/٤١) فالتمكين في الأرض ليس إلا مقدمة لتطهير الأرض من عبادة غير الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾(الرعد/٣٦).

و بإحقاق الحق وإظهار الدين على الدين كله و لو كره المشركون، وتطهير الأرض من اللات والعزى و كل الأصنام والآلهة المصطنعة المكذوبة.. إخلاص في العبودية لله سبحانه و تأكيد على عبادته عز و جل وحده لا شريك له.

و لهذا نظير في القرآن الكريم، يقول سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾(النساء/١٣٦).

(اللّهمّ أعِزّهُ وَ أعْزِزْ بِهِ):

و هنا مسألة يجب الإلتفات إليها، ألا و هي أن القرآن الكريم يقرر أن وجود الأنبياء الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، هو منشأ لكثير من البركات وسبب لدفع كثير من السوء عن الناس جميعا.

---

[٢٩٨] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٣٣٥

و من ذلك قوله تعالى في نوح (ع) ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾(المؤمنون/٢٩) و في إبراهيم و إسحاق (عليهما السلام) ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾(الصافات/١١٣) و في المسيح عيسى (ع) ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾(مريم/٣١) و هكذا كانت وجود النبي الأكرم (ص) ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾(الأنفال/٣٣) ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً. سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾(الإسراء٧٦-٧٧).

و حين يروي لنا القرآن الكريم قصة هجرة النبي الأكرم (ص) ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة/٤٠) فإنه يبين بشكل لا لبس فيه أن النبي الأكرم (ص) هو واسطة الفيض الإلهي، إذ أن اللّه سبحانه ينزل سكينته على رسوله الأكرم (ص) ليسكبها على قلب صاحبه، فيشعر بالأمن و الإطمئنان.

و قد ثبت في محله أن ما كان للنبي الأكرم (ص) فهو للأئمة الطاهرين من بعده صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين، إلا ما استثني بالدليل البين، كالنبوة و الرسالة.

فالإمام الحجة (عج) هو محل العزة و الكرامة من اللّه تعالى، و بواسطته ينال أولياؤه العزة و الكرامة، وكل طريق غيره صلوات اللّه عليه، لا يوصل الإنسان إلا إلى الذلة و المهانة.

(وَانْصُرْهُ وَ انْتَصِرْ بِهِ):

وهكذا يكون الإمام (عج) هو واسطة النصر الإلهي، فبانتصاره يظهر الحق و تعلو كلمة الدين، فيكون انتصاره انتصارا باهرا للدين و للمؤمنين.

و كم من الثارات التي ينتظر الموتورون بها، ظهور الطالب بثارات الأنبياء وأبناء الأنبياء.

و كم من مظلوم، اشتدت ظلامته، فلم يعد يرى طالبا له بحقه، غير المهدي المنتظر الموجود الموعود (عج).

و كم من حق ضائع بين أكوام من الباطل، يتلمس الطريق إلى بقية اللّه في أرضه (عج) ليكشفه للناس، و يعيد إليه بريقه و رونقه.

(وَ انْصُرْهُ نَصْراً عَزِيزاً):
إنه وعد الله تعالى لنبيه الأكرم (ص) ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾(الفتح/٣) فكان فتح مكة المكرمة، هو أول طلائع ذلك النصر العزيز، ثم لم يقف عند ذلك بل توالت الإنتصارات في مختلف الميادين، ليكون ظهور الحجة المهدي من آل محمد (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) وإحقاق الحق على يديه، و إزهاق الباطل بسيفه، ذروة ذلك النصر العزيز.

(وَ افْتَحْ لَهُ فَتْحاً يَسِيراً):
كما فتح من قبل لجده النبي الأكرم (ص)، فدخل مكة المكرمة بعد سنوات طوال و بعد أن اشتد اشتياقه صلوات الله وسلامه عليه لها، فكان وعد الله تعالى المحقق ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾(الفتح/١).
وإذ كانت مكة المكرمة هي أم القرى، وكما يقول سماحة آية الله العظمى الشيخ ناصر المكارم الشيرازي (حفظه الله ورعاه) في رده على من أشكل على عالمية الإسلام بالتمسك بقوله تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾(الأنعام/٩٢): (ولكن فيما يخص الآية التي نحن بصددها، يظهر لنا السؤال التالي: إن الآية توجه الإنذار والهداية إلى أم القرى ومن حولها، فكيف ينسجم هذا مع القول بأن الإسلام عالمي ؟
في الحقيقة أن هذا الاعتراض جاء أيضا على لسان اليهود وغيرهم من أتباع الأديان الأخرى ظانين أنهم قد أصابوا من عالمية الإسلام مقتلا، باعتبار أن الآية تحدد مكانه بمنطقة خاصة هي مكة وأطرافها.
يتضح الجواب على هذا الاعتراض بالانتباه إلى نقطتين، بحيث ندرك أن هذه الآية، فضلا عن كونها لا تتعارض مع عالمية الإسلام، هي واحد من أدلة عالميته أيضا .
القرية بلغة القرآن اسم لكل موضع يجتمع فيه الناس، سواء كان مدينة كبيرة أم قرية صغيرة، ففي سورة يوسف - مثلا - جاء على لسان اخوة يوسف يخاطبون أباهم: ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ ونحن نعلم أنهم كانوا قد رجعوا لتوهم من عاصمة مصر حيث حجز عزيز مصر أخاهم (بنيامين) كذلك نقرأ: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾. بديهي أن المقصود هنا ليس القرى في الأرياف، بل هو كل منطقة مسكونة في العالم. ومن جهة أخرى هناك روايات عديدة تقول: إن اليابسة قد انتشرت من تحت الكعبة، وهو ما أطلق عليه

اسم " دحو الأرض ". كما أننا نعلم أنه في البداية هطلت أمطار غزيرة فغطى الماء الكرة الأرضية برمتها، ثم غاض الماء شيئا فشيئا واستقر في المنخفضات. وظهرت اليابسة من تحت الماء، وكانت مكة أول نقطة يابسة ظهرت من تحت الماء، حسب الأحاديث الإسلامية. وكون مكة ليست أعلى مكان على الكرة الأرضية في الوقت الحاضر، لا يتعارض أبدا مع هذا القول، لأن مئات الملايين من السنين تفصلنا اليوم عن ذاك الزمان، وقد حدثت خلال ذلك تغيرات جغرافية بدلت وجه الأرض كليا، فبعض الجبال هبطت إلى أعماق البحار، وبعض أعماق البحار ارتفع فصار جبلا، وهذا ثابت في علم التضاريس الأرضية والجغرافية الطبيعية. أما كلمة " أم " فتعني الأصل والأساس والمبدأ لكل شئ. من كل هذا يتبين أنه إذا أطلق مكة اسم " أم القرى " فذلك يستند إلى أنها كانت مبدأ ظهور اليابسة على الأرض، " ومن حولها " أي جميع الناس الذين يسكنون الأرض برمتها.[٢٩٩]

وقد من اللّه تعالى على نبيه بأن فتح له مكة فتحا مبينا، أفلا يعني أن ذلك الفتح يشمل الكرة الأرضية كلها، بناء على أن (أم القرى) هي مركز العالم كله.

وهذا هو الفتح الذي يتم بإذن اللّه على يد المهدي من آل محمد صلوات اللّه و سلامه عليه و على آبائه الطاهرين.

(وَ اجْعَلْ لَهُ مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً):

و قد ورد مثل هذا الدعاء في كتاب اللّه المجيد، مما يأمر به اللّه تعالى نبيه الأكرم (ص) ﴿وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾(الإسراء/٨٠).

يقول العلامة الطباطبائي قدس سره: (وقوله ﴿واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا﴾ أي سلطنة بنصرتي على ما أهم به من الأمور وأشتغل به من الأعمال فلا أغلب في دعوتي بحجة باطلة، ولا أفتتن بفتنة أو مكر يمكرني به أعداؤك ولا أضل بنزغ شيطان ووسوسته).[٣٠٠]

ويقول سماحة الشيخ مكارم الشيرازي (دام ظله العالي): (و الإنسان الوحيد لا يستطيع أن ينجز عملا، ولا يستطيع أن ينتصر في مقابل جميع هذه المشاكل فيما إذا اعتمد على قوته وحدها، لذلك فسؤاله من اللّه تبارك وتعالى، هو انصرني واجعل

---

[٢٩٩] الأمثل - الشيخ ناصر مكارم الشيرازي - ج ٤ - ص ٣٨٢ - ٣٨٤

[٣٠٠] تفسير الميزان - السيد الطباطبائي - ج ١٣ - ص ١٧٦

لي نصيرا. أعطني يا إلهي، لسانا ناطقا، وأدلة قوية في مقابل الأعداء، وأتباعا يضحون بأنفسهم، وإرادة قوية، وفكرا وضاءا، وعقلا واسعا بحيث تقوم كل هذه الأمور بنصرتي، فغيرك لا يستطيع إعطائي هذه الأشياء كلها).[301]

وقد جعل اللهّ تعالى لكليمه موسى (ع) وأخيه هارون ومن تبعهما من المؤمنين، سلطانا يحصنهم به من كيد أعدائهم ويقيهم به من بغيهم ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونُ﴾(القصص/٣٥).

كما جعله سبحانه لولي المقتول ظلما، ليعينه على طلب ثأره وينصره على أعدائه بالحق ومن غير بغي ولا إسراف ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾(الإسراء/٣٣) و لا يخفى على أحد أن المهدي المنتظر (عج) هو الطالب بثأر جده سيد الشهداء (ع) المقتول ظلما و عطشا بكربلاء، دفاعا عن الحق و المبدأ.

(اللّهمّ أظهِرْ بِهِ دِينَكَ):

أرسل اللهّ تعالى خاتم أنبيائه وسيد رسله النبي الأكرم (ص) على فترة من الرسل وانقطاع من الوحي، خيمت فيها الغفلة والجهالة على الناس، فكانوا على شفا حفرة من النار، نهزة الطامع، و مذقة الشارب، و قبسة العجلان، وموطأ الأقدام، يشربون الطرق، و يقتاتون القد، أذلة خاسئين، فأنقذهم اللهّ تعالى بحبيبه و رسوله محمد (صلى اللهّ عليه وآله وسلم) الذي بعثه رحمة للعالمين.

وقد وعد اللهّ رسوله الكريم (ص) أن يظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونُ﴾(التوبة/٣٣)

ولكن التاريخ يحدثنا بأن النبي الأكرم (ص) انتقل إلى جوار ربه الكريم، و لما يعم الدين أرجاء المعمورة، و لما يظهر على الدين كله، فكيف إذن بوعد اللهّ تعالى، و اللهّ لا يخلف الميعاد.

إنها سنن اللهّ تعالى، أبى اللهّ أن يجري الأمور إلا بأسبابها، ولو شاء اللهّ لهدى الناس جميعا، و لكنه عز و جل أجرى مشيئته بحكمته، فقضى سبحانه أن يعترك الحق

---

[301] الأمثل - الشيخ ناصر مكارم الشيرازي – ج٩ ص٨٩

والباطل فالباطل وإن كانت له جولة، فإن اللّه تعالى قد وعد الحق بدولة كريمة، يعز بها الإسلام و أهله.

و هذا ما يتحقق بإذن اللّه تبارك و تعالى على يد الإمام المهدي من آل محمد (ص).

فتكون بداية ظهور الدين على الدين كله، على يد النبي الأكرم (ص) وهو الذي يضع أساس هذا الصرح القويم ويبني اللبنة الأولى لهذا العماد الشامخ، و يرعاه الأئمة الطاهرون على امتداد الخط، يفدونه بمهجهم و أرواحهم، ويستشهدون في سبيله، و يذبون عنه الشبهات والأوهام، ويدفعون عنه تخرصات المبطلين، حتى يصل إلى بقية اللّه في أرضه، و حجته على عباده، المهدي الموجود الموعود (عج) فيظهره بأبهى حلة كاملا مكملا، كما أنزله اللّه رسوله (ص) مكتملا تاما مرضيا عنده سبحانه.

(وَ سُنَّةَ نَبِيِّكَ):

إن الدين لا يكتمل حتى يعجن القرآن الكريم فيه مع السنة النبوية الطاهرة.

وإن حبل اللّه المتين، و عروته الوثقى، ليست إلا كتاب اللّه عترة نبيه الأكرم (ص).

فمن أراد النجاة والسلامة يوم الفزع الأكبر، والسعادة في الدنيا والآخرة، ليس له إلا أن يتمسك بهما معا.

وهذا المعنى صريح و واضح في كتاب اللّه المجيد، يقول عز من قائل ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(النساء/٦٥) و ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(الحشر/٧) و ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(الأعراف/١٥٨).

كما أن السنة الشريفة صادعة بهذه الحقيقة، و كفى بحديث الثقلين شاهدا على ذلك (إني تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه عز وجل، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي وإن اللطيف أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروني بم تخلفوني فيهما).[٣٠٢]

و قد نقل لنا التاريخ أن بعض المسلمين اجتهدوا في صدر الإسلام، و رأوا أن لا يكتبوا السنة النبوية المطهرة، زعما منهم أن في ذلك صيانة للقرآن الكرم من التحريف !!

---

[٣٠٢] الإمامة والتبصرة - ابن بابويه القمي - ص مقدمة التحقيق ٧

فضاعت باجتهادهم ذلك، كنوز عظيمة، وعلوم جمة غفيرة، لا يعادلها شئ، و لا يستعاض عنها بشئ.

ففيها من تفسير القرآن الكريم، ما لا يمكن فهم الآيات الشريفة إلا به، والقرآن ينص على أن المفسر و المبين له هو الرسول الأكرم (ص) بما آتاه الله تعالى من بيانه و علمه من تفسيره ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل/٤٤).

ومما لا شك فيه أن الأئمة المعصومين (ع) قد و رثوا العلم والفضل من رسول الله (ص)، و قد دلت على ذلك روايات عدة، نورد بعضها:

عن أبي جعفر عليه السلام قال:.. إن الله عز وجل جمع لمحمد صلى الله عليه وآله سنن النبيين من آدم وهلم جرا إلى محمد صلى الله عليه وآله.

قيل له: و ما تلك السنن ؟

قال: علم النبيين بأسره، وإن رسول الله صلى الله عليه وآله صير ذلك كله عند أمير المؤمنين عليه السلام.[٣٠٣]

و عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن العلم الذي نزل مع آدم عليه السلام لم يرفع، والعلم يتوارث، وكان علي عليه السلام عالم هذه الأمة، وإنه لم يهلك منا عالم قط إلا خلفه من أهله من علم مثل علمه، أو ما شاء الله.[٣٠٤]

و يروي عبد الله بن جندب أنه كتب إليه الرضا عليه السلام: أما بعد، فان محمدا صلى الله عليه وآله كان أمين الله في خلقه فلما قبض (ص) كنا أهل البيت ورثته، فنحن أمناء الله في أرضه، عندنا علم البلايا والمنايا، وأنساب العرب.. [٣٠٥]

و عن جابر قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: ما ادعى أحد من الناس أنه جمع القرآن كله كما أنزل إلا كذاب وما جمعه وحفظه كما نزله الله تعالى إلا علي بن أبي طالب عليه السلام والأئمة من بعده عليهم السلام.[٣٠٦]

عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: ما يستطيع أحد أن يدعي أن عنده جميع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء.[٣٠٧]

---

[٣٠٣] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٢٢٢
[٣٠٤] المصدر نفسه
[٣٠٥] المصدر نفسه
[٣٠٦] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٢٢٨
[٣٠٧] المصدر نفسه

عن عبد الاعلى مولى آل سام قال: سمعت أبا عبد اللّه عليه السلام يقول: واللّه إني لاعلم كتاب اللّه من أوله إلى آخره كأنه في كفي فيه خبر السماء وخبر الأرض، وخبر ما كان، وخبر ما هو كائن، قال اللّه عز وجل (فيه تبيان كل شئ).[٣٠٨]

و قد مارس الأئمة الطاهرون (ع) أدوارهم المختلفة، لتحقيق الهدف الواحد، و هو هداية الناس و إرشادهم إلى دين اللّه سبحانه، بما يتناسب مع الظروف الموضوعية الخارجية، المحيطة بكل إمام معصوم، عليهم السلام جميعا.

إلا أنه كان من الطبيعي أن لا يتاح المجال للأئمة المعصومين (ع) أن يظهروا كل دين اللّه تعالى، لما أحاط بهم (ع) من القهر و القمع و الظلم و الإقصاء، من قبل حكام بني أمية ثم من بعدهم حكام بني العباس.

و صفحات التاريخ شاهدة على، و ما روي عنهم صلوات اللّه وسلامه عليهم، يخبرنا بحجم المعاناة التي كانوا يلاقونها، حتى استفاض الحديث بالتقية عنهم (ع)، إذ أمروا أصحابهم بها، و نصحوهم بكتمان أمرهم، لأن القتل والسجن كان يترصدهم (ع)، و مما روي عنهم (ع):

عن معلى بن خنيس قال: قال أبو عبد اللّه (ع): (يا معلى اكتم أمرنا و لا تذعه، فإنه من كتم أمرنا ولم يذعه أعزه اللّه في الدنيا، وجعله نورا بين عينيه في الآخرة يقوده إلى الجنة، يا معلى من أذاع حديثنا وأمرنا ولم يكتمها أذله اللّه به في الدنيا، ونزع النور من بين عينيه في الآخرة، وجعله ظلمة تقوده إلى النار، يا معلى إن التقية ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له).

و عن داود الرقي ومفضل وفضيل قال: كنا جماعة عند أبي عبد اللّه (ع) في منزله يحدثنا في أشياء فلما انصرفنا وقف على باب منزله قبل أن يدخل ثم أقبل علينا فقال: (رحمكم اللّه لا تذيعوا أمرنا ولا تحدثوا به إلا أهله، فإن المذيع علينا سرنا أشد علينا مؤنة من عدونا، انصرفوا رحمكم اللّه ولا تذيعوا سرنا).

و عن أبي عبد اللّه (ع) قال: (من أذاع علينا شيئا من أمرنا فهو كمن قتلنا عمدا ولم يقتلنا خطأ).

عن أبي عبد اللّه (ع) قال: (اتقوا اللّه على دينكم، واحجبوا بالتقية فإنه لا ايمان لمن لا تقية له، إنما أنتم في الناس كالنحل في الطير لو أن الطير تعلم ما في جوف النحل ما بقي فيها شئ إلا أكلته، ولو أن الناس علموا ما في أجوافكم أنكم تحبوننا أهل البيت

---

[٣٠٨] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٢٢٩

لأكلوكم بألسنتهم ولنحلوكم في السر والعلانية، رحم الله عبدا منكم كان على ولايتنا).

و عن أبي جعفر (ع) قال: (إنما جعلت التقية ليحقن بها الدماء، فإذا بلغ الدم فلا تقية).[٣٠٩]

إلا أن الإمام المهدي المنتظر (عجل الله تعالى فرجه الشريف) من حيث أنه خاتم الأئمة (صلوات الله وسلامه عليهم) فإنه يجهر بالدعوة إلى نفسه، و يعلن للناس عن إمامته، وهذا يعني أنه (عج) لا يتقي أحدا في قضيته، و إنما يخرج شاهرا سيفه موطنا على لقاء الله نفسه.

قال أبو عبد الله عليه السلام: (إذا أذن الله تعالى للقائم بالخروج صعد المنبر فدعا الناس إلى نفسه، وناشدهم بالله، ودعاهم إلى حقه، على أن يسير فيهم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم..)

و عنه عليه السلام قال: (إذا قام القائم دعا الناس إلى الاسلام جديدا، وهداهم إلى أمر قد دثر وضل عنه الجمهور، وانما سمي المهدي مهديا لأنه يهدي إلى أمر قد ضلوا عنه، وسمي بالقائم لقيامه بالحق).[٣١٠]

فهو (عجل الله فرجه الشريف) يظهر الإسلام الكامل التام، الذي يجمع بين الثقلين، كتاب الله و عترة نبيه الأكرم صلى الله عليه وآله و سلم.

(حَتّى لا يَسْتَخْفِيَ بِشَيْءٍ مِنَ الْحَقِّ مَخافَةَ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ):

فكما قلنا بأن الإمام المهدي الموجود الموعود (أرواحنا لتراب مقدمه الفداء) لا يتقي أحدا، و لا يتكتم على الحق، لأنه مأمور بأن يظهر دين الله تعالى على الدين كله ولو كره المشركون، و أن يقرأ القرآن كما أنزل، و يعمل بسيرة جده المصطفى (ص).

إذ أنه صلوات الله وسلامه عليه، لو لم يفعل ذلك، فمن الذي سيفعله، و ليس بعده إمام معصوم من آل بيت الرسول الأكرم (ص) ؟!

---

[٣٠٩] المحاسن - أحمد بن محمد بن خالد البرقي - ج ١ - ص ٢٥٥

[٣١٠] إعلام الورى بأعلام الهدى - الشيخ الطبرسي - ج ٢ - ص ٢٨٨

الفصل العشرون / الدعاء بتهيئة الأرض و إعداد المؤمنين لنصرته (عجل اللّه تعالى فرجه الشريف).

إذ كما قلنا أن المسألة العظيمة، التي يلح على طلبها الإمام (ع) في هذا الدعاء الشريف، هي إظهار الحق على يد الإمام المهدي الموجود الموعود صلوات اللّه وسلامه عليه.

و من متطلبات ومستلزمات هذا الظهور، أن يتهيأ المؤمنون ليكونوا أنصاره وأعوانه واللائذين تحت لوائه (عج).

فيخرج صلوات اللّه وسلامه عليه، شاهرا سيفه، مجردا قناته، داعيا إلى اللّه تعالى، لا تأخذه في اللّه لومة لائم. فيقيم الحق و يظهر الدين، و يزهق الباطل ويدحر الظالمين.

و ليس هذا العمل الجبار، ما يمكن تصوره في شخص أو أشخاص، مهما كانوا من العظمة، لأن حكمة الباري تبارك وتعالى تأبى أن تجري الأمور إلا بأسبابها.

و من هنا كان أن هيأ اللّه سبحانه وتعالى لنبيه الأكرم (ص) عندما أراد لدينه أن يظهر، رجالا من الأنصار، عاهدوه (ص) على النصرة، فيما عرف ببيعة العقبة.

ثم أذن اللّه تعالى لنبيه المصطفى (ص) بالهجرة مع أصحابه إلى المدينة المنورة، ليقيم فيها دولة الحق الكريمة، فينعم المسلمون فيها بالعزة والأمان، ويعبدوا اللّه وحده، لا يشركون به شيئا، ولا يخشون إلا إياه، مخلصين له الدين.

وهذا ما يفعله اللّه تعالى لوليه الأعظم و بقيته في أرضه و وارث النبي الأكرم (ص) و مظهر دينه على الدين كله.

(اللّهُمّ إنا نَرْغَبُ إِلَيْكَ فِيـ دَوْلَةٍ كَرِيمَةٍ):

أول ما نلاحظه في هذا الفصل من دعاء الإفتتاح الشريف، هو أن الصيغة اللغوية اختلفت، فبعد أن كانت الفصول السابقة كلها بصيغة المتكلم المفرد (إني أفتتح الثناء بحمدك... أذنت لي... اللهم إني أسألك... يجيبني حين أسأله) نجدها ابتداء من هذه الفصل تصبح بصيغة جمع المتكلمين (إنا نرغب... وتجعلنا فيها...) و كذلك في الفصل التالي (اللهم الم به شعثنا...) ثم في الفصل الأخير (اللهم إنا نشكوا إليك...).

و بهذا يتأكد ما قلناه في مقدمة هذا الفصل، من أن إظهار الدين وإحقاق الحق وإزهاق الباطل وإقامة العدل، كل ذلك ليس عملا فرديا، ولا يمكن القيام به إلا إذا توفرت الأرضية الصالحة لذلك.

ومن أهم عناصر إنجاح تلك القضية السامية، وجود الأنصار و الأعوان، لتصبح القضية من مجرد طلب شخصي فردي إلى مطالبة جماعية جماهيرية.
إن الدعاء للإمام المهدي المنتظر (عجل اللهّ تعالى فرجه الشريف) يمكن أن يكون فرديا، لأنه طلب من اللهّ تعالى، يخلو به الإنسان مع ربه.
و لكن العمل بما يوجب تعجيل ظهور الحجة صلوات اللهّ وسلامه عليه، يحتاج إلى إعداد العدة و توافر الجهود وتظافر الأيدي، و اجتماع الأعوان و الأنصار.
إن العنوان الذي تتبلور فيه مطالب الجماهير المنتظرة للفرج، والمتحفزة للخروج في ركب القائد الإلهي العظيم، الوارث للنبيين والمرسلين، والمظهر لدين اللهّ على الدين كله، هو إقامة (الدولة الكريمة).
وفي ربوع هذه الدولة الكريمة تتحقق كل طموحات المؤمنين، وتتجسد كله أمانيهم العالية الرفيعة.
وينبغي التأكيد على أن حدود هذه (الدولة الكريمة) تتسع باتساع الرقعة المعمورة من الكرة الأرضية، بل وإنها تزيد لتغطي ربوع العالم كله، بأرضه و سمائه، و بره وبحره.
ذلك أن الإمام المهدي المنتظر (عجل اللهّ تعالى فرجه الشريف) كما تنص الروايات الكريمة، يملأ الأرض قسطا وعدلا بعدما ملئت ظلمت و جورا، و على يديه يعم الخير كل الأرض، لتنعم الكائنات كلها في فيء عدله وإحسانه (عج).
و الآية الشريفة ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾(الأنبياء/١٠٥) تدل على أن الأرض كلها تقع تحت حكم بقية اللهّ (عج).
ثم إن الإمام صلوات اللهّ وسلامه عليه، يظهر دين اللهّ على الدين كله، و قد صرح القرآن الكريم بأن الدين عند اللهّ الإسلام، و من يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه.
و أثبت قوله تعالى أن الإسلام هو دين الكائنات كلها ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾(آل عمران/٨٣).
فتحصل مما تقدم أن الإمام المهدي المنتظر (عجل اللهّ تعالى فرجه الشريف) يقيم (الدولة الكريمة) ليظهر دين اللهّ تعالى و ينشر العدل و الكرامة و الرخاء في العالم كله.

(تُعِزُّ بِها الاِسْلامَ وَ أَهْلَهُ):

و أول تلك الأماني والطموحات السامية، تحقق العزة للإسلام و المسلمين الصادقين، الذين هم أهل للإسلام.

فلقد أنزل اللّه تعالى دينه عزيزا، و به ألبس أتباعه وأنصاره العزة والكرامة ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(المنافقون/٨).

ولكن ما جرى من تكالب المسلمين على الدنيا، وارتكاسهم في الهوى، واتباعهم للشهوات، وإعراضهم عن أئمة الحق، أدى إلى خضوعهم و خنوعهم لغير اللّه سبحانه، فسلب اللّه منهم العزة، وألبسهم ثوب الذلة و الصغار، و هذا قول الحق تبارك اسمه ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(النحل/١١٢). وقال رسول اللّه (ص) فيما روي عن علي عليهم السلام أنه قال: قال رسول اللّه (ص) وآله: إن الاسلام بدء غريبا وسيعود غريبا، فطوبى للغرباء.[٣١١]

وعن الإمام أبي الحسن علي بن موسى الرضا (ع) أنه قال: قال رسول اللّه (ص): إذا خرج المهدي من ولدي نزل عيسى بن مريم عليه السلام فصلى خلفه وقال عليه السلام: إن الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء. قيل: يا رسول اللّه ثم يكون ماذا ؟ قال ثم يرجع الحق إلى أهله.[٣١٢]

(وَ تُذِلُّ بِها النِّفاقَ وَ أَهْلَهُ):

وقد سبق وأن قلنا بأن لكل ظلامة وجهان، وجه ينظر إلى جمال القيم والمثل والمبادئ التي يجسدها الطرف المظلوم، من صبر و إباء و عزة و نخوة و شهامة و تسليم مطلق للّه سبحانه و تعالى.

و الوجه الآخر ينظر إلى بشاعة ما يجسده الظالم من بغي وعدوان و وحشية و طغيان، و تمرد على اللّه عز و جل.

وهنا يأتي الحديث عن الوجه الآخر لطموحات المؤمنين المنتظرين لفرج اللّه تعالى (عج)، و هذا الوجه في الحقيقة انعكاس حقيقي ونتيجة طبيعية للوجه الأول، على قاعدة أن النتائج وليدة لمقدماتها، فمتى ما علا شئ و ارتفع، هبط نقيضه و خضع.

إذ أن إعزاز الإسلام و أهله، وإعلاء شأنهم، وإظهار دينهم، ينعكس في صورة إذلال الباطل و النفاق و أهله ﴿وَ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾(الإسراء/٨١).

---

[٣١١] كمال الدين وتمام النعمة - الشيخ الصدوق - ص ٢٠١

[٣١٢] عيون أخبار الرضا (ع) - الشيخ الصدوق - ج ١ - ص ٢١٨

و في قول الإمام المعصوم (ع): (الإسلام و أهله... النفاق وأهله) إشارة لا ينبغي أن نغفل عنها.
فالأمور ليست بأشكالها وأسمائها، وإنما هي بحقيقتها وجوهرها، وهذا ما نجده في القرآن الكريم، حين نقرأ في آياته المباركة، ذلك الخطاب الذي جرى بين رب العزة والجلالة تقدس اسمه، و نبيه الكريم نوح (ع) ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ. قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾(هود٤٥-٤٦)
أي أن العزة المرجوة إنما هي للإسلام و أهله، فمن لم يكن أهلا للإسلام، وإن تسمى مسلما، و تظاهر بالإسلام، فإنه غير مشمول بهذا الدعاء، كما أن الذلة في المقابل من نصيب النفاق و أهله، فهي تصيب المنافق، و إن لم يصنف بعنوانه تحت قائمة المنافقين.

(وَ تَجْعَلُنا فِيها مِنَ الدُّعاةِ إِلى طاعَتِكَ):

وهذه الفقرة ناظرة إلى قوله تعالى ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(التوبة/٣٩) و ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾(محمد/٣٨).
فالمؤمن الصادق يعيش هم الرسالة، و يحمل مسؤولية الدعوة إلى الله سبحانه، و يخاف أن لا يراه الله تعالى أهلا لذلك، فيستبدل به غيره.
و لا شك في أن هذا الإحساس بالمسؤولية، وهذا الخوف من أن لا يكون هو من أنصار المهدي الموجود الموعود (عج)، يشكل دافعا قويا، و مؤثرا فعالا، يحرك الإنسان بقوة و عزم نحو الالتزام بكل ما يتطلبه، هذا المقام الرفيع.
وهذا يعني توفر جيش من الجنود الأكفاء الشجعان، الباذلين في سبيل الله مهجهم، الموطنين على لقاء الله أنفسهم، ليرحلوا مع ركب الشهداء، الذين هم أفضل من شهداء بدر وحنين، في قافلة بقية الله في أرضه، الحجة ابن الحسن صلوات الله و سلامه عليه (أرواحنا لتراب مقدمه الفداء).
و نعلم أن طاعة الله سبحانه وتعالى، تتمثل في طاعة رسوله (ص)، و طاعة أوليائه (ع) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾(النساء/٥٩).

فالدعوة إلى طاعة اللّه، في زمن الغيبة و ما بعدها لا يعني إلا الدعوة إلى الإمتثال لما يأمر به إمام الزمان (ع).
فهو إذن العمل الجاد الدؤوب لإقامة تلك الدولة الكريمة، تحت حاكمية الإمام المنتظر (عج).

(وَ القَادَةِ إلى سَبِيلِكَ):

ولا يكتفي المؤمن الصادق بأن يطلب من ربه الكريم، أن يجعله داعيا إلى طاعة اللّه سبحانه، بل يزيد في الطلب، فيسأله ما لا يستوجبه منه سبحانه.
و هذا ما يريبنا القرآن الكريم عليه، و يريدنا أن نطمح إليه، فيعلمنا أن نقول ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(الفرقان/٧٤).
و سبيل اللّه تعالى واحد، لا يتعدد و لا يتلون، فهو واضح صريح بين، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(يوسف/١٠٨) و كل ما سواه، إنما هو من سبل الشيطان التي يغوي بها الناس عن عبادة اللّه سبحانه ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(الأنعام/١٥٣).
عن أبى عبد اللّه (ع) في حديث طويل، إلى أن يقول (ع): (إن شيعتنا أهل البيت كانوا خيار من كانوا منهم، إن كان فقيه كان منهم، وإن كان مؤذن كان منهم، وإن كان إمام كان منهم، وإن كان صاحب أمانة كان منهم، وإن كان صاحب وديعة كان منهم، و كذلك كونوا حببونا إلى الناس ولا تبغضونا إليهم.[٣١٣]
و عن أبي عبد اللّه جعفر بن محمد صلوات اللّه عليه أنه قال للمفضل: أي مفضل، قل لشيعتنا: كونوا دعاة إلينا بالكف عن محارم اللّه واجتناب معاصيه، واتباع رضوان اللّه فإنهم إذا كانوا كذلك، كان الناس إلينا مسارعين).[٣١٤]
و عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: (كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم ليروا منكم الاجتهاد و الصدق والورع).[٣١٥]

---

[٣١٣] صفات الشيعة - الشيخ الصدوق - ص ٢٨
[٣١٤] دعائم الإسلام - القاضي النعمان المغربي - ج ١ - ص ٥٨
[٣١٥] الأصول الستة عشر - عدة محدثين - ص ١٥١

(وَ ترزُقُنا بِها كَرامَةَ الدُّنْيا وَ الآخِرَة):

وآخر تلك الأماني والطموحات السامية الرفيعة، التي يتطلع إليها المؤمن، هي أن يفوز برضوان اللّه تعالى، ويسعد بدار كرامته في الدنيا و الآخرة.

و لقد توعد اللّه تعالى الكافرين المعرضين عن ذكر اللّه سبحانه بالعذاب و الهوان في الدنيا قبل الآخرة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾(طه/١٢٤) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يدخلوها إلا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(البقرة/١١٤).

و لذا فإن المؤمن يرجو من اللّه تبارك اسمه، أن يجعله من أهل السعادة في الدنيا و الآخرة، فهو يدعو كما وصفه القرآن الكريم ﴿وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(البقرة/٢٠١).

(اللّهُمَّ ما عَرَّفْتَنا مِنَ الحَقِّ فَحَمِّلْناهُ):

وفي نهاية المطاف في هذا الفصل، وبعد أن استبانت لنا الأماني والطموحات التي يتطلع إليها المؤمنون الصادقون، والتي لا تتحقق إلا في ظل (الدولة الكريمة) تحت قيادة حجة اللّه و بقيته في أرضه (عج)، كان لا بد من التطرق إلى دور المؤمنين و إسهامهم في تحقيق تلك الأماني الكبيرة.

إن الخطوة الأولى في مسيرة الألف خطوة، على درب إقامة (الدولة الكريمة) هي الالتزام التام و الدقيق، من قبل المؤمنين، بكل ما يعرفونه من الحق.

إن رسالة السماء ليست ترفا فكريا، و ليست مجرد معلومات باردة، لا يمكنها أن تجري في العروق، فتتخثر وتصيب الإنسان بجلطة قلبية، يموت على إثرها.

و إنما هي روح عظيمة، و دماء حمراء دافقة، تجري في عروق الإنسان، فتحييه و تبعث فيه الحركة و النشاط ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(الأنفال/٢٤).

و لذلك ينقل لنا التاريخ أن المسلمين الصادقين في صدر الإسلام كانوا يحفظون القرآن و يعملون به في آن واحد، أخرج ابن جرير بإسناده عن ابن مسعود ، قال: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن و العمل بهن، و قال ابو عبد الرحمان السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئوننا ، أنهم كانوا يستقرئون من

النبي (ص) فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، قال: فتعلمنا القرآن و العمل جميعا).[٣١٦]

(وَ ما قَصُرْنا عَنْهُ فَبَلِّغْناهُ):

فالإنسان لا يقدر على الإحاطة بكل شئ، فهو لم يؤت من العلم إلا قليلا. و حتى النبي الأكرم (ص) يخاطبه القرآن الكريم بقوله ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(طه/١١٤).

وقد من اللّه تعالى علينا بأن بعث فينا رسولا من أنفسنا يتلو علينا آيات اللّه تعالى و يعلمنا الكتاب والحكمة و يزكينا، و يعلمنا ما لم نكن نعلم، و كان فضل اللّه عظيما.

وبعد أن يستفرغ أنصار الإمام (عج) جهدهم في العمل بما عرفوه من الحق، يسألون اللّه تعالى أن يجبر قصورهم، و عدم وصولهم إلى الحقائق كلها، بأن يبلغهم ما قصروا عنه، ولكن ليس ليعلموه و يعرفوه فقط، بل ليعملوا به ويجسدوه في واقعهم بسلوكهم.

إذ لو كان سؤالهم من أجل المعرفة الجامدة، لكانوا بذلك يطلبون ما يدينهم عند اللّه و يلزمهم الحجة، فيعود وبالا عليهم، و نقمة لهم.

و لا شك في أنهم أرفع من ذلك و أعظم، فهم قد تعلموا من مدرسة أهل بيت العصمة والطهارة أن يستعيذوا باللّه تعالى من العلم الذي لا ينفع، و هذا رسول اللّه (ص) كان يقول في دعائه إثر الصلاة (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، و قلب لا يخشع، و نفس لا تشبع، و دعاء لا يسمع اللهم إني أعوذ بك من هؤلاء الأربع).[٣١٧] كما أن من التعقيبات الواردة عن أهل البيت (ع) أن يقول بعد فريضة العصر (اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع، و من قلب لا يخشع، و من علم لا ينفع، و من صلاة لا ترفع، و من دعاء لا يسمع).[٣١٨]

إنه إذن الإستعداد بكل معنى الكلمة، لظهور الإمام المهدي الموجود الموعود (عج).

استعداد لا يدخر فيه المؤمنون الصادقون جهدا، و لا يقنعون فيه بالقصور، و لا يلتمسون لأنفسهم عذرا، فهم كما وصفهم مولاهم و سيدهم أمير المؤمنين و مولى المتقين (ع): (لا يرضون من أعمالهم القليل. و لا يستكثرون الكثير، فهم

---

[٣١٦] التفسير والمفسرون – الشيخ معرفت ج٨ ص١٠

[٣١٧] مستدرك الوسائل - الميرزا النوري - ج ٥ - ص ٧٠

[٣١٨] مفاتيح الجنان – الشيخ القمي تعقيب صلاة العصر ص٤٠

لأنفسهم متهمون. و من أعمالهم مشفقون. إذا زكي أحدهم خاف مما يقال له فيقول: أنا أعلم بنفسي من غيري، و ربي أعلم بي من نفسي. اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون. فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين، و حزما في لين، و إيمانا في يقين. و حرصا في علم، و علما في حلم، و قصدا في غنى، و خشوعا في عبادة. و تجملا في فاقة. و صبرا في شدة. و طلبا في حلال ونشاطا في هدى. و تحرجا عن طمع. يعمل الأعمال الصالحة و هو على وجل. يمسي و همه الشكر، و يصبح وهمه الذكر. يبيت حذرا و يصبح فرحا، حذرا لما حذر من الغفلة، و فرحا بما أصاب من الفضل والرحمة. إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤلها فيما تحب. قرة عينه فيما لا يزول. وزهادته فيما لا يبقى. يمزج الحلم بالعلم. والقول بالعمل. تراه قريبا أمله. قليلا زلله. خاشعا قلبه. قانعة نفسه. منزورا أكله. سهلا أمره. حريزا دينه، ميتة شهوته. مكظوما غيظه. الخير منه مأمول، والشر منه مأمون).[٣١٩]

---

[٣١٩] نهج البلاغة - خطب الإمام علي (ع) ج٢ في وصف المتقين ص١٦٢

الفصل الحادي والعشرون / الفاقة و الضعف و الذلة والهوان و الفقر و سوء الحالة، كل هذه الصفات التي أصبحت تلازم الإسلام و أهله، أينما كانوا في دولة الكفر و أهله، حتى ما عادوا يعرفون إلا بها، هي المسوغات الأكيدة، التي تدفع المؤمن أن يشتد في الإلحاح على الله سبحانه في تعجيل ظهور ولي أمرالمؤمنين و قاصم شوكة المعتدين، ومعز الأولياء ومذل الأعداء، المهدي الموجود الموعود (عج).
ربنا هذا ذلنا ظاهر بين يديك، و هذا حالنا لا يخفى عليك، يا أرحم الراحمين.

(اللّهمّ ألمُمْ بِهِ شَعْثَنا):

أول ما يحوجنا إلى الإمام المهدي (عج) هو تشتتنا، و تبعثر أمورنا، و تفرقها، حتى صارت تشبه بالشعر المغبر المتفرق، الذي فقد كل رونقه و عناصر جماله و تماسكه.
نحتاج إليه صلوات الله وسلامه عليه، ليجمع أمرنا، و يلم شعثنا، بحكمته و بلطفه، وبعلمه و معرفته.
تقول معاجم اللغة أن كلمة (ل م م) تعني جمع الشئ وضم أجزائه، و التقريب بين شتيت أموره.[٣٢٠]
و كلمة (شعث) تعني انتشار الأمر و انتثاره و تفرقه، وتلبده و تغيره.[٣٢١]
و ثمة مسألة في غاية الأهمية، ينبغي أن نقف عندها، ألا وهي: دلالة حرف الباء في كلمة (به) في هذه الفقرة و ما يليها من فقرات هذا الدعاء الشريف.
تقول كتب النحو و اللغة العربية أن حرف الباء، حرف جر، وله أربعة عشر معنى[٣٢٢]:
أولها: الإلصاق، وهو معنى لا يفارقها، فلهذا اقتصر عليه سيبويه، ثم الإلصاق حقيقي كأمسكت بزيد. و مجازي نحو مررت بزيد.
الثاني: التعدية، و هي المعاقبة للهمزة في تصيير الفاعل مفعولا، و منه (ذهبَ اللهُ بِنُورهم).
الثالث: الاستعانة، و هي الداخلة على آلة الفعل، نحو كتبت بالقلم، و منه البسملة.
الرابع: السببية، نحو (إنّكم ظلمتم أنفسكم باتّخاذكم العجلَ).
الخامس: المصاحبة، نحو (اهبطْ بسلامٍ) أي معه.
والسادس: الظرفية، نحو (و لقدْ نصركمُ اللهُ ببدرٍ).
والسابع: البدل، كقول الحماسي:

---

[٣٢٠] جمهرة اللغة ج١ص٦٠. القاموس المحيط ج٣ ص٢٨٣. العين ج٢ص١٨٦
[٣٢١] الصحاح في اللغة ج١ص٣٥٨. المحيط في اللغة ج١ص٤٢. العين ج١ص٥٦
[٣٢٢] راجع: مغني اللبيب ج١ ص٣٩

فليتَ لي بهمُ قوماً إذا ركبوا... شنّوا الإغارةَ فُرساناً ورُكبانا

والثامن: المقابلة، و هي الداخلة على الأعواض، و منه ﴿ادخلُوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ وإنما لم نقدرها باء السببية لأن المعطي بعوض قد يعطي مجانا، و أما المسبب فلا يوجد بدون السبب.

والتاسع: المجاوزة، نحو ﴿فاسألْ بهِ خبيراً﴾.

العاشر: الاستعلاء، نحو ﴿مَنْ إن تأمنْه بقنطارٍ﴾. فهو بمعنى (على قنطار).

الحادي عشر: التبعيض، أثبت ذلك الأصمعي والفارسي والقتبي وابن مالك، و منه ﴿و امسحوا برؤوسكم﴾.

الثاني عشر: القسم، نحو (بالله لتفعلن).

الثالث عشر: الغاية، نحو ﴿و قد أحسن بي﴾ أي (أحسن إلي)

الرابع عشر: التوكيد، نحو ﴿كفى بالله شهيداً﴾.

و مما تقدم من بيان معاني حرف (الباء)، ينحصر المعنى المراد المناسب لمورد كلمة (به) في هذا الدعاء الشريف، في أحد معنيين:

١/ الإستعانة: أي أن المؤمنين يسألون الله سبحانه و تعالى أن يغير سوء حالهم على يدي الإمام المهدي (عج) و بواسطة ظهوره وحضوره بينهم.

٢/ السببية: أي أن المؤمنين يدعون الله تعالى أن يغير سوء حالهم و يكشف ما بهم من ضر، بشفاعة الإمام المهدي صلوات الله و سلامه عليه.

والمعنيان كلاهما وجيهان قويان، يتلاءمان مع روح الدعاء، وإن كان المعنى الأول (الإستعانة) أوجه و أقرب.

لأن فيه مزيد فضل للإمام (عج)، و هو ما تحاول جميع مقاطع هذا الدعاء الشريف أن تؤكده، وتوصله إلى أذهاننا.

و ليس هذا بدعا من القول، فالقرآن الكريم يحدثنا عن المسيح عيسى (ع)، فينسب إحياء الأموات وإبراء الأكمه والأبرص و سائر الكرامات والمعاجز إليه (ع) ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي﴾(آل عمران٤٩-٥٠) إذ أن المقام هنا مقام بيان فضل عيسى عليه السلام، ليصح له أمر الناس بإطاعته.

(وَ أشْعَبْ بِهِ صَدْعَنا):

و (الشعب) كلمة من معانيها الجمع والإصلاح.[٣٢٣] و إن الذي قد حل بالإسلام و أهله، ليس مجرد التفرق و التبعثر والتشتت، وإنما هو أعظم من ذلك، إنه التمزق و التصدع. ذلك أن الإسلام قد صنع من المؤمنين بنيانا مرصوصا، متماسكا متينا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾(الصف/٤) ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ. وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(الأنفال٦٢-٦٣).

وهذا البنيان المرصوص هو الذي أخذ الشيطان الرجيم على عاتقه أن يهدمه و يهد أركانه، فاستمهل رب العزة أن ينظره إلى يوم يبعثون ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾(الأعراف١٦-١٧).

إن حالنا البئيس، لا يمكن علاجه بمجرد التجميع، فنحن بأمس الحاجة إلى مولانا بقية الله في أرضه، لكي يرأب هذا الصدع الذي ألحقه الشيطان ببنياننا، فليس لنا غيره بابا إلى رحمة الله سبحانه.

(وَ أرْتِقْ بِهِ فَتْقَنا):

إن استعمال الألفاظ المترادفة أو المتقاربة في المعنى، يراد منه تأكيد المعنى، وتوضيح جوانبه، التي قد لا يفي بها لفظ واحد أو عبارة واحدة.

هذه الفقرة من الدعاء الشريف، مزيد تأكيد على سوء الحال التي ابتلي بها المسلمون، بابتعادهم عن أمناء الله وخلفائه المعصومين الطاهرين، و عدم تمسكهم بالثقلين الذين تركهما رسول الله (ص) كتاب الله و العترة الطاهرة.

إن الذي أصاب بنيان الإسلام المرصوص، لا يقتصر على التفرق و التشتت، و لا يقف عند حد التصدع والتكسر، بل هو أيضا تمزق و تفتق و انفصام.

وا حسرتا.. لقد صار حالنا كالجسد الذي تمزقت أوصاله و تكسرت عظامه و تفرقت أعضاؤه.

فأين ذلك الطبيب الحاذق، الخبير الماهر، الذي على يديه الشريفتين، يتحقق لنا الوصال، فنلبس ثوب الألفة والمحبة والوحدة، بعد الفرقة و التشتت و الكراهية و البغضاء ؟!!

---

[٣٢٣] القاموس المحيط ج١ص٨٢. العين - ج١ص٦١

أين المعد لقطع دابر الظلمة، أين المنتظر لإقامة الأمت والعوج، أين المرتجى لإزالة الجور و العدوان، أين المدخر لتجديد الفرائض و السنن، أين المتخير لإعادة الملة و الشريعة، أين المؤمل لإحياء الكتاب و حدوده، أين محيى معالم الدين وأهله أين قاصم شوكة المعتدين، أين هادم أبنية الشرك و النفاق، أين مبيد أهل الفسوق و العصيان و الطغيان، أين حاصد فروع الغي و النفاق، أين طامس آثار الزيغ و الأهواء، أين قاطع حبائل الكذب والافتراء، أين مبيد العتاة والمردة، أين مستأصل أهل العناد والتضليل والإلحاد، أين معز الأولياء و مذل الأعداء، أين جامع الكلم على التقوى، أين باب الله الذي منه يؤتى، أين وجه الله الذي إليه يتوجه الأولياء، أين السبب المتصل بين الأرض و السماء، أين صاحب يوم الفتح و ناشر رأية الهدى، أين مؤلف شمل الصلاح و الرضا.. بأبي أنت وأمي ونفسي لك الوقاء والحمى.

(وَ كَثَّرَ بِهِ قِلَّتَنا):

إن (الدولة الكريمة) التي يقيمها بقية الله في أرضه (عج) يمكنها أن تشكل عاملا مؤثرا في زيادة المؤمنين السائرين على المحجة البيضاء، التي لا يعلم حدودها، و لا يحمل الناس عليها إلا إمام معصوم مفترض الطاعة، من أهل بيت رسول الله (صلى الله عليهم أجمعين).

فالناس إذا ما استبان لهم طريق الحق، وعرفوا أهله، وسمعوا محاسن كلام أهل البيت (ع) اتبعوهم، وساروا على نهجهم القويم.

كما أن العدل والإنصاف، والأمن والأمان، وكل الكرامات التي تحيط بالناس جميعا في كنف (الدولة الكريمة) مدعاة لزيادة النسل و تكاثر الذرية المؤمنة الصالحة.

و لا شك أن زيادة العدد إن كان مقترنا بالصلاح والإيمان، يكون سببا رئيسيا، في الغلبة والرفعة والعزة.

و لذلك حثت الروايات الشريفة على التزاوج لإكثار النسل الصالح، قال (صلّى الله عليه وآله): (تناكحوا تناسلوا تكثروا، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة و لو بالسقط) و قال (ص): (سوداء ولد خير من حسناء عقيم)[٣٢٤] و قال رسول الله (ص): (ما يمنع المؤمن أن يتخذ أهلا لعل الله يرزقه نسمة تثقل الأرض بلا إله إلا الله) و روي

[٣٢٤] جامع الأخبار ج١٣ ص١٠

أن يوسف قال لأخيه: كيف استطعت أن تتزوج النساء بعدي ؟ فقال إن أبي أمرني، و قال إن استطعت أن تكون لك ذرية تثقل الأرض بالتسبيح فافعل.[٣٢٥]

(وَ أَعْزِزْ بِهِ ذِلَّتَنا):

يبدو أن تصريف كلمة (عزز) بصيغة (أعزز) كما هو وارد في هذه الفقرة، لا يعطي المعنى المناسب للسياق هنا.

تقول كتب اللغة أن (أعزز) تستعمل للتعجب، يقول صاحب تاج العروس[٣٢٦] (أُعْزِزْتُ بما أصابكَ) بالضمّ مبنيا للمجهول أي عظم علي ما أصابك، و يروى أن الإمام أمير المؤمنين (ع) وقف على مصرع عمار بن ياسر (رضوان اللهّ عليه) فقال (ع): (أعزز علي أبا اليقضان أن أراك صريعا مجدلا) بمعنى عظم علي مصابك.

و من هنا فإن الصحيح، على ما يبدو، هو أن نقول (أعز به ذلتنا) كما ورد في مصباح الكفعمي، و تهذيب الأحكام، ومصباح المتهجد.[٣٢٧]

و لقد حكم اللهّ جل جلاله من فوق عرشه، أن يعز أولياءه، بل و قرن العزة بالإيمان به و التسليم له سبحانه ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(يونس/٦٥) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(فاطر/١٠).

ولقد نسي المنافقون يوما أن أولياء اللهّ تعالى بعزة اللهّ يعتزون، وأن الكافرين والمنافقين في الذلة يرتكسون ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(المنافقون/٨).

هذه العزة والكرامة، هي التي يحققها المؤمنون في (الدولة الكريمة) إذ تنتشلهم اليد الكريمة الرحيمة، من وحل الذلة وحضيض المهانة.

إن طريق العزة واضح كالشمس في رابعة النهار، و كلما ابتعد الإنسان عن موجبات الذلة، كان للعزة أقرب وبها أليق والقرآن الكريم يبين لنا بعض أهم موجبات الذلة، لنعرفها ونتجنبها، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾(البقرة/٦١).

---

[٣٢٥] عوالي اللآلي ج٣ ص١٠٧

[٣٢٦] تاج العروس ج ١ ص٣٧٥٩. العين ج١ ص٩

[٣٢٧] مصباح كفعمي ج٢ص١٣٩. المتهجد ج١ص٤٥٠ تهذيب الاحكام ج٦٣ص١١

كما قد تكفلت الروايات الشريفة بإرشادنا على طريق العزة الحقيقية والكرامة الدائمة، و من تلك الروايات:

من وصايا الإمام الصادق (ع) لسفيان الثوري: ياسفيان ! من أراد عزا بلا سلطان وكثرة بلا إخوان وهيبة بلا مال فلينتقل من ذل معاصي اللّه إلى عز طاعته.[٣٢٨]

و قال أمير المؤمنين (ع): حسن خلق المؤمن من التواضع.. وعزه ترك القال والقيل.

و عنه (عليه السلام): لا عز أرفع من الحلم.

وعن الإمام زين العابدين (عليه السلام): طاعة ولاة الأمر تمام العز.[٣٢٩]

(وَ أَغْنِ بِهِ عائِلَنا):

إن تحسين الوضع المعيشي، أمر في غاية الأهمية، و لذلك نجد القرآن الجيد، يذكر من نعم اللّه سبحانه وتعالى، التي يتمنن بها على نبيه الحبيب (ص) إغناءه (ص) من الفقر والحاجة ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾(الضحى/٨).

و منة الإغناء بفضل اللّه سبحانه، كانت واسعة لتشمل المسلمين كلهم، بل كانت قضية تبناها الرسول الأكرم (ص) تجاه المسلمين جميعا، فجعل على عاتقه أن يغنيهم بفضل اللّه سبحانه و تعالى، لتنال يد الرحمة والكرم، كل من يتنفس في (الدولة الكريمة) التي أقامها النبي الأكرم (ص)، حتى وإن كان بعضهم غير أهل لذلك التفضل والإحسان، و هم الذين في قلوبهم مرض النفاق، فلا يصدر منهم مقابلها إلا الإساءة والخيانة والعدوان ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾(التوبة/٧٤).

فوارث الأنبياء، ومحيي معالم الدين وأهله، يسير على نفس خطى جده النبي الأكرم (صلى اللّه عليه وآله وسلم) فيمسح بيد الكرم والجود والسماحة على جميع من يعيش في ربوع دولته الكريمة.

(وَ أَقْضِ بِهِ عَنْ مُغْرَمِنا):

و أول معالم ذلك الإغناء، تحرير رقاب المؤمنين من نير مذلة الديون، التي أرهقت كواهلهم، و جثمت على صدورهم، تكتم أنفاسهم.

---

[٣٢٨] ميزان الحكمة - الريشهري ج١١ص١٦٣

[٣٢٩] ميزان الحكمة - الريشهري ج٣ ص٢٣٥

هؤلاء الغارمون الذين ضاقت بهم سبل العيش الكريم، فما أذن لهم تقوى اللّه تعالى أن يمدوا أيديهم إلى المال الحرام، وآثروا أن يريقوا ماء أوجههم، ليستدينوا شيئا من المال، يرفعون به ما أحوجتهم الأيام إليه، آملين أن يفرج اللّه كربتهم ويوسع ذات يدهم، فيردوا ديونهم ويؤدوا ما عليهم من حقوق الناس.

وقد جعل اللّه سبحانه وتعالى، لهؤلاء حقا معلوما، في بيت مال المسلمين، و أمر رسوله الأكرم (ص) أن يعطيهم منه ويقضي ديونهم ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة/٦٠).

ولكي تتضح لنا الصورة أكثر، نقرأ في تفسير الميزان إذ يقول العلامة الطباطبائي (قدس سره): (و الغارمين) أي و للصرف في الغارمين الذين ركبتهم الديون فيقضى ديونهم بسهم من الزكاة.[٣٣٠]

ويورد صاحب تفسير نور الثقلين، رواية عن الإمام الرضا عليه السلام، في جواب من سأله (ع): جعلت فداك إن اللّه تبارك و تعالى يقول ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾ أخبرني عن هذه النظرة، التي ذكرها اللّه عز و جل في كتابه، لها حد يعرف اذا صار هذا المعسر لابد له من أن ينظر، وقد أخذ مال هذا الرجل، وأنفقه على عياله، وليس له علة ينتظر إدراكها، و لا دين ينتظر محله، و لا مال غائب ينتظر قدومه ؟

قال (عليه السلام): نعم، ينتظر بقدر ما ينتهي خبره إلى الإمام، فيقضي عدة ما عليه من سهم الغارمين إذا كان أنفقه في طاعة اللّه، فإن كان أنفقه في معصية اللّه فلا شئ له على الإمام.[٣٣١]

و قد بنى فقهاؤنا الكرام على ذلك أحكامهم و فتواهم، فهذا السيد الخوئي (أعلا اللّه مقامه) يقول: (و أن دين المؤمن العاجز عن الوفاء على الإمام، يقتضيه من الزكاة من سهم الغارمين و نحو ذلك).[٣٣٢]

و كذلك يفتي آية اللّه العظمى السيد السيستاني (دامت بركاته): الغارمون، و هم الذين ركبتهم الديون و عجزوا عن أدائها، و إن كانوا مالكين قوت سنتهم، بشرط أن لا يكون الدين مصروفا في المعصية.[٣٣٣]

---

[٣٣٠] تفسير الميزان - العلامة الطباطبائي ج٩ ص١٧٥
[٣٣١] تفسير نور الثقلين ج١ ص٣٣١
[٣٣٢] فقه السيد الخوئي ج١ ص٣٠٤
[٣٣٣] منهاج الصالحين – للسيد السيستاني ج١ ص٣١٢

و يعد الإمام الخميني العظيم (قدس سره الشريف) الغارمين من مصارف الزكاة، فيقول: الغارمون، و هم الذين علتهم الديون فى غير معصية و لا إسراف و لم يتمكنوا من وفائها و لو ملكوا قوت سنتهم.[٣٣٤]

(وَ اجْبُرْ بِهِ فَقْرَنا):

إن (الدولة الكريمة) التي يقيمها الإمام صاحب العصر والزمان (عج) شجرة مورقة مثمرة، يستظل الناس في فيئها وينتفعون بثمرها، فهي بركات متواصلة متنامية.
فلا يقف إغناء المؤمنين عند قضاء ديونهم، بل يتجاوزه كرما ولطفا، ليلحم كسور الفقر، في بدن المجتمع المؤمن.
و معلوم أن للفقر انكسارا، يظهر على وجوه الفقراء، و إن تعففوا عن سؤال الناس و أبدوا استغناءهم.
وكرم الإمام (بأبي هو و أمي) لا يقصر عن أن يمسح على هذه الوجوه المؤمنة المباركة، ليعيد إليها رونقها و بهاءها، ويزيل عنهم ركام الفقر، و يجبر ما انكسر بالفقر منهم.
فهذه إذن خطوة للأمام في طريق السعادة الكاملة التي يحققها المؤمنون في (الدولة الكريمة) تحت راية الإمام (عج).

(وَ سُدَّ بِهِ خَلَّتَنا):

و من النتائج الطبيعية للفقر، الفساد الذي يعم البلاد والعباد، في محاولة جاهلة من الخصر مبلغ علمه بالدنيا، وباع حظه بالأرذل الأدنى، و تردى في هواه.
كما أن من آثاره الوخيمة أيضا الضعف و الهزال على مستوى الفرد و الجماعة.
ذلك لأن الفقر و الحاجة، تذل الإنسان، و تفتح مغاليق قلبه ونفسه لعدوه اللعين الرجيم، و تجعله سهل الاختراق، قابلا لبث السموم الفكرية والروحية إليه، لكثرة ما به من الثقوب و الفرج، و قد ورد عن أبي عبد الله (ع): (ما أقبح بالمؤمن أن تكون له رغبة تذله).[٣٣٥]
و تقول معاجم اللغة أن كلمة (خلل) تدل على معان عديدة، منها الفقر، و الهزال، و الوهن، و فساد الأمر، والثقب و الفرجة في الشئ.[٣٣٦]

---

[٣٣٤] تحرير الوسيلة - السيد الخميني ج١ ص٣١٦
[٣٣٥] صفات الشيعة ج١ ص١٦
[٣٣٦] الصحاح في اللغة ج١ ص١٨٥. العين – للفراهيدي ج ١ ص٢٩٣

و من ثم فإن من الكرامة التي تتحقق للمؤمنين في كنف (الدولة الكريمة) أنهم يتطهرون من جميع آثام الفقر والفاقة و الحاجة، فلا وهن و لا ضعف و لا فساد و لا خلل، بل يعيش الجميع العزة والاقتدار والكرامة والإباء والسعادة من دون أن يحتاج أحد منهم ما يذل به نفسه، أو يدفع إلى ارتكاب ما حرم الله سبحانه و تعالى.

(وَ يَسِّرْ بِهِ عُسْرَنا):

و مما يتمناه المؤمنون، فيتحقق لهم على يد الإمام صاحب العصر (عج) في تلك (الدولة الكريمة) أن تصبح الأمور في متناول أيديهم، فلا يتجشموا من العناء ما يرهقهم كلما أرادوا مأربا من مآربهم المشروعة.
إن الطبيعة البشرية مجبولة على العجلة و قلة الصبر، واستعجال النتائج ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾(الإسراء/١١).
كما أن العمر دقائق و ثوان معدودات، إن لم يصرفها الإنسان فيما يقربه من ربه و يكسبه رضوانه، فإنه خاسر.
والمؤمنون في كل زمان حريصون على أن يستغلوا أوقاتهم ويصرفوا جهودهم وإمكانياتهم، في تحقيق الغاية الأسمى من وجودهم، و هو (الخلوص لعبادة الله وحده) و كان هذا هو شعار خليل الله إبراهيم (ع) ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الأنعام/١٦٢).
فإذا تعسرت الأمور، فإنها تحتاج إلى وقت أكثر و جهد أكبر، مما يعني هدر المؤمن للكثير من وقته و طاقته، في سبيل تحقيق أمر من أموره، و هذا ينعكس بصورة قلة إنتاجه.
ولا شك في أن الفقر عامل أساسي في تعسير الأمور، إذ أن قلة المال من جهد البلاء، كما ورد في الحديث الشريف.[٣٣٧]
و بما أن (الدولة الكريمة) تضمن دفع غائلة الفقر عن المؤمنين فإن شوكتهم تقوى، و أمورهم تتيسر، بإذن الله تعالى.

(وَ بَيِّضْ بِهِ وُجُوهَنا):

إن تبييض الوجوه كناية عن الشرف و الرفعة و العزة والكرامة، و هي صفة المؤمنين ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(آل عمران/١٠٧) وأما

---

[٣٣٧] دعائم الإسلام - ج٢ ص١٤٢

الكافرين الجاحدين، فإنهم سود الوجوه ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾(الزمر/٦٠).

وهذا هو المأمول و المحقق بإذن اللّه تعالى في كنف (الدولة الكريمة) التي يحكم فيها الإمام المعصوم بالعدل والإحسان و كل شئ فيها يدعو إلى طاعة اللّه و رسوله، و لا مكان فيها للغي و الشقاق، و لا للكفر و النفاق.

لأن دين اللّه سبحانه وتعالى هو الحاكم والظاهر على الدين كله، و قد خسئ الذين يريدون ليطفئوا نور اللّه بأفواههم.

فالإيمان الصادق الذي يعم الأرجاء، و حب اللّه سبحانه الذي يملأ القلوب، وهيبته تعالى التي تكسو النفوس، كل ذلك يصبغ الوجوه بالنور، و يجللها بالبهاء.

(وَ فُكَّ بِهِ أَسْرَنا):

إنه أسر الأهواء و الشهوات و حب الدنيا، و ما أبشعه من أسر !! إذ لا من فيه و لا فداء.

لأن من عشعش حب الدنيا في قلبه، تشبث بحطامها حتى النخاع، فهو لا يرى إلا بها و فيها و لها، و حب الدنيا رأس كل خطيئة، كما قال رسول اللّه (ص).

وقد تضافرت الروايات الشريفة عن الرسول الأكرم (ص) وأهل بيته الطاهرين (ع) في وصف الدنيا بأنه سجن و شغل شاغل و هم و هلاك، فمنها:

عنه صلى اللّه عليه وآله و سلم: (إن الدنيا سجن المؤمن، فأي سجن جاء منه خير ؟).

عنه عليه السلام قال: (كم من طالب للدينا لم يدركها، ومدرك لها قد فارقها، فلا يشغلنك طلبها عن عملك، والتمسها من معطيها و مالكها، فكم من حريص على الدنيا قد صرعته و اشتغل بما أدرك منها عن عمل آخر حتى انقضى عمره و أدرك أجله).

عن أبي عبداللّه (ع): من أصبح و أمسى والدنيا أكبر همه جعل اللّه الفقر بين عينيه و شتت أمره و لم ينل من الدنيا إلا ما قسم له.

(فإن حب الدنيا يعمي و يصم و يبكم و يذل الرقاب).[٣٣٨]

عن ابن عباس قال: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله يقول: (إنه ما سكن حب الدنيا قلب عبد إلا التاط فيها بثلاث: شغل لا ينفد عناؤه، و فقر لا يدرك غناه، و أمل لا ينال منتهاه).[٣٣٩]

---

[٣٣٨] مشكاة الانوار - ج ١ ص ٢٠٣

كلما ازداد المرء بالدنيا شغلا و زاد بها و لها أوردته المسالك وأوقعته في المهالك.[٣٤٠]

(وَ أَنْجِحْ بِهِ طَلِبَتَنَا):

طلب الشئ هو محاولة وجدانه، و (الطلبة) هي ما للإنسان من حق عند غيره يطالبه به.[٣٤١]

و إذ قد جرت سنة اللّه تعالى في الأشياء كلها، أن تكون النتائج و ليدة مقدماته و أسبابها، فإن النجاح و الفوز بالطلبات نتيجة تتحقق بتوفر مقدماتها.

و هذه المقدمات تتوفر في ظل (الدولة الكريمة) على يد الإمام الحجة بن الحسن (عج)، والتي تتمثل في القضاء على الفقر، و سداد الديون، و تيسير الأمور، و ما إلى ذلك.

و ما أكثر تلك الحقوق التي نهبها الطغاة و المستكبرون، من أيدي المؤمنين المستضعفين، و قد روي عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال: (ما رأيت نعمة موفورة إلا و بجانبها حق مضيع) وقال (ع): (ما جاع فقير إلا بما متع به غني).[٣٤٢]

فكم من مترف يغص بلذائذ المأكل و المشرب، و جاره المؤمن لا يجد ما يسد به رمقه.

و كم من مال حلال، يقضي به المؤمن حاجته وحاجة عياله ويستعين به على نوائب دهره، مد المستكبرون إليه أيديهم بالسوء، وصادروه عنه، و هو لا يقدر على منعهم.

و كم من ثروة هائلة ضيعها الغاصبون المعتدون على أرض الإسلام، ينهبون الخيرات و يتحكمون في أرزاق العباد.

و كل هذه الحقوق يجب أن تعود لأصحابها الشرعيين، وستعود بإذن اللّه تعالى في كنف (الدولة الكريمة) لأنه ما ضاع حق و له طالب.

(وَ أَنْجِزْ بِهِ مَوَاعِيدَنَا):

إنها مواعيد اللّه سبحانه لعباده المؤمنين المستضعفين، بالنصر و ظهور الأمر و وراثة الأرض، و إقامة الدولة الكريمة.

و قد جعل اللّه تعالى تحقق هذه المواعيد على يدي خاصة أوليائه وبقيته في أرضه وحجته على عباده، الإمام المعصوم الذي بعدت غيبته و طال انتظاره، المهدي الموجود

---

[٣٣٩] أعلام الدين في صفات المؤمنين ج٢٠ ص ٢١

[٣٤٠] غرر الحكم و درر الكلم ج ١ (٢٤٦٥) ص ٨٢

[٣٤١] العين – الفراهيدي ج٢ ص١٠١. أساس البلاغة ج١ ص٢٨٩

[٣٤٢] روائع نهج البلاغة ج١٣

الموعود عجل اللّه تعالى له الفرج و أتم له النصر، وجعلنا من أنصاره و أعوانه و الحامين عنه و المستشهدين بين يديه.
فبالمهدي (عج) تقوم دولة الحق الكريمة، التي يظهر فيها دين اللّه تعالى على الدين كله، و تتحقق العزة و الكرامة للمؤمنين، و تنزل النقمة فيها على الكافرين و المنافقين.
و قد ورد في الحديث النبوي الشريف: (لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد، لطول اللّه ذلك اليوم، حتى يبعث فيه رجلا من ولدي، يواطئ اسمه اسمي، يملؤها عدلا و قسطا كما ملئت جورا و ظلما).[٣٤٣]
هكذا وعد اللّه تعالى في الزبور و التوراة و الإنجيل و القرآن، واللّه لا يخلف الميعاد.

(وَ اسْتَجِبْ بِهِ دَعْوَتَنا):
قلنا في مستهل هذا الفصل من الدعاء الشريف، أن حرف (الباء) في قوله (به) هنا يفيد الاستعانة، و ليس السببية وقد فصلنا في ذلك في محله.
وهنا يتضح لنا الفرق بين الاستعمالين بصورة أكبر، فقولنا (استجب به دعوتنا) تارة يكون المقصود، بحقه و بجاهه وبقربه منك و منزلته عندك، أي بسبب ذلك.
و تارة أخرى نقصد على يديه و بواسطته و من خلاله، أي أنه هو (عج) الذي يحقق لنا ما طلبناه، بإذن اللّه تعالى.
إن (دعوتنا) هي (اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة، تعز بها الإسلام وأهله، وتذل بها النفاق و أهله...).
و هذا يعني أن استجابة اللّه سبحانه لها، يتمثل في تعجيل ظهور بقيته في أرضه، صلوات اللّه وسلامه عليه، و تأييده بالنصر، و تمكينه من إقامة تلك (الدولة الكريمة).

(وَ أَعْطِنا بِهِ سُؤْلَنا):
فقد سألك عبادك، يا إلهي، و هم يسألونك، و لا يطرقون غير بابك، يتضرعون إليك، و يلحفون في السؤال، وأنت يا إلهي كريم رحيم، غني عما سألوك عنه.
إنها حاجتنا يا إلهي، التي إن أعطيتنا إياها، لم يضرنا ما منعتنا، وإن منعتنا إياها، لم ينفعنا ما أعطيتنا.

---

[٣٤٣] ميزان الحكمة - الريشهري ج٨ ص٣

هي الطريق الموصل لنا بكرمك و لطفك و تفضلك، إلى فكاك رقابنا من النار، و دخولنا الجنة.
فقد كتبت يا إلهي أن رحمتك التي وسعت كل شئ، ستكتبها للذين يتقون، و يؤتون الزكاة، والذين هم بآياتك يؤمنون، الذين يتبعون النبي الأمي (ص) و يتبعون الأئمة الهداة الطاهرين من بعده، كما قلت في كتابك المجيد ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(الأعراف/١٥٧).

(وَ بَلِّغْنا بِهِ مِنَ الدُّنْيا وَ الآخِرةِ آمالَنا):
يحتاج الإنسان إلى ما يعينه على بلوغ آماله، و تحقيق طموحاته و تطلعاته، من همة و عزم، و علم و قدرة.
ولكن بلوغ أعلى الآمال ، و تحقيق أغلى الأماني، التي تتمثل في سعادة الدنيا و الآخرة، بالرضا بما قسم اللّه للعبد في الدنيا، و السعي للآخرة سعيها الحثيث الدؤوب، يحتاج إلى حكيم مرشد، و إمام قائد معصوم.
لأن ما عند اللّه تعالى لا ينال إلا باتباع النبي الأكرم (ص) والأئمة الطاهرين من ولده (ع)، يقول الحق تبارك اسمه ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(آل عمران/٣١).
إن الدنيا دار مجاز و ليست بدار مقام، و ما متاعها إلا لهو ولعب و غرور، و هي مزرعة الآخرة، و لذا فإن المؤمنين يقنعون منها بالبلغة والكفاف، و هم على أشد الحرص أن لا يكونوا من الذين أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا، قصروا فيها آمالهم، و قطعوا عنها حبال وصلهم.
نشيدهم قول أمير المؤمنين (ع) (يادنيا إليك عني، أبي تعرضت أم إلي تشوقت، لا حان حينك، هيهات !! غري غيري لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثا لا رجعة فيها، فعيشك قصير، و خطرك يسير، و أملك حقير).[٣٤٤]
ولكنهم مع ذلك لا ينسون نصيبهم من الدنيا، كما أمرهم القرآن الكريم، فهي جسر الآخرة، فيها امتحنهم اللّه ليجزي المؤمنين الصابرين، جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، و رضوان من اللّه أكبر.
فهم على هدي أميرهم مولا المتقين علي بن أبي طالب (ع) حين يقول: (أما والذي فلق الحبة و برأ النسمة، لو لا حضور الناصر، و لزوم الحجة و ما أخذ اللّه من أولياء الأمر،

---

[٣٤٤] شرح مئة كلمة - ابن ميثم البحراني - ج١ ص٢٦٦

من أن لا يقاروا على كظة ظالم و سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، و لسقيت آخرها بكأس أولها، و لألفوا دنياهم أزهد عندي من عفطة عنز).[٣٤٥]
و يقول (ع) لابن عباس: ما قيمة هذا النعل ؟
فقلت: لا قيمة لها.
فقال (ع): (و الله لهي أحب إلي من إمرتكم ، إلا أن أقيم حقا، أو أدفع باطلا)[٣٤٦]
يتبعون النور العلوي في حياتهم، فهم يعملون لدنياهم كأنهم يعيشون أبدا، و لآخرتهم كأنهم يموتون غدا.
و أما الآخرة فقد حف طريقها بالشهوات و الأهواء، و قعد الشيطان الرجيم، متوعدا الناس بالإغواء و الإفساد، والإضلال عن صراط الله المستقيم، يعمل على ذلك بخيله ورجله، يشاركهم في الأموال والأولاد، يعدهم و يمنيهم ويوسوس لهم و يغريهم بالمعاصي، حتى يخرجهم عن طاعة الله تعالى كما أخرج أبويهم من الجنة من قبل.
و لذلك فقد بعث الله النبيين والمرسلين، و أنزل معهم الكتاب، و جعل الأئمة الطاهرين، ليرشدوا الناس و يهدوهم إلى صراط العزيز الحميد.
و من ثم فقد كان بقية الله في أرضه (عج) هو الإمام الهادي والولي الناصح، الذي به يهتدي المهتدون، و به يبلغ المؤمنون آمالهم في الدنيا و الآخرة بإذن الله سبحانه.

(وَ أَعْطِنا بِهِ فَوْقَ رَغْبَتِنا):

فكما أن الطفل الصغير، لجهله بحقائق الأمور، لا يعرف ما ينبغي له أن يطلب من أبيه الرؤوف المحب له، فيسأله ما يعتقد أنه أقصى ما يمكن أن يطلب و أكثر ما يمكن أن يعطى، و هو في الحقيقة لم يتجاوز معشار ذلك كله.
ولله المثل الأعلى، فهو الرب البر الرحيم الكريم، الذي يعطي من لم يسأله و لم يعرفه، تحننا منه و رحمة، و هو المنان على عباده بالعطيات، بغير استحقاق منهم.
و يجد الداعي نفسه، لو أنه ظل يسأل ربه الودود، حاجاته كلها، واحدة واحدة، لما كفاه عمره، و لما أعانه علمه.
فمال إلى إيجاز الطلب، لا لملالة و لا سأم، و لكن لعلمه بأنه لا يبلغ غاية ما يرغب من ربه، فإن الإنسان لحب الخير لشديد يتمنى أن يعطى الخير كله، و أن يصرف عنه السوء كله.

---

[٣٤٥] الأمالي للطوسي - ج١ ص٤٢٤
[٣٤٦] ميزان الحكمة - الريشهري ج٤ ص١٧

(يا خَيْرَ المَسْؤُولِين):
لأنك يا إلهي خير من سئل، و قد أمرتنا أن نعطي ما نحب، و وعدتنا على ذلك البر و الخير الكثير ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾(آل عمران/٩٢) فأنت سبحانك أولى بأن تعطي عبادك ما تحبه و ترضاه لهم، و هذه العطية لا شك في أنها أفضل ما يطلب السائلون، و فوق رغبة الراغبين، و أعلى من آمالهم و طموحاتهم.

(وَ أَوْسَعَ المُعْطِين):
وأنت يا إلهي أكرم من أعطى، فكل مسؤول غيرك يا ربي يعطي و هو يخشى النفاد، و يحتاج إلى المدد. و أنت يا ربي تعطي من تشاء و ما لرزقك من نفاد.

(اشْفِ بِهِ صُدُورَنا):
و في الجانب الآخر، هناك الآلام و الجراح، التي تنزف دما عبيطا، من شدة الظلم و قسوة العدوان.
تعاقبت السنون و الأعصار، و المؤمنون يتجرعون كؤوس البغي والجور، على أيدي الظالمين المستكبرين.
ففراعنة كل زمان يذبحون أبناء المؤمنين و يستحيون نساءهم و في ذلك بلاء عظيم.
و قد حفر كل ذلك في صدور المؤمنين المستضعفين، أخاديد من الجراح، عميقة غائرة، قد طال بها النزف و التوجع، فامتدت الأعناق، تنتظر بزوغ فجر العزة و الكرامة، بظهور الحجة ابن الحسن (عج)، فتطيب الجراح و تلتئم، و يتوقف النزف، و تشفى صدور المؤمنين.
و هذه الفقرة مقتبسة من قوله تعالى ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ. وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة١٤-١٥). وكذلك الفقرة التالية.

(وَ أَذْهِبْ بِهِ غَيْظَ قُلوبِنا):
فالله تبارك و تعالى هو المتكفل بإذهاب غيظ قلوب المؤمنين، و ليس لذلك طريق غير جهاد الأعداء، كما هو صريح الآية المباركة.
لا بد ليد الظلم أن تنقطع، و لا بد لسحابة الجور أن تنقشع و لا يكون ذلك إلا بأيدي المؤمنين الصادقين، الباذلين أنفسهم في سبيل الله تعالى ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ

ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ)(الحج٣٩-٤١).

و هيهات أن يجد المؤمنون راية حق و صدق، أفضل من راية الإمام المهدي الموجود الموعود (عج) الذي يخرج شاهرا سيفه، مجردا قناته، لا تأخذه في اللّه لومة لائم، ليملأ الأرض قسطا و عدلا بعدما ملئت ظلما وجورا، و ليظهر دين اللّه على الدين كله و لو كره المشركون.

(وَ اهْدِنا بِهِ لِما اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ):

إن الطبيعة البشرية، تفرض وجود الإختلاف بين الناس، فما هو واضح جلي عند البعض، غائم محجوب عن غيرهم، وما هو حق عند البعض، هو عين الباطل عند من سواهم.

و لذلك لا يمكن أن يترك الناس و شأنهم، ليقرروا ما هو الحق و ما هو الباطل، فهذا لا يوصل إلى نتيجة، يمكن البناء عليها أبدا، و لا يزيد الطين إلا بلة، و الخلاف إلى شدة و حدة

إذن لا بد من وضع المعايير و الموازين، التي يمكنها أن تميز الحق من الباطل، و أن تحكم بكل شفافية و وضوح.

و هذه هي مسؤولية الأنبياء و الرسل (ع) كما يبين القرآن الجيد (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)(البقرة/٢١٣) (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(النحل/٦٤).

و هو الدور الذي ورثه الأئمة المعصومون (ع) فيما ورثوه من النبي الأكرم (ص).

فقد ورد عن أهل البيت (ع) ما يؤكد هذا المعنى، كقول الإمام الصادق (ع): (إن سليمان ورث داود، وإن محمدا (ص) ورث سليمان، و إنا ورثنا محمدا (ص)، و إن عندنا علم التوراة والإنجيل والزبور، وتبيان ما في الألواح).[٣٤٧]
و قال عليه السلام: (لا واللّه ما فوض اللّه إلى أحد من خلقه إلا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وإلى الأئمة، قال عز وجل ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك اللّه﴾ و هي جارية في الأوصياء عليهم السلام).[٣٤٨]
و عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: (ليس عند أحد من الناس حق و لا صواب، ولا أحد من الناس يقضي بقضاء حق، إلا ما خرج منا أهل البيت، وإذا تشعبت بهم الأمور، كان الخطأ منهم، و الصواب من علي عليه السلام).[٣٤٩]

(إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ):

فالهداية إنما هي من اللّه سبحانه و تعالى، يؤتيها من يشاء من عباده، بحكمته و قدرته.
وقد جعل لها أسبابا، من أخذ بها، هداه إلى الصراط المستقيم، و من تخلف عنها أركسه في الضلال البعيد ولذلك بعث الأنبياء والرسل وأنزل معهم الكتاب، وجعل الأئمة الهداة المعصومين ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الشورى/٥٢) ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(المائدة/١٦) ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(الأعراف/١٥٨) ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(غافر/٣٨).

(وَ انْصُرْنا بِهِ عَلى عَدُوِّكَ وَ عَدُوِّنا):

وما النصر إلا من عند اللّه العزيز الحكيم، فهو بعزته قادر على نصر من يشاء، و بحكمته ينصر من هو أهل للنصر كيفما يشاء.

---

[٣٤٧] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٢٢٤ - ٢٢٥
[٣٤٨] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٢٦٨
[٣٤٩] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٣٩٩

فتارة ينصر عباده المؤمنين بجنود من الملائكة، و تارة أخرى ينصرهم بالريح و أخرى بطير أبابيل و حجارة من سجيل..

والقرآن الكريم يحدثنا عن مواقع اشتد فيها البأس على المسلمين، فأنزل الله تعالى عليهم النصر ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ. بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(آل عمران١٢٣-١٢٦) ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(الأنفال٩-١٠)

و تارة ينصرهم بقائد عظيم، آتاه الله الملك و الحكمة و الإمامة، كما نصر قوم نبي من أنبيائه إذ جعل داود (ع) قائدهم ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(البقرة/٢٥١).

وقد جاء في روايات أهل بيت العصمة والطهارة (ع) ما يدل على أن الله سبحانه وتعالى، ينصر أمة نبيه الأكرم (ص) في آخر الزمان، بقيام القائم من آل محمد (عج).

فعن الإمام زين العابدين (ع): (إذا قام قائمنا، أذهب الله عز و جل عن شيعتنا العاهة، و جعل قلوبهم كزبر الحديد، وجعل قوة الرجل منهم قوة أربعين رجلا، و يكونون حكام الارض و سنامها).[٣٥٠]

و عن ابي جعفر الباقر (ع): (من أدرك قائم أهل بيتي، من ذي عاهة، برئ، و من ذي ضعف، قوي).[٣٥١]

و عنه سلام الله عليه، في حديث في قوله عزّ و جل: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقّ و زهق الباطل﴾ قال: (إذا قام القائم (عليه السلام) ذهبت دولة الباطل)[٣٥٢]

و عن سيد الشهداء (ع) قال: دخلت على رسول الله (ص) وعنده أبي بن كعب، فقال رسول الله (ص): مرحبا بك يا أبا عبدالله، يا زين السماوات والأرض.

فقال أبيّ: كيف يكون غيرك زين السماوات والأرض يا رسول الله ؟

---

[٣٥٠] معجم أحاديث المهدي - ج٤ ص١٦٩

[٣٥١] مختصر بصائر الدرجات- الحسن بن سليمان الحلبي - ج١ ص١٢١

[٣٥٢] مستدرك سفينة البحار

فقال صلى اللّه عليه وآله: الحسين في السماء أكبر منه في الأرض - ثم انتهى إلى ذكر المهدي عليه السلام من ولده - فقال (ص): (يرضى به كل مؤمن، يحكم بالعدل، و يأمر به... حتى تظهر الدلائل و العلامات يجمع اللّه له من أقصى البلاد عدد أهل بدر، ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا).[٣٥٣]

و عن أبي عبداللّه (عليه السلام) قال: (إذا قام القائم نزلت سيوف القتال، على كل سيف اسم الرجل واسم أبيه).[٣٥٤]

(إلهَ الحَقِّ آمِينَ):

و اللّه أولى بالحق، لأنه هو الحق سبحانه، و هو إله الحق، و هو الذي أنزل الكتاب بالحق، و خلق الأشياء كلها بالحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

وفي هذه الفقرة الختامية لهذا الفصل من هذا الدعاء المبارك، يشير الإمام (ع) إلى أن نصرة الحق و تأييده و تمكينه في الأرض و إظهاره على الباطل، كل ذلك يتكفل به اللّه سبحانه، لأنه هو إله الحق، تبارك و تعالى.

و قد اختلفت الأقوال في معنى كلمة (آمين)، فقيل أنها كلمة تقال في إثر الدعاء، قال الفارسي: هي جملة مركبة من فعل و اسم، معناه اللهم استجب لي.

و قيل هو إيجاب (رب افعل) فهو موضوع في موضع اسم الاستجابة، كما أن (صه) موضوع موضع سكوت.

و حقها من الإعراب الوقف، لأنها بمنزلة الأصوات إذا كانت غير مشتقة من فعل، إلا أن النون فتحت فيها لالتقاء الساكنين، ولم تكسر النون لثقل الكسرة بعد الياء، كما فتحوا (أين و كيف). و تشديد الميم خطأ وهو مبني على الفتح مثل (أين و كيف) لاجتماع الساكنين.

قال ابن جني قال أحمد ابن يحيى: قولهم (آمين) هو على إشباع فتحة الهمزة ونشأت بعدها ألف.

و قال مجاهد (آمين) اسم من أسماء اللّه.

و قال الأزهري: وليس يصح كما قاله عند أهل اللغة، أنه بمنزلة (يا اللّه) وأضمر (استجب لي) و لو كان كما قال، لرفع إذا أجري، ولم يكن منصوبا.[٣٥٥]

---

[٣٥٣] الخرائج والجرائح - ج٣ ص١٨٠- ١٨١
[٣٥٤] الغيبة - النعماني - ج١٩ ص ١٢
[٣٥٥] لسان العرب - ج١٣ ص٢١

الفصل الثاني والعشرون / و في ختام الدعاء الشريف، يكشف الإمام المعصوم (ع) لنا عن الموانع و العقبات، والسلبيات و النواقص، و نقاط الضعف، التي تحول دون صلاح أمورنا، و تمنعنا من تحقيق عزتنا و استرجاع كرامتنا، وإقامة (الدولة الكريمة).
وأول تلك الموانع أن يكون اعتمادنا و توكلنا، و تضرعنا و شكوانا لغير اللّه سبحانه و تعالى.
بل إن كل تلك الموانع و العقبات و النواقص، تزول و تمحى، لا بل و تتحول إلى قوة و يسر و اقتدار، بالتوكل على اللّه والإعتماد عليه سبحانه و تعالى.

(اللّهمّ إنّا نَشْكُو إلَيْكَ):

و لقد ضاقت السبل في وجه نبي اللّه يعقوب (ع) واشتد به الحزن و الألم لفقد حبيبه يوسف (ع)، فما كان منه إلا أن يرفع أيدي التضرع و الدعاء إلى ربه سبحانه يبثه شكواه وحزنه و ألمه ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(يوسف/٨٦).
و أيوب إذ مسه الضر، و تفاقمت عليه محنته، فصبر حتى عجز الصبر عن صبره، ولكنه لم يلجأ إلى أحد سوى ربه متضرعا شاكيا ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(الأنبياء/٨٣).
و هذا سيد الأنبياء و خاتم المرسلين (صلى اللّه عليه وآله وسلم) لما آذاه أهل الطائف و رماه (ص) صبيانهم بالحجارة، جلس (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في ظل حائط يدعو اللّه ربه: (اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، و قلة حيلتي، وهواني على الناس. أنت أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، و أنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري. إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، و لكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، و صلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، و لا حول و لا قوة إلا بك).[٣٥٦]

---

[٣٥٦] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج١٩ ص٢٢

(فَقْدَ نَبِيِّنا صَلَواتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ):

و أعظم شئ يشتكي منه المؤمن، هو أشد ما يؤلمه، و ليس هناك ما هو أشد إيلاما من فقد رحمة رب العالمين، الحبيب المصطفى (صلوات اللّه وسلامه و على آله الطاهرين).

إن الألم لافتقاد أي شئ، إنسانا كان المفقود أم غيره، يؤثر في نفس الفاقد، بحسب أهمية ذلك الشئ المفقود، فكلما كان المفقود أعظم في نظر الفاقد، كان تألمه و افتجاعه لفقده أشد و أكبر.

و هل فيما خلق اللّه تعالى، من هو أعظم و أكرم و أعلى من حبيب اللّه و صفيه ونجيبه، الذي اختاره من الذؤابة العلياء واصطفاه بخاتم الرسالات، و امتدحه و قربه و أدناه و عظمه.

إن فقد النبي الأكرم (ص) كما هو فاجعة مؤلمة من الناحية العاطفية، فهو بدرجة لا تقل كارثة إنسانية عظيمة، إذ بفقده غاب عنا القائد الهادي، المسدد من السماء، والموحى إليه بالعلم و الهدى و الرشاد.

وأسمع بأمير المؤمنين (ع) يذكر بعضا من صفات هذا النبي الكرم (حتى أفضت كرامة اللّه سبحانه إلى محمد (ص) فأخرجه من أفضل المعادن منبتا، و أعز الأرومات مغرسا، من الشجرة التي صدع منها أنبياءه، و انتجب منها أمناءه .. فهو إمام من اتقى، و بصيرة من اهتدى، سراج لمع ضوؤه وشهاب سطع نوره، وزند برق لمعه سيرته القصد، وسنته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل).[٣٥٧]

و في حديث طويل يقول فيه أمير المؤمنين (ع) (فنزل بي من وفاة رسول اللّه (ص) ما لم أكن أظن الجبال لو حملته عنوة كانت تنهض به، فرأيت الناس من أهل بيتي ما بين جازع لا يملك جزعه، و لا يضبط نفسه، و لا يقوى على حمل فادح ما نزل به، قد أذهب الجزع صبره و أذهل عقله، وحال بينه وبين الفهم والإفهام، والقول والاستماع، وسائر الناس من غير بني عبد المطلب، بين معز يأمر بالصبر وبين مساعد باك لبكائهم جازع لجزعهم، و حملت نفسي على الصبر عند وفاته بلزوم الصمت والاشتغال بما أمرني به من تجهيزه و تغسيله و تحنيطه و تكفينه و الصلاة عليه ووضعه في حفرته و جمع كتاب اللّه و عهده إلى خلقه، لا يشغلني عن ذلك بادر دمعة و لا هائج زفرة، و لا لاذع حرقة و لا جزيل مصيبة، حتى أديت في ذلك الحق الواجب للّه عز وجل و لرسوله (ص) علي، و بلغت منه الذي أمرني به واحتملته صابرا

---

[٣٥٧] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج١٦ ص٣٧٩

محتسبا).[٣٥٨] و روي أنه (ع) وقف على القبر بعد أن أهال عليه التراب، و هو يبكي على فراق رسول اللّه (ص) و أنشأ يقول:[٣٥٩]

أمن بعد تكفين النبي محمد
بأثوابه آسى على ميت ثوى
لقد غاب في جنح الظلام لفقده
عن الناس طرا خير من وطأ الثرى
رزئنا رسول اللّه فينا فلن نرى
بذاك عديلا ما حبينا من الورى
و كنا بمرآه نرى النور و الهدى
صباحا مساء راح فينا أو اغتدى
لقد غشيتنا ظلمة بعد موته
نهارا و قد زادت على ظلمة الدجى
و كنا به شم الأنوف بنخوة
على موضع لا يستطاع و لا يرى
و ضاق فضاء الأرض عنهم برحبه
لفقد رسول اللّه إذ قيل قد مضى

و أما بكاء السيد فاطمة الزهراء (أم أبيها) صلوات اللّه وسلامه عليها، فقد فاق كل تصور، لشدة ما آلمها فقد أبيها النبي الأكرم (ص)، وقد روى المؤرخون على لسانها أبياتا في رثائه (ص):[٣٦٠]

اغبر آفاق السماء و كورت
شمس النهار و أظلم العصران
فليبكه شرق البلاد و غربها
و ليبكه مضر و كل يماني
و ليبكه الطود المعظم جوه
والبيت ذو الأستار و الأركان

---

[٣٥٨] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج٣٤ ص١٧٣
[٣٥٩] وفاة النبي محمد (ص) - ج٦١ ص١
[٣٦٠] فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد - ج١ ص١٥٥

وقد طارت في الآفاق أبياتها التي ترثي بها أباها (ص):[٣٦١]

قد كان بعدك أنباء وهنبثة
لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها
و اختل قومك فاشهدهم فقد نكبوا
قد كان جبريل بالآيات يؤنسنا
فغبت عنا فكل الخير محتجب
و كنت بدرا و نورا يستضاء به
عليك تنزل من ذي العزة الكتب

(وَ غَيْبَةَ وَلِيِّنا):

و تأتي الفاجعة الثانية، لتزيدنا ضعفا و عجزا عن بلوغ كمالنا، و تحقيق آمالنا، و ما نرجوه من العزة و الكرامة.

إن اللّه برحمته و كرمه و لطفه، أبى أن تخلو الأرض من حجته، به يقيم الشرائع، و يدفع الشبهات، و ينزل البركات على العباد و البلاد، ويحفظ الأرض والناس من الهلاك.

فقد روي عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال للزنديق الذي سأله من أين أثبت الأنبياء و الرسل ؟

قال (ع): إنه لما أثبتنا أن لنا خالقا صانعا متعاليا عنا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيما متعاليا لم يجز أن يشاهده خلقه، و لا يلامسوه، فيباشرهم و يباشروه، ويحاجهم و يحاجوه، ثبت أن له سفراء في خلقه، يعبرون عنه إلى خلقه و عباده، و يدلونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفى تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبرون عنه جل وعز وهم الأنبياء عليهم السلام وصفوته من خلقه، حكماء مؤدبين بالحكمة، مبعوثين بها... لكيلا تخلو أرض اللّه من حجة يكون معه علم يدل على صدق مقالته وجواز عدالته).[٣٦٢]

و عن أبي عبد اللّه (ع) (إن الأرض لا تخلو إلا و فيها إمام، كيما إن زاد المؤمنون شيئا ردهم، و إن نقصوا شيئا أتمه لهم).[٣٦٣]

---

[٣٦١] فاطمة الزهراء الحوراء الإنسية - الشيخ ضياء الجواهري - ج١ ص١٥
[٣٦٢] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٣٩٩
[٣٦٣] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ١٧٨

و عن أبي حمزة قال: قلت لأبي عبد الله (ع): (أتبقى الأرض بغير إمام ؟ قال: لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت).[٣٦٤]
و عن أبي جعفر عليه السلام قال: (لو أن الإمام رفع من الأرض ساعة لماجت بأهلها، كما يموج البحر بأهله).[٣٦٥]
و هذه الروايات الشريفة تثبت فيما تثبت أن الإمام الحجة ابن الحسن (عج) موجود في مكان ما على الكرة الأرضية، و أنه إنما غيب عن أبصارنا و حواسنا، لا نقدر على رؤيته أو الإحساس المادي بوجوده، و إن كنا نشعر بلطفه و إحسانه.

(وَ كَثْرَةَ عَدُوِّنا):

ومن تلك الموانع الكبيرة، والعقبات الكؤود، التي تحول دون سبوغ العزة الكرامة على الإسلام وأهله في زمان غيبة ولي الله الأعظم، المهدي الموجود الموعود (عج)، تكالب الأعداء من كل جانب، و تحفزهم لإطفاء نور الله بأفواههم.
و هذه طبيعة في الإنسان الجهول الظلوم العجول، إذ أنه يسرع لاهثا خلف أهوائه و شهواته و رغباته، محطما في طريقه البئيس هذا كل القيم و المثل و المبادئ.
ولذلك نجد القرآن الكريم يقرر في كثير من آياته الشريفة، أن الأكثرية هم دائما أتباع الباطل ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(البقرة/١٠٠) ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(آل عمران/١١٠). ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(المائدة/١٠٣) ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(الأنعام/٣٧) ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾(الأنعام/١١١) ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾(الأعراف/١٧) ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾(الأعراف/١٠٢) ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾(التوبة/٨).
و من ينظر إلى الواقع المحيط بعالمنا الإسلامي، يجد بشكل واضح لا لبس فيه، كما هائلا من المؤمرات والدسائس التي تحاك ضدنا، في الليل و النهار، لتخمد أصغر شرارة من نور يمكنها أن تضيء ليلنا البهيم، وتبعث فينا العزم و الهمة واليقين، بأن قدرنا هو أن نخرج من الظلمات إلى النور، و أن نملأ الأرض نورا و إشراقا و عدلا و محبة، تحت راية ولي الله الأعظم و حجته على الخلق، المهدي الموجود الموعود (عج).

---

[٣٦٤] الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ١٧٩
[٣٦٥] المصدر نفسه

(وَ قِلَّةَ عَدَدِنا):

إن قضية استرجاعنا لعزتنا و كرامتنا، عالقة بين سندانة كثرة الأعداء، و مطرقة قلة الأعوان و الأنصار، فأنى تتحقق لنا آمالنا الكبيرة.

وكما أن القرآن الكريم يصف الأكثرية من الناس بأنهم على الباطل، فإنه يعتبر أن أنصار الحق قلة على مر التاريخ ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ﴾(الأنفال/٢٦) ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(سبأ/١٣) ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾(ص/٢٤).

(وَ شِدَّةَ الفِتَنِ بِنا):

ومن أهم أسباب قلة عدد المؤمنين، أن حب الدنيا يجعل طعم الحق مرا، و أن الشيطان و أولياؤه يلبسون على الناس دينهم، حتى قال أمير المؤمنين (ع) (ما ترك لي الحق من صديق) و قال صلوات الله وسلامه عليه (لا تستوحشن طريق الحق لقلة سالكيه).

والقرآن الكريم يتناول هذه القضية، إذ يعبر عنها بالامتحان والابتلاء و الفتنة، في كثير من آياته الشريفة، منها:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ. وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾(العنكبوت٢-٣).

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ﴾(البقرة١٥٥).

﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(الزمر/٤٩).

بل إن الحياة كلها، و كذلك الموت، ليسا إلا ابتلاء من الله تعالى و امتحانا منه سبحانه ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾(الملك١-٢).

هذه الفتن التي يتلون الباطل فيها بألوان الطيف المغرية، ويزين وجهه الدميم بصنوف المساحيق والأصباغ الفاقعة، ويخفي أنيابه الحادة وحراشفه القاطعة تحت ثوب حريري ناعم

فيخفى على كثير من الناس سوء مخبره، و يقعون في حبائل حسن منظره.

و يمكن أن نعد حب الدنيا والتعلق بها، على رأس قائمة تلك الفتن الخطيرة جدا، فقد صح عن النبي الأكرم (ص) قوله (حب الدنيا رأس كل خطيئة).[٣٦٦] و قال الإمام الباقر (ع): (إن فيما ناجى الله به موسى عليه السلام أن قال: و اعلم أن كل فتنة بذرها حب الدنيا).[٣٦٧] و عن امير المؤمنين (ع) قال: قال رسول الله (ص): (إن الدينار و الدرهم أهلكا من كان قبلكم، وهما مهلكاكم).[٣٦٨]

و قال رسول الله (ص): يوشك أن تداعى الامم عليكم تداعي الأكلة على قصعتها. قال قائل منهم: من قلة نحن يومئذ ؟ قال (ص): بل أنتم كثير و لكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من عدوكم المهابة منكم، و ليقذفن في قلوبكم الوهن. قال قائل: يا رسول الله و ما الوهن ؟ قال (ص): حب الدنيا و كراهية الموت.[٣٦٩]

و عن أمير المؤمنين (ع): (مثل الدنيا كمثل الحية لين مسها والسم القاتل في جوفها يهوي إليها الغر الجاهل و يحذرها اللبيب العاقل).[٣٧٠]

ولذلك فقد حرص الأئمة الطاهرون (ع) أن يعلمونا كيف نسأل الله تعالى، الوقاية من فتن الدنيا و حبائل الشيطان الرجيم، فقد ورد عن الإمام زين العابدين وسيد الساجدين (عليه السلام) في مناجاة الشاكرين: (و شيطانا يغويني، قد ملأ بالوسواس صدري، و أحاطت هواجسه بقلبي، يعاضد لي الهوى، و يزين لي حب الدنيا، و يحول بيني و بين الطاعة و الزلفى).[٣٧١]

وأما كتاب الله المجيد، فهو لا يفتأ يطرق أسماعنا بالحذر من حب الدنيا، و الخوف من فتنتها و زينتها، يقول سبحانه:

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(البقرة/٢١٢). ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾(آل عمران/١٤). ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾(آل عمران/١٨٥). ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(الأنعام/٣٢). ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا

---

[٣٦٦] عوالي اللآلي - ج١ ص١٨
[٣٦٧] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج١٣ ص٣٥٣
[٣٦٨] مشكاة الانوار - ج١ ص٢٠٣
[٣٦٩] ميزان الحكمة - محمدي الريشهري - ج١ ص١٠١
[٣٧٠] غرر الحكم و درر الكلم - (٢١٨٢) ج١ ص٧٠
[٣٧١] بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج٩١ ص١٤٣

شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾(الأنعام/٧٠). ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾(الأنعام/١٣٠). ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(الأعراف/٥١). ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾(يونس/٧). ﴿أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(يونس/٨).

و من الطبيعي أن يصبح التمسك بالدين و القيم و المبادئ، تحت كل هذه الضغوط والإغراءات، التي تسلب الإنسان لبه و تفقده رشده، ليس بالأمر الهين المستطاع لكل أحد، ولذلك فقد ورد عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: (يأتي على الناس زمان، الصابر منهم على دينه، كالقابض على الجمر) و قال (ص) لأصحابه: (يأتي على الناس زمان، الصابر منهم على دينه، له أجر خمسين منكم).
قالوا يا رسول الله، أجر خمسين منا ؟!
قال (ص): (نعم، أجر خمسين منكم). قالها ثلاثا.[٣٧٢]

و لعلنا نجد في أنفسنا أننا ممن يعلنون الولاء للإمام الحجة (عج) ويدعون له بالفرج، و يتلهفون لظهوره، و لكن الخوف كل الخوف أن ينطبق علينا قول المعصوم (ع) (ما أكثر الضجيج و أقل الحجيج).

(وَ تَظَاهُرَ الزَّمَانِ عَلَيْنا):

يقال أن الأشياء إذا تعددت و كثرت، بحيث كاد أن يكون تفصيل ذكرها، أمرا غير مقدور عليه، أو يوجب مشقة للمتحدث أو للسامع، أو يتطلب الكثير من الوقت أو الجهد، فإنه يحسن الإكتفاء بتضمينها في ظرف الزمان أو المكان المستوعب لها، فيقال: هذا العام كان بركة علي، أو هذا البلد كان مصدر خير لي.

وهنا إذ كانت العوامل والأسباب الموجبة للوهن والضعف، من الكثرة إلى درجة يصعب معها الإحاطة بذكرها، فقد اكتفى الإمام (ع) بذكر ظرف الزمان الذي تجمعت فيه.

---

[٣٧٢] الأمالي للطوسي - ج٢ ص٥٣

فهذا الزمان المليء بكثرة الأعداء و قلة الأنصار و شدة الفتن، حتى بات و كأنه هو الذي يبدي لنا صفحة العداء، ويتظاهر ويتعاون مع أعدائنا ليشن علينا الغارات، و يمنعنا أن نصل إلى تحقيق آمالنا.

هذه كلها هي عوامل ضعفنا و هواننا، التي تقف سدا حائلا بيننا و بين آمالنا و طموحاتنا في بلوغ العزة و الكرامة، وما لم نعمل على معالجتها وإزالتها، وتبيدلها بالقوة والقدرة والعلم والعمل الصالح، فإننا سنظل قابعين في أسفل درك الضعة و الإنحطاط، و نتجرع أمر كؤوس الظلم والإضطهاد.

و ليس لنا من سبيل إلا أن نشحذ الهمم و نتدرع بالصبر، ونتسلح بالعلم والإيمان، لنغير ما بأنفسنا، و عندها فقط سيغير الله سوء حالنا ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(الرعد/١١).

(فَصَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ):

بين الشكوى إلى الله و عرض الحال الذي لا يخفى عليه، و بين الطلب منه، يأتي الدعاء الذي لا يرد، و الذي يرفع كل دعاء، فما من دعاء يستجاب إلا و قبله أو بعده الدعاء بالصلاة على النبي الأكرم محمد وآله الطاهرين.

وقد أوردنا في مطاوي هذا الكتاب رواية عن الإمام الصادق (ع) ونعيدها هنا تبركا (لا يزال الدعاء محجوبا عن السماء حتى يصلي على محمد و آل محمد عليهم السلام).[٣٧٣]

وفي الصلاة على النبي و آله الطاهرين، حديث شيق للعلامة الطباطبائي (أعلا الله مقامه) إذ يقول: و في التوحيد، بإسناده عن عمر قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): (لا تضربوا أطفالكم على بكائهم فإن بكاءهم أربعة أشهر شهادة أن لا إله إلا الله، و أربعة أشهر الصلاة على النبي، و أربعة أشهر الدعاء لوالديه).

أقول: هو حديث لطيف و معناه: أن الطفل في الأربعة أشهر الأولى لا يعرف أحدا و إنما يحس بالحاجة فيطلب بالبكاء رفعها، و الرافع لها هو الله سبحانه فهو يتضرع إليه ويشهد له بالوحدانية.

و في الأربعة أشهر الثانية يعرف من والديه واسطة ما بينه و بين رافع حاجته، من غير أن يعرفهما بشخصيهما، والواسطة بينه و بين ربه هو النبي (ص)، فبكاؤه طلب الرحمة من ربه للنبي حتى يصل بتوسطه إليه.

---

[٣٧٣] الأمالي للطوسي - ج٢ ص٢٥٣

و في الأربعة أشهر الثالثة يميز والديه بشخصيهما عن غيرهما فبكاؤه دعاء منه لهما و طلب جريان الرحمة من طريقهما إليه.
ففي الحديث ألطف الإشارة إلى كيفية جريان الفيض من مجرى الوسائط فافهم ذلك.[٣٧٤]

ويقول الشيخ مكارم الشيرازي (أدام اللّه عزه): ﴿إنّ اللّه وملائكته يصلّون على النّبي﴾ إن مقام النّبي (ص) و منزلته من العظمة بمكان، بحيث أن خالق عالم الوجود، و كل الملائكة الموكلين بتدبير أمر هذا العالم بأمر اللّه سبحانه يصلون عليه، و إذا كان الأمر كذلك، فضموا أصواتكم إلى نداء عالم الوجود هذا، فـ ﴿ياأيّها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً﴾. إنه جوهرة نفيسة لعالم الخلقة، وقد جُعل بينكم بلطف اللّه، فلا تستصغروا قدره، ولا تنسوا مقامه و منزلته عند اللّه وملائكة السماوات.. إنه إنسان ظهر من بينكم، لكنه ليس إنسانا عاديا، بل هو إنسان يتلخص عالم الوجود في وجوده.[٣٧٥]

(وَ أَعِنّا عَلىٰ ذٰلِكَ):

لأننا نحن البشر، مهما تراءى لنا أننا أقوياء قادرون، فإننا أعجز من أن نستنقذ شيئا أخذ منا و لو كان بمقدار ما تحمل الذبابة ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾(الحج/٧٣).
ثم إن كل ما نصنعه من آلات و معدات و أجهزة، تبدو في نظرنا أنها عملاقة هائلة، و نظن أنها قادرة على اقتلاع الجبال من أماكنها، إلا أنها في الحقيقة لا تعدو أن تكون لعبة يقلبها طفل بين يديه ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(العنكبوت/٤١).
إذن فلا غنى لنا عن طلب العون و المدد من اللّه سبحانه، الذي بيده ملكوت كل شيء، و الذي أمره بين الكاف والنون ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(يس/٨٢).

(بِفَتْحٍ مِنْكَ تُعَجِّلُهُ):

و أول الغيث، فتح من اللّه، عاجل كلمح البصر أو هو أقرب، إذ أن الفتح يتضمن الإغناء و التيسير في الأمور كلها.

---

[٣٧٤] تفسير الميزان - العلامة الطباطبائي - ج١٦ ص٩٨
[٣٧٥] تفسير الأمثل - مكارم الشيرازي - ج١٣ ص٣٤١

الفتح هو انفراج المغاليق، و إزاحة العقبات وإزالة الموانع كلها، ليصبح الطريق إلى الآمال الكبيرة معبدا مذللا، يسلكه المؤمنون بصدق توكلهم على ربهم، فيزيدهم اللّه فتحا بعد فتح، و عزة على عزة.

(وَ بِضُرٍّ تَكْشِفُهُ):

ثم إذا تم الفتح جاء الدور على الضر، المتمثل في المكر والكيد والدسائس، التي يقف وراءها الأعداء، ليحبطوا إنجازات المؤمنين، و يصرفوا عنهم الخير، و يحرموهم من التنعم بذلك الفتح الإلهي المبين ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(البقرة/١٠٥) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾(سبأ/٣٣).

فبمجرد أن يمد اللّه عباده المؤمنين بالفتح أو نصر من عنده، يبدأ المنافقون و الكفار، بتشحذ مدى الغدر و الخيانة، وسيوف المكر و الخديعة، للإيقاع بالمؤمنين، و بث الفرقة والفتنة في صفوفهم، و إثارة العداوة والبغضاء فيما بينهم ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(الأنفال/٣٠) ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً﴾(النساء/٨٤).

(وَ نَصْرٍ تُعِزُّهُ):

والقرآن المجيد يحدثنا عن هذا النصر العزيز، الذي من اللّه سبحانه به على نبيه الأكرم (ص) ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾(الفتح/٣) فهو ليس كأي نصر آخر.

إنه نصر فريد من نوعه، لا تشبهه الإنتصارات كلها، لأنه محفوف بتأييد من اللّه تعالى ولطف عظيم، تمثل في إمالة قلوب المؤمنين إليه (ص) و انعطافهم عليه، لذلك يعقب اللّه تعالى بعد النصر العزيز بقوله سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(الفتح/٤).

وهذا ما يطلبه المؤمنون من اللّه سبحانه وتعالى أن يؤتيه للإمام المهدي الموجود الموعود (أرواحنا لتراب مقدمه الفداء)

(وَ سُلْطانٍ حَقٍّ تُظْهِرُهُ):

لأن كل ذلك الفتح العاجل و الضر المكشوف و النصر العزيز لا يتبلور في صورة كاملة، تتحقق فيها الكرامة والعزة للإسلام و أهله، إلا إذا صبت في وعاء الدولة الكريمة، التي يؤسسها و يحكمها سلطان حق وإمام هدى من آل بيت العصمة والطهارة (عج) يظهره اللّه تعالى بعد طول غيبة.

و الإمام المهدي الموجود الموعود (عج) إنما هو في الحقيقة حجة من اللّه سبحانه على عباده، مؤيد بالحق، لأنه وراث أمير المؤمنين (ع) الذي قال فيه رسول اللّه (ص): (علي مع الحق و الحق مع علي، يدور حيثما دار)[٣٧٦] وقال (ص): (علي مع الحق، و الحق معه، لا يفترقان حتى يردا علي الحوض).[٣٧٧]

(وَ رَحْمَةٍ مِنْكَ تُجَلِّلُناها):

و إذ آذن الدعاء الشريف على الإنتهاء، و قد أتم الإمام المعصوم (ع) فيه عرض كل حوائجه و مسائله، على اللّه سبحانه و تعالى.

فقد حسن أن يكون مسك ختام الدعاء، إجمال الطلب كله، في عبارتين، إحداهما (طلب الرحمة) و هي إنزال كل جميع خير الدنيا و الآخرة، على المؤمنين.

والرحمة المطلوبة هي من اللّه سبحانه، لا من غيره، رحمة جامعة لكل الخير والكرامة، محيطة بالإنسان في كل حركاته و سكناته، شاملة له في كل أحواله، يجلله اللّه تعالى بها.

(وَ عافِيَةٍ مِنْكَ تُلْبِسُناها):

والعبارة الأخرى، المختصرة لجميع سؤل المؤمن في دعائه هذا (طلب العافية) و هي دفع كل سوء و بلية، و كشف كل ضر و أذية.

ونتذكر هنا دعاء مباركا، أدمنا على قراءته بتوفيق اللّه تعالى في أيام شهر رجب الحرام، نقول فيه (أعطني بمسألتي إياك جميع خير الدنيا والآخرة، و اصرف عني بمسألتي إياك جميع شر الدنيا و شر الآخرة).

---

[٣٧٦] ميزان الحكمة - محمدي الريشهري - ج١ ص١٤١

[٣٧٧] جامع الأخبار - ج٤ ص١

كما نتذكر دعاء القنوت في صلاة العيدين، إذ نقول فيه (وأن تدخلني في كل خير أدخلت فيه محمدا و آل محمد، و أن تخرجني من كل سوء أخرجت منه محمدا و آل محمد).

(بِرَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرّاحِمِينَ):

لأننا يا إلهي لا نستحق عليك شيئا، و لا نملك لأنفسنا نفعا و لا ضرا، و لا موتا و لا حياة و لا نشورا.

فكل ما تعطينا إياه يا إلهي، إنما هو منة و تفضل، منك سبحانه، لأنك أرحم الراحمين.

اللهم كن لوليك الحجة ابن الحسن (صلواتك عليه و على آبائه الطاهرين، في هذه الساعة و في كل ساعة، وليا وحافظا و قائدا و ناصرا و دليلا و عينا، حتى تسكنه أرضك طوعا، و تمتعه فيها طويلا.

اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه، واجعلنا من أنصاره وأعوانه والذابين عنه المستشهدين بين يديه.

اللهم إن حال بيني وبينه الموت الذي جعلته على عبادك حتما مقضيا، فأخرجني من قبري، مؤتزرا كفني، شاهرا سيفي، مجردا قناتي، ملبيا دعوة الداعي ... يا أرحم الراحمين.

اللهم لك الحمد أن أعنتني على ختم هذا العمل الصالح، اللهم فكما أعنتني عليه، فاقبله مني بكرم وجهك يا كريم، وصل اللهم على سيدنا محمد و آله الطاهرين.

و الحمد لله رب العالمين

فهرس الكتاب :

تم بحمد الله

يقول سماحة الحكيم الرباني

آية اللهّ العظمى الشيخ جوادي آملي (أدام اللهّ عزه) :

لنيل الكرامة عند اللهّ الكريم ، يجب أن نتقرب إليه بأغلى شئ عنده سبحانه ، وهو الدعاء ، كما يقول رسول اللهّ (ص) : (ليس شئ أكرم عند اللهّ من الدعاء)

الخضوع في الدعاء هو الطمأنينة التوحيدية ، التي تلازم الإضطرار دائما ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾ لا الإضطراب ، ذلك أن الموحد مطمئن وليس مضطربا .

وكلما كان الإضطرار والإدراك الحضوري بالحاجة والضرورة أكبر ، كلما كان القرب الإلهي المستلزم لإجابة الدعاء أكمل ﴿ فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان ﴾ .

والداعي لا يرجع خائبا أبدا ، فإن كان مطلوبه موافقا لمصلحته ، أجيب إليه ، وإلا فإن اللهّ تعالى يفيض عليه بعطاء آخر ، بديلا عما طلبه ، لأن الحكمة هي السر وراء التبديل أو تأخير الإجابة (و لعل الذي أبطأ عني هو خير لي لعلمك بعاقبة الأمور) ومن هنا فإن أدب الدعاء يقتضي التسليم المطلق .